روايات عالمية

المقامر







الدار القومية للطباعة والنشر
١١ شارع الصحافة القاهرة



روايات عالمية

المغامر

رواية تاريخية .. قوية بموضوعها وأسلوبها

للكاتب الانجليزى الكبير
رافاييل ساباتينى

الفصـــل الاول

دهاء المـــرأة

كان العهد حافلا بالاضطرابات السياسية التى شطرت الامة الانجليزية الى معسكرات متنافرة متحفزة. والاستعدادات للحرب القريبة مع هولاندا قائمة على قدم وســاق . والفزع من وبـاء الطاعون الذى ظهرت بوادره فى ضواحى لندن يملأ النفوس رهبة وجزعا .

لكن مارتا كوين صاحبة « فندق بول » لم تكترث بشىء من هذا ولم تكلف نفسها عناء الاهتمام به .. فقد كان كل ما يعنيها من الحياة هو الاستغراق فى المسائل الدنيوية التى تتصل بالمطالب المباشرة . ولم يجاوز تفكيرها هذا النطـاق الى محيط الحيـاة المشتبك وظواهرها المتشبعة المعقدة .

وصحيح أن فضائح البلاط الانجليزى فى ذلك العهـد كانت مادة طريفة لاحاديث الشعب ومثار تعليقه وتنديده . وكانت لندن بأسرها غارقةفىتمجيد مواهب الممثلة العظيمة«سيلفيافاركارسون» التى كانت تظهر على « مسرح الدوق » مع الممثل « بيترتون » فى دور كاترين فى رواية هنرى الخامس الخالدة .

لكن هذه الحواشى كانت تنال بعض اهتمام مدام «مارتا كوين» اما عنايتها الحقيقية فقد تركزت فى الاشراف على فندقها ورعايته تمام الرعاية حتى اكتسبت شـــهرة طيبة . وكانت مواهبهــا فى فنون الطهى واعداد اللحوم لا يشق لها غبار .

والى جانب هذه المواهب التى تفردت بها مارتا كانت خبيرة باحوال الرجال ، قديرة على اختبارهم بنظرة واحدة قدرتها على اختبار ديك وتقدير سنة ووزنه بنفس النظرة . وبفضـــل هذه القدرة على معرفة الرجال فاز الكولونيل هولز بالاقامة فى الفندق شهرا كاملا تمتع فى أثنائه بالفراش الوثير والطعام المتقن والشراب المعتق دون أن تلقى عليه مارتا سؤالا واحدا عن تضخم حسابه أو تناقشه فى مقدار ثروته .

أفردت مارتا غرفة خاصة وثيرة للكولونيل هولز ، ذات نافذة تطل على الحديقه . والى هذه النافذه جلس الان الكولونيل يدخن غليونه ويسرح النظر فى أرجاء الحديقة بعد أن تناول طعام الافطار ، بينما اخذت مارتا تزيل الاثار الباقية وهى تتلكأ تلكؤا ظاهرا .

راحت مارتا تتردد بين المائده وبين دولاب جانبى وهى تختلس النظر الى الكولونيل الذى كان غارقا فى التفكير دون أن تأنس من نفسها قدرة على قطع حبل تفكيره .. وكانت فى أواخر العقد الرابع من عمرها ، موردة الوجه ، على حظ يسير من الجمال ، وافرة الصحة ، يلمع فى عينيها الزرقاوين بريق المكر والدهاء ، وينم فمها الممتلىء عن الطمع .

كانت اما لستة أولاد انجبتهم من آباء متفرقين ، وقد رأت اخيرا انها بلغت سنا تخمد فيه جذوة المغامرة ويستحب الاعتكاف والاخلاد الى الحياة البيتية المحترمة الوادعة . وكانت تملك ثروة طيبة جمعتها من ادارة فندقها فى خلال خمسة عشر عاما كاملة بنجاح . ولو شاءت لانتقلت الى الريف حيث تختار بيتا يجتمع فيه كل ماتشتهيه النفس من مباهج الحياة ، وتغدو من سيدات الريف البارزات . ولم يكن ينقصها ن الواقع الا زوج طيب العنصر مهذب النشأة تسد به نقصها فى هذا الشأن ، ولا بأس أن يكون رقيق الحال قليل المال ، فان فى ثروتها الكفاية .

وفى الحق انها وجدت هذا الرجل فى شخص الكولونيل هولز وما كادت تقع عليه عيناها حالما جاء الى فندقها منذ شهر حاملا حقيبته على ظهره حتى ايقنت من الفوز بالزوج المنشود . وبنظرة واحدة قدرت صفاته . فقد كان جنديا طويل القامة عريض المنكبين وسيم المحيا ، حليق الوجه ، تتدلى من اذنه خلف شعره المتموج الذهبى ياقوتة تنطق عن رخاء قديم ، وكان يحمل سيفا طويلا تستقر يده اليسرى على مقبضه فى اعتداد الجندى القدير والفارس الباسل .

قدرت مارتا هذه الصفات بنظرة واحدة ، واستخلصت معها فاقته من ملابسه البالية القديمة التى حاول أن يحجبها خلف سترته ، لكنها رحبت بهذه الفاقة ووجدت فى هذا النزيل رجل أحلامها الذى ارسلته العناية الى بابها .

وقد قرر لها الكولونيل هولز حال قدومه انه جاء الى لندن فى شأن خاص يقتضيه الذهاب الى البلاط ، وانه ينوى الاقامة فى

الفندق أسبوعا أو أكثر وفق مقتضيات الاحوال ، فرحبت به مارتا واحتفت بقدومه ، ورأت انها اذا أحكمت شباكها حوله فقد يقيم معها الى الابد ، ولذلك أعدت له أفخر غرف النوم فى فندقها ، واتحفته بأطيب الطعام والشراب ، حتى لم يتمالك هولز ان احتج ضاحكا على هذه العناية الزائدة ، لكنها قررت له فى تودد ان هذا واجبها فى اكرام النبلاء أمثاله ، ولم يحلم الكولونيل المسكين بأنها ما قصدت من ذلك الا اغراقه بكرمها تمهيدا للغاية التى ترمى اليها ..

فرغت مارتا أخيرا من تنظيف المائدة . ورأت أن خير ما تتوسل به لقطع حبل تفكير الكولونيل هو الكلام فى مسائل الشراب الذى يهيم به هياما خاصا ، ولا سيما بعد افطار حافل ، ولذلك وقفت أمامه حاملة اناء الخمر .. وقالت له :

ــ هل تحتاج الى شىء آخر يا كولونيل ؟ .

أدار هولز رأسه الى ناحيتها ، ورفع غليونه من فمه ، وتطلع اليها برزانة طرأت على ملامح وجهه فى الايام الاخيرة . وأجاب :

ــ لا شىء .. شكرا لك ..

فابتسمت مارتا ابتسامة مغرية ، ورفعت الاناء بيدها وقالت :

ــ لا شىء ؟ . ولا كأسا أخرى قبل خروجك ؟ .

لم يتمالك الكولونيل بدوره ان ابتسم وأشرق محياه المتجهم ، وقــال :

ــ الواقع انك تفسديننى ! .

فقالت متوددة :

ــ أليس هذا هو واجب ربة البيت الحقيقية ؟ .

وحملت اليه الاناء ووضعته فى صــحفة فوق مقعــد صــغير بجانبه ، وتلكأت حوله حتى تجرع بعض الشراب . ثم قالت له :

ــ هل تنوى الخروج فى هذا الصباح ؟ .

فأجاب فى اعياء ويأس :

ــ نعم .. أبلغونى ان صاحب السمو الدوق البيمارل سيعود اليوم ، لكنى سمعت هذا الكلام مرات متعددة حتى ..

وتنهد دون أن يتم جملته . ثم استطرد :

ــ يخيل الى أحيانا أنهم يسخرون منى ..

فقالت فى جزع :

ــ يسخرون منك ! . فى حين ان الدوق صديقك ! .

ــ آه ! .. لكن كان هذا منذ عهد بعيد ، والرجال يتغيرون بل يتغيرون بشكل عجيب أحيانا ..

ثم تخلى هولز عن تشاؤمه واستطرد :
ـ لكن اذا وقعت الحرب حقا فسيحتاجون الى الجنود المجربين . ولا سيما الجندى الخبير باحوال العدو الهولاندى لطول ما خدم فى صفوفه .

عبست مارتا عند سماع هذا الكلام ، وكانت قد سمعت مقتطفات من حديثه فهمت منها وجود سبب خاص كان يحول دون وصوله الى الدوق الذى كان يعلق على مقابلته توفيقه الى الخدمة العسكرية المنشودة ، والواقع انها وجدت فى هذا العائق المجهول سلوى ، فهى لم تكن تحب أن يخوض هولز غمار الحرب من جديد ، فتفقده من يدها .
قالت له :
ـ انى اعجب كيف تكدر نفسك بهذه المسائل ..
فتطلع اليها قائلا :
ـ لابد للانسان أن يعيش ..
ـ لكن هذا لا يبرر أن يخوض الحروب ويتعرض للموت .. الا تقنع بما نلت من هذا فى الماضى ؟ . ان الانسان فى مثل سنك يفكر فى أشياء أخرى ..
فقال وهو يضحك ضحكة يسيرة :
ـ فى مثل سنى ؟ . انا لم أجاوز الخامسة والثلاثين ! .
فأعربت عن دهشتها قائلة :
ـ يبدو انك أكبر من هذا السن ! .
ـ أن حياتى كانت حافلة ..
ـ بل كنت تعرض نفسك للموت . الا يخطر لك ان الوقت قد حان لكى تفكر فى مسائل أخرى ؟ .
فنظر اليها عاجبا . وقال :
ـ تقصدين ؟ ..
ـ أقصد أن أقول ان الوقت قد حان لكى تلزم حياة الاستقرار وتتخذ زوجة وتكون بيتا وأسرة ..

فاهت مارتا بهذه الكلمات فى رقة ووداعة ، لكنها لم تتمالك أن تلاحقت أنفاسها انفعالا وهى تعرب بهذا الكلام عن نيتها الدفينة .. فحدق هولز فيها .. ثم هز كتفيه وقال ضاحكا :
ـ نصيحة طيبة ! . أوجدى لى زوجة لائقة ترضى بمثلى ، فيتم كل شىء على ما يرام ! .
ـ الحقيقة انك تظلم نفسك . فأنت رغم كل اعتبار رجل صالح كامل ! .

ـ آه ! .. ولأى شيء أصلح ؟ .
فتابعت كلامها دون أن تكترث بسؤاله . قائلة :
ـ وهناك نساء كثيرات من ذوات الثروة فى حاجة الى رجل يرعاهن ويحميهن . رجل مثلك يا كولونيل . رجل خبر الحياة وله فيها مركز طيب محترم ..
ـ هل أملك هذه الصفات حقا ؟. انت فى الواقع تذكرين عن صفاتى ما أجهله ! .
ـ اذا كنتم لا تملكها فربما كان هذا لافتقارك الى الوسائل اللازمة . لكن هذه المنزلة هى لك بالحق الطبيعى ..

ـ بأى حق يا سيدتى الفاضلة ؟ .
ـ بحق نشأتك وتربيتك ورتبتك العسكرية . وهى جميعا تبدو عليك بجلاء . لم تنتقص من قدرك ياسيدى ؟. ستجد الوسائل التى تهيىء لك احتلال المركز اللائق بك عند الزوجة التى ستمدك بها راضية مسرورة ..

هز راسه . وضحك ثانية . وقال :
ـ هل تعرفين مثل هذه الزوجة ؟ .
توقفت عن الجواب . وتظاهرت بالتفكير حتى تتغلب على ترددها ، ولو انها صارحته فى هذه اللحظة بما فى نيتها لاختلف مجرى حياته اختلافا كبيرا . لكن شجاعتها خانتها وقالت اخيرا فى تؤدة :
ـ أعتقد انه لا يصعب ايجاد هذه الزوجة . ولن أبحث عنها بعيدا ..
فقال متهكما :
ـ أنا لا أشاطرك هذا الاعتقاد يا سيدتى ..
ثم نهض من مكانه واستطرد وهو يبتسم :
ـ ولذلك سأبقى معلقا آمالى على شخص الدوق البيمارل .
وتناول سيفه وقبعته ، فتأملته مارتا وهى بين الخوف والتردد ، ثم تنهدت وقالت :

ـ سنرى . سنرى . ربما تكلمنا فى هذا الموضوع مرة ثانية .
فقال معترضا وهو يستعد للخروج :
ـ لن تفعلى اذا كنت تحبيننى يا سيدتى الفاضلة ..
طرحت هذا الموضوع من ذهنها مؤقتا .. وقالت له :
ـ لعلك لاتخرج قبل أن تتناول جرعة من الشراب لكى تقويك
وحملت اليه اناء الخمر فوقف فى مكانه ، وقال باسما :

ـ صدقت .. ربما احتجت الى مايقوينى .. (وتذكر فى هذه اللحظة خيبته المتكررة فى مقابلة الدوق) .. أنت تحتاطين لكل شىء ..

فضكت مارتا .. وسرها أن تسمع منه هذا الثناء . فقد كانت تطمع أن يكون فاتحة لكلمات أخرى تترقبها بشوق ولهفة ..

الفصل الثانى

فى مجلس العظماء

سار الكولونيل هولز رافع الرأس متجهم الوجه يرن سيفه فوق بلاط الشارع .. حتى كان المارة يفسحون له الطريق ويتقون الاحتكاك به رغم مظاهر الفاقه البادية على ملابسه ..
كانت الشقة طويلة . وفكر فى امتطاء مركبة . لكنه تنهد حسرة وألما حينما تذكر خفة كيس نقوده وثقل ديونه فى (فندق بول) وطرح من ذهنه فكرة الركوب .

على أن هولز رغم ذلك كان مغاليا فى تقدير فقره .. فلو باع تلك الياقوتة الثمينة المدلاة من اذنه لوهبته مبلغا طيبا يعيش بفضله عاما .. وقد حمل هذه الياقوتة خمسة عشر عاما كاملة ، ومرت به ظروف قاسية كادت ترغمه على بيعها ليأكل من ثمنها .. لكنه كره أن يتخلى عنها لاعتقاده فيها اعتقادا يكاد يبلغ حد الخرافات .

نال هذه الياقوتة هدية من شخص أنقذ هولز حياته من الموت .. وكان يعتقد اعتقادا جازما بأنها وقد لعبت فى حياة هذا الشخص دورا خاصا ، فستلعب دورا آخر فى الجمع بينهما ذات يوم فى مسالك الحياة .. ولذلك حرص هولز على هذا الحجر الكريم ولم يفرط فيه رغم الظروف القاهرة التى اجتازها فى حياته

وصل هولز حوالى الظهر الى ضاحية (هويتهول) مقرالبلاط والامراء .. وما كاد يدنو من الابواب الخارجية حتى وجد هرجا ومرجا ومركبات تروح وتغدو . ففهم أن مقدمات الحرب مع هولاندا التى أصبحت امرا لامفر منه هى سبب هذه الحركة غير العادية .

مر هولز بقصور متعددة للامراء وكبار رجال البلاط حتى وصل الى قصر الدوق (البيمارل) . واطمأن حينما رأى مظاهر الحركة والنشاط حول القصر الى أن الدوق قد عاد أخيرا بعد غيابه .

لكن خامره شك جديد . فلم يكن واثقا انه سيظفر بمقابلة الدوق فقد جاء الي القصر ست مرات فى خلال الشهر الماضى التماسا لهذه المقابلة . وكان يقال له أن الدوق غائب عن القصر، لكنه كان موجودا فى المرتين الاخيرتين .. بيد أن مظاهر الفاقة البادية على الكولونيل جعلت الحجاب يقفون فى سبيله ويسألونه ان كان على موعد مع الدوق فلما أجابهم سلبا قرروا له أن الدوق شديد الانهماك فى مشاغل الدولة ولا يقابل الا الذين تحددت لهم مواعيد من قبل ، وطلبوا اليه أن يعود فيما بعد .

فلما رأى هولز تعذر الوصول الى الدوق احتاط هذه المرة وكتب له رسالة التمس فيها المقابلة المنشودة .

كان لحضور هولز هذه المرة اذن صفة خاصة . ورأى انه اذا فشل فى هذه المحاولة الاخيرة فلن يلومه أحد اذا لعن الدوافع التى حدت به الى العودة الى انجلترا حيث يستهدف للموت جوعا .

اعترضه أحد الحجاب قائلا :

ـ ماغرضك ياحضرة ؟.

فقال الكولونيل بحدة واعتداد :

ـ مقابلة صاحب السمو الدوق البيمارل ..

وبفضل هذه اللهجة التى استخدمها الكولونيل خفف الحاجب من غلوائه قائلا :

ـ هل تحدد لك موعد ياسيدى ؟

ـ أعتقد ذلك .. انى أخطرت صاحب السمو بقدومى .

صعد الحاجب فيه نظره .. ثم أفسح له الطريق .. فتقدم هولز وقد انتعشت آماله .. غير انه صادف فى نهاية الممشى حاجبا آخر اعترضه واستفسره عن غايته .. فلما أجاب هولز بأنه كتب الى الدوق مستأذنا فى المقابلة سأله الحاجب :

ـ مااسمك ياسيدى ؟.

ـ راندال هولز .

فاه هولز باسمه فى صوت خافت وقد خامره ارتياع داخلى وتذكر فجأة ان هذا الاسم ليس من شأنه أن يمهد له الدخول .. فقد كان اسم أبيه من قبل .. وهو اسم رجل من اعداء الملكية .. بل أكثر من هذا .

فقد ذاعت اشاعات كثيرة كان أغلبها من نسج الخيال حول اعدام الملك شارل الاول السابق .. ومن هذه الاشاعات التى لم يقم الدليل على صحتها وثبوتها ان الجلاد الرسمى تخلف فى اليوم المقرر لاعدام الملك ، اذ جزع أن يتولى بيديه هذه المهمة .. ولذلك

استعار أحدهم قناع الجلاد وناب عنه فى اتمـام هذه المهمة .. وتعددت الاقاويل حول شخصية الجلاد البديل .. لكن كان أبرزها تلك الاشاعة القائلة بأنه هو راندال هولز الاب ، لا لشيء الا لنزعاته الجمهورية التى أصر خيال الجمهور على اعتبارها عداء شـخصيا موجها ضد الملك شارل الاول .

وبسبب هذه الاشاعة العرجاء كان لاسم راندال هولز رنة سيئة فى هذه الايام التى عادت فيها الملكية الى صولتها .

على أن ذكر الاسم لم يحدث تأثيرا مخيفا فى نفس الحاجب فى هذه اللحظة .. بل ردده بهدوء وهو ينظر الى ورقة فى يده .. وما لبث أن تغيرت حالته وغدا أقرب الى الملاينة والخضوع .. فلم يبق شك فى أنه وجد الاسم فى عداد الاسماء المرخص لاصحـابها بالمقابلة ، ولذلك فتح الباب الذى كان قائما على حراسته . وغمغم قائلا :

ـ تفضل بالدخول ياسيدى .

دخل هولز يتبعه الحاجب ، الذى قال له : أرجو أن تنتظر ياسيدى .

وتركه واجتاز الغرفة وذهب الى حاجب ثان كان واقفا عند باب آخر فنقل اليه اسم القادم .

الفى الكولونيل نفسـه فى غرفة رحبة فاخرة الاثاث . فيها طائفة من الرجال ذوى الجاه .. والقى عليه الجالسون نظرات مترفعة .. لكن من كان مثل الكولونيل لايعرف معنى للخوف أو التوقير.. قابل نظراتهم بمثلها ، وقصد رأسا الى مقعد خال فجلس فيه فى صوت مسموع .

استرعى هذا الصوت الذى أحدثه هولز أثناء جلوسه نظر رجلين وقفا قريبا من مقعده منهمكين فى الحديث . وكان احدهما وهو طويل القامة موليا ظهره الى الكولونيل .. فأدار رأسهوالقى نظرة على هولز وكان الثانى قصير القامة أنيق الهندام . نظر الى الكولونيل نظرة خالية من العداء أو الازدراء . وأومأ برأسـه ايماءة قصيرة الى الكولونيل كأنما يستأذنه فىمتابعةحديثهعلى مسمع منه

ووصلت شذرات من هذا الحديث الى سمع الكولونيل كمـا يلى :

ـ .. وأؤكد لك ياسير جورج ان صاحب السمو الدوق كان يتقلب على الجمـر لهـذا التـأخير .. ولذلك أسرع الى مينـاء بورتسموث أخيرا لكى يشرف بنفسه على اتمام المعدات الحربية.. (ثم خفت صوت المتكلم وارتفع بعد قليل بالعبارة التالية) . ان

الحاجة ماسة الى الضباط . الى الرجال الخبيرين بفنون الحرب والقتال .

ماكاد الكولونيل يسمع هذه الكلمات حتى ارهف سمعه .. لكن صوت المتكلم خفت ثانية .. ولو أنصت هولز الفت الانظار اليه .. ولذلك انتظر حتى سمع المتكلم يقول من جديد :

ـ ان هؤلاء الشبان المتحمسين لامطعن عليهم . ويمكن الاعتماد على حماستهم .. لكن فى الحرب ..

وخفت الصوت من جديد ، وأجابه صاحبه بكلام لم يسمعه هولز وانقضت فترة تطور فيها الحديث الى نقطة أخرى .. وسمع هولز الجملة التالية :

ـ .. والواقع أن الحديث يدور كله عن الهولانديين .. ويقال أن اسطولهم قد غادر قاعدته فى (تيكسيل) . وهذا الموضوع مقترنا باشاعات انتشار الطاعون ووصوله الى لندن هو مدار الحديث على كل لسان فى الوقت الحاضر ..

فاه الرجل القصير بهذه الكلمات . فأجابه صاحبه الطويل ضاحكا :

ـ تقريبا . لكن هناك موضوعا آخر للحديث ماكنت احسبك تنساه .. أعنى موضوع الممثلة (فاركارسون) التى تظهر فى (مسرح الدوق) .

ـ صدقت ياسير جورج .. ان الحديث عنها الى جانب الحديث عن الحرب والطاعون يدل بجلاء على عمق الاثر الذى احدثته هذه الفتاة .

ـ وهل هى أهل لهذه المنزلة ؟.

ـ بلا نزاع . انى كنت فى (مسرح الدوق) منذ يومين وشاهدتها فى دور كاترين .. وأؤكد لك انى أعجبت أشد الاعجاب ببراعتها واتقانها . ولا أذكر انى رأيت ندا لها فى أجادة هذا الدور، أو نظيرا لها على المسرح على الاطلاق .. وهذا هو رأى أهل العاصمة .. فانى رغم ذهابى الى المسرح فى وقت مناسب الفيت كافة المقاعد مشغولة واضطررت الى الجلوس فى احدى المقاصير العليا . وكان جميع النظارة مأخوذين بتمثيلها . وعلى الاخص سمو الدوق بكنجهام . وقد أعرب لها عن اطرائه من مقصورته حتى يسمعه الجميع ، وقرر أنه لن يهدأ حتى يدبج لها بنفسه رواية تمثيلية خاصة ..

ـ اذا كان مبلغ اعجاب الدوق بكنجهام بالممثلة هو أن يضع لها رواية تمثيلية فهى سعيدة الطالع حقا ..

فقال الرجل القصير وهو ينظر نظرة خبيثة :

ـ أو سيئة الطالع فى الواقع .. والمسألة تتوقف على كيفية نظرها للموضوع .. لكن نتمنى أن تكون الفتاة مستقيمة الخلق .
ـ لم اكن أعرف من قبل انك من أعداء الدوق بكنجهام ..
وضحك الاثنان .. ثم فاه الرجل القصير بكلام فى صوت خافت . فاشتد ضحك سير جورج حتى اهتز جسده بعنف ..

وفيما هما يضحكان فتح باب الدوق البيمارل وخرج منه شاب مورد الوجه يحمل فى يده وثيقة رسمية ، فشق طريقه الى خارج الغرفة وهو يحيى الجالسين بايماءات من رأسه .. ولما غاب عن الانظار نادى الحاجب المكلف بباب الدوق قائلا :

ـ يسر صاحب السمو أن يستقبل مستر بيبيس .
كف الرجل القصير عن الضحك وبدت على وجهه علائم الجد وقال لصاحبه :
ـ سير جورج .. هل لك أن تشد ازرى ؟.
فأومأ الرجل الطويل ايجابا ، ودخل الاثنان غرفة الدوق .
ومال الكولونيل هولز فى مقعده الى الخلف وراح يعجب فى نفسه كيف يهتم الجمهور بشأن ممثلة والحرب على الابواب ،دعك من حديث الطاعون !. وكيف يخلط مستر بيبيس مندوب وزارة البحرية فى حديثه بين الموضوعات النسائية الماجنة ، وبين الشئون الخطيرة الاخرى كالحاجة الى الضباط وعجز الحكومة عن مقابلة الهولانديين او مقابلة الطاعون !.

وفيما كان هولز مايزال غارقا فى تأملاته فتح الباب وخرج بيبيس وصاحبه .. وسمع الحاجب يناديه قائلا :
ـ مستر هولز !..

لم يتمالك الجالسون ان كرروا النظر الى الكولونيل استياء من رؤيتهم هذا الطارق المدقع المغمور يسبقهم فى التشرف بمقابلة الدوق وتبودلت بعض الضحكات والغمزات والعبارات اللاذعة . لكن هولز لم يعبأ بشيء من هذا . فقد فتح الحظ اخيرا أبوابه أمامه . وزاده أملا ويقينا فى قرب تحقيق أمانيه ماسمعه الآن من مستر بيبيس بشأن حاجة الحكومة الى الضباط والمحاربين ذوى الخبرة والحنكة ، ولا ريب ان البيمارل قد فطن الى انه فى مقدمة هؤلاء الرجال الذين تفتقر الدولة اليهم ، وهذا يفسر تقديمه فى المقابلة على أكابر الرجال ووجوه القوم الذين تركهم خلفه يتململون غضبا واستياء ..
وهكذا تقدم هولز الى الغرفة فى رجاء ويقين ..

الفصل الثالث

الدوق البيمارل

دخل الكولونيل هولز غرفة شاهقة القبة مطلة على حدائق سانت جيمس ، تتوسطها طاولة ضخمة جلس اليها جورج مونك الملقب بالبارون مونك والدوق البيمارل ، القائد العام للجيوش ، وعضو المجلس الملكى المخصوص ..

كان أعداؤه يلقبونه بالوصولى .. لكنه كان معروفا أمام السواد الاعظم من الشعب الانجليزى باسم (جورج الامين) ، ولو شاء هذا الرجل لكان ملكا على عرش انجلترا ، لكنه قنع أن يعيد اليها الملكية فى شخص أسرة ستيوارت ..

كان رجلا متوسط الطول ، قوى البنية ، وهو الان فى السابعة والخمسين من سنه يميل الى البدانة ، أما بشرته فسمراء ، تحفه بوجهه لحية كبيرة ، ويتدلى من رأسه شعر أسود مستعار ..

وما كاد هولز يدخل الغرفة حتى رفع البيمارل رأسه وألقى القلم من يده ، ثم نهض متباطئا وقد لاحت على وجهه دلائل التردد والدهشة ، لكنه لم ينبس بكلمة حتى خرج الحاجب بأمره وأغلق الباب خلفه ، وعند ذلك هتف : ليرحمنا الله!.. هذا أنت ياراندال؟

ـ هل أحدث مضى عشر سنوات تغييرا كبيرا الى حد يحملك على القاء هذا السؤال ؟..

فقال الدوق وهو يفحصه من رأسه الى قدميه :

ـ عشر سنوات .! عشر سنوات ! لكن اجلس يارجل .اجلس!

وأشار الدوق بيده الى مقعد مواجه له ، فجلس هولزووضع قبعته على الارض . وعاد الدوق الى مقعده . ومازال يتفرس فى زائره .. ثم قال أخيرا : ما أشد شبهك بأبيك ! .

ـ هذا هو الربح الوحيد الذى فزت به فى حياة كلها الخسارة

فقال الدوق فى أسف : نعم .. ان مظهرك يدل على ذلك .

كان راندال هولز الاب . صديق مونك الحميم .. فقد ولد كلاهما فى بلدة (بوثريج) بمقاطعة (ديفون) وشبا معا .. ومع ان الاختلافات السياسية تسلطت عليهما ، اذ كان مونك من أنصار الملكية ، اما هولز الاكبر فقد انضم الى برلمان كرومويل الجمهورى ، الا أن صداقتهما بقيت وثيقة لم تؤثر فيها هذه المسائل .. ثم سعى هولز عند كرومويل حتى عين صديقه مونك فى منصب رئيسى فى حكومة ارلندا .. ولما دار الزمن وشب هولز الابن عينه مونك

فى منصب بالجيش ، وبفضل نفوذه ومقدرة الشاب استطاع هولز أن يبلغ رتبة كولونيل بعد موقعة (ورشستر) . ولو بقى هولز فى رعاية صديق والده لكان مصيره الان مختلفا تماما عن حالته الراهنة ..

لم يتمالك الدوق أن ينوه بهذه الحقيقة . فتنهد هولز وقال:
ـ أنا لاأجهل هذا . لكن .. لكن قصتى مؤلمة يطول شرحها. ولذلك استأذنك فى التغاضى عنها .. من الجلى ان سموكم تلقيتم رسالتى . ومعنى هذا انكم تعرفون الان حقيقة موقفى

ـ انى تأثرت لحالك ياراندال أشد التأثر .. لكن لم لم تبادر بالكتابة الى ؟ لم جعلت تطرق بابى عبثا وتعرض نفسك للطرد والاقصاء على أيدى الحجاب ؟
ـ لم اكن أعلم ان بابك أصبح منيعا وانه يصعب الوصول اليك فلمعت عينا الدوق .. وقال :
ـ هل تقول هذا بمرارة ؟ .
فسارع هولز بالجواب :
ـ ابدا وحياتى ! . لا يمكن أن يصدر منى شىء كهذا .. انت أهل لما نلت .. انى افرح بعظمتك كما يفرح احباؤك ...
فتطلع اليه الدوق لحظة صامتا .. ثم قال :
ـ لابد أن نتكلم .. هناك أشياء كثيرة نتكلم فيها .. هل تبقى لتناول الفداء ؟.
ـ هذه دعوة لا يكمن رفضها .
فدق البيمارل جرسا فضيا صغيرا .. ولما أقبل الحاجب سأله
ـ من ينتظر فى الغرفة المجاورة ؟ .
اخذ الحاجب يعدد طائفة من الاسماء البارزة والالقاب الرنانة فقال الدوق :
ـ بلغهم مع اسفى انى لاأستطيع أن استقبل أحدا منهم قبل الفداء .. وعلى من تضطره الظروف العاجلة الى مقابلتى أن يعود بعد الظهر ..

ماكاد الحاجب ينصرف حتى استلقى هولز فى مقعده الى الخلف وضحك .. فاستفسره الدوق عن سبب ضحكه بنظرة يتجلى فيها القلق والامتعاض .. فأجاب هولز :

ـ انى أفكر فى نظراتهم الى حينما راونى ، وفى النظرات التى سيقابلوننى بها حينما نلتقى ثانية !. اصفح عنى اذا ضحكت من

هذه السفاسف .. فهذه هى المتعة الوحيدة التى بقيت لى فى عالم كله الشقاء .

أومأ البيمارل برأسه اكتئابا .. ثم سأله :

ـ اخبرنى الان .. ماسبب عودتك الى انجلترا ؟ .

ـ الحرب . هل كان يمكن أن أستمر فى خدمة الجيش الهولاندى حتى لو يسر لى الهولانديون البقاء ، وهو مالم يفعلوه ؟ .. لم يكن فى وسع أى رجل انجليزى فى خلال الاشهر الثلاثة الاخيرة أن يظهر فى شارع (لاهاى) دون أن يتعرض للاهانة .. ولو بلغ به الحمق الى حد رد الاهانة اليهم فان الحكومة الهولاندية ماكانت تتردد فى أن تقتص منه اشد قصاص .. هذا هو أحد أسباب عودتى . أما السبب الثانى فهو الخطر المحدق بانجلترا ، الذى يوجب على كل فرد من أبنائها أن يحمل سيفه ويخف لنجدتها .. أنى علمت انكم فى حاجة الى ضباط .. ضباط مدربين ذوى خبرة

فقاطعه البيمارل فى مرارة :

ـ الله يعلم ان هذا صحيح .. ان غرفتى المجاورة تكتظ كل يوم بالشبان ذوى الحسب الذين يفدون الى بتوصيات من كبار الدوقات والنبلاء ، وأحيانا من الملك نفسه ، لكى امنحهم مناصب ليسوا أهلا لها ..

ولما رأى الدوق انه انساق مع عاطفته تمالك ، ثم استطرد :

ـ لكننا نفتقر أشد الافتقار الى الضباط المدربين كما قلت . ومع ذلك ليس لك ياصديقى ان تبنى لنفسك قصور الامال فى هذه الناحية .

حدق هولز مأخوذا .. وهم بالاستفسار . لكن الدوق سبقه الى الكلام والجواب معا ، قائلا :

ـ اذا كنت تحسب انه توجد مناصب لائقة لمثلك حتى فى مثل هذا المأزق الذى وقعت فيه انجلترا ، فأنت ولا ريب تجهل ماحدث هنا فى أثناء غيابك عن أرض الوطن .. انى حسبتك فى عداد الاموات ياراندال فى خلال هذه السنوات العشر الماضية .. ولست أدرى أن كان يسوغ لى ، كصديق لك ، وفى الظروف الحالية ، أن أفرح لرؤيتك على قيد الحياة .. فان الحياة لاتكون جديرة باسمها اذا لم يؤد فيها الانسان واجبه كما ينبغى .. وكيف يمكن أن تؤدى واجبك كما ينبغى فى مثل هذه الحال التى وصلت اليها انجلترا ؟ ..

ارتاع هولز .. وقال :

ـ كيف ذلك ؟ . ما عليك الا أن تهيىء لى الفرصة ، فترى

أكيف أعمل ، أختبرني ، ولن تندم على ماتفعل، انى لن أخيب ثقتك
نهض هولز فى أثناء كلامه منفعلا وقد شحب لونه ..ووقف أمام الدوق متصلب الاعضاء ، متحديا ، يختلج أنفه الاشم بحركة يسيرة ..

لم يقلق البيمارل من هذه الظاهرة.. بل أشار الى الكولونيل ان يعود الى مقعده قائلا :
ــ أنا لا ارتاب فى هذا .. فانا أعرف طبيعتك ، وفى وسعى أن اعتمد عليك .. والله يعلم انى فى أشد الحاجة الى الرجال أمثالك ، وانى أود ان أنتفع بمواهبك شاكرا .. ولكن ..

ــ لكن ماذا بالله ياسيدى ؟ .
ــ لايمكن أن أفعل هذا دون أن أعرضك لأشد الاخطار ..
فقال هولز ضاحكا :
ــ أخطار !؟ ..

ــ ارى أنك لم تفهم .. أنت لا تعرف ان اسمك منقوش فى عداد طائفة من الاسماء كتب عليها ان تذهب ضحية للقصاص والثأر .
فقال الكولونيل وهو لا يكاد يصدق :
ــ تعنى اسم والدى ؟ .

ــ نعم .. ومن سوء الحظ انه سماك باسمه.. ان اسم راندال هولز مدون فى عداد الآسماء المشتبه فى ان لاصحابها ضلعا فى اعدام الملك شارل الاول ، ولو عاش ابوك اياما أخرى لكان من الهالكين وأنت نفسك قد حملت السلاح فى جانب الجمهورية ضد الملك الحالى ، ولو أردت ان تعيش فى انجترا فليس أمامك الا أن تندس فى زوايا الظلام والنسيان ، وقد جئت الآن تسألنى أن أمنحك منصبا يلفت الانظار اليك ويذكر الملك بأمرك ..

رأى هولز اماله تنهار من أساسها .. فهتف مروعا :
ــ لكن ما شأن قانون العفو ؟ .
فأجاب البيمارل وقد قوس شفته :

ــ اين كنت حتى تجهل ماذا اصاب أولئك الذين كان يشملهم أن الوعود التى تنتزع كرها لا ترعى حرمتها مهما قيدها الانسان بقيود القوانين الشرعية .. انى انتزعت الوعد باصدار هذا القانون من جلالة الملك وقت ان كان بعيدا عن العرش .. فلما استتب له الامر لم يكترث بهذا القانون واعدم كل الذين كان لهم

ضلع فى محاكمة والده واعدامه حتى جرت دماؤهم انهارا .. واعتقد اننا لم نصل الى النهاية بعد ..
توقف الدوق عن الكلام فترة .. ثم استطرد قائلا :

ـ انا لا أقول هذا الكلام لكى انتقد أعمال الملك .. وليس لأحد افراد الرعية ان يحاسب الملك على ما يفعل ، ولاسيما اذا كان هذا الملك هو ابن يرى من واجبه ان حقا أو خطأ ان يثأر لاعدام والده وما قصدت من هذا الكلام الان افهمك انى رغم تلهفى لمساعدتك لا اجسر لمصلحتك على تقديم المساعدة المنشودة على النحو الذى تريد ، حتى لا أعرضك للوقوع تحت انظار الملك والاستهداف للثأر ان اسمك راندال هولز ... و ...

هتف الكولونيل فجأة :
ـ فى وسعى ان اغير أسمى ...
ـ قد يوجد من يعرفونك ، وهؤلاء لايترددن فى كشف الحقيقة .
فقال هولز ضاحكا :
ـ سأقول بهذه المجازفة . فقد كانت حياتى كلها سلسلة من المجازفات .
فتطلع اليه الدوق برزانة .. وسأله :
ـ وأنا ؟..
ـ أنت ؟..
ـ سأكون شريكا لك فى هذا التحايل ..
ـ لن يصل الامر الى هذا الحد .. وثق انى لن اسمح بذلك .
فقال البيمارل بتؤدة وقد زادت رزانته :

ـ لكن هذا لن يحول دون اعتبارى شريكا لك .
اكتست ملامح هولز بطابع الكآبة من جديد ، فقال الدوق بحزن :
ـ هل رأيت ؟
فتململ هولز فى مقعده . ثم مال الى الامام فوق الطاولة وقال :

ـ لكن من المحقق ، فى مثل هذا الوقت .. الذى أصبحت فيه الحرب على الابواب .. وانجلترا فى حاجة الى الضباط المجربين .. من المحقق أنه سيغتفر للانسان ..
فهز البيمارل رأسه مكتئبا وقال :
ـ لاتبرير للخداع .. والتزييف .
جلس الاثنان لحظة يتبادلان النظر . ثم أطرق هولز برأسه

وغاص فى مقعده واستسلم للتأمل . وأخيرا هز كتفيه وتنهد ، وتناول قبعته قائلا :
– فى هذه الحالة .. لايبقى امامى الا أن أستأذن .
انحنى الدوق الى الامام ووضع يده على ذراع هولز وقال له :
– لا .. لا .. لن نفترق هكذا ياراندال .
فنظر اليه هولز وهو يغالب عواطفه . ثم ابتسم ابتسامته الكئيبة وقال :
– أنت ياسيدى رجل مثقل بالمشاغل . ان عبء الاشتباك فى الحرب يقع على عاتقك .. وأنا ..
– مهما يكن فستبقى للغداء ..
– للغـداء ؟
ردد هولز هذه الكلمة وهو يتساءل فى أعماق نفسه أين يتاح له أن يتغدى بعد هذه المرة .. فان اخفاقه يعنى حرمانه من لذائذ (فندق بول) وطرده منه الى الابد .

ودفع البيمارل مقعده الى الخلف ونهض قائلا :
– ستبقى للغداء ولتجديد معرفتك بصاحبة السمو الدوقة .. وأعتقد انها ستسر برؤياك . هيا بنا . ان موعد الغداء قد فات .
نهض هولز متباطئا مترددا .. فقد كانت كل رغبته فى مبارحة هذا المكان الى حيث يخلو الى نفسه والى أحزانه .. على انه ابتسم آخر الامر .. وحسنا فعل .. فان استقبال الدوقة له شرح صدره وانعش خاطره ..
ماكادت الدوقة البدينة المضطربة الهندام تراه آتيا برفقة زوجها حتى وثبت دهشة وهتفت :
– يا الهى !. هذا راندال ؟.
وشبت على أطراف أصابعها وقبلته قبل أن يدرك غايتها . واستطردت :
– من حسن حظ جورج أنه صحبك لكى يبرر تأخره .. فقد كاد الطعام يفسد لطول الانتظار ! تعال .. ستخبرنى على المائدة بأحوالك ..
تأبطت الدوقة ذراع هولز وقادته الى المائدة المتواضعة التى لم تكن تنتمى الى مظاهر الدوقية فى شىء .. فقد بقيت الدوقة البيمارل (نان كلارج) ابنة الحداد ، والخياطة التى كانت خليلة مونك أثناء اقامته فى سجن (البرج) منذ عشرين عاما ، والتى تزوجها لكى يعترف بابوة ابنائه منها .
سمت نان كلارج الى مرتبةالدوقية .. وابتعدت عن أصدقائها

القدماء .! وترفع عنها أفراد الوسط الجديد الذى انتقلت اليه ..
فلم يكن لها الا أصدقاء قلائل يعدون على الاصابع .. وكان بينهم
هولز الذى عاملها باحترام فى سنى زواجها الاولى وفاء لصديق
أبيه ولنبل قلبه .. ولذلك حفظت له الدوقة هذا الجميل ..
وأنزلته من نفسها منزلة طيبة ..
أخذت الدوقة تنهال على هولز بالاسئلة أثناء الطعام حتى
وقفت على قصته وعرفت بتهدم الامال التى بناها وكان يرجو
تحقيقها على يدى زوجها .. فغضبت وصاحت فى وجه الدوق :
ـ يا الهى !. هل أردت أن تطرده من بيتك كأنه متسول ؟.
كان الدوق رجلا قوى الشكيمة شديد اليأس لايخاف أحدا
لكنه كان يخنع أمام زوجته الصاخبة الجبارة .. ولم يتمالك
أن غض نظره أمامها وقال فى قلق :
ـ ستفهمين ياحبيبتى ..
فقاطعته فى خشونة وازدراء :
ـ لن أفهم شيئا اذا لم تساعد صديقا لنا ..
فقال الدوق :
ـ انى بهذه المساعدة أمهد له طريق المشنقة .. اصبرى
ودعينى أفسر لك الحقيقة ..
ـ أرجو الله أن يمنحنى الصبر قبل أن تهيج أعصابى ..
تكلم يارجل !.
ابتسم الدوق برقة كأنما يريد أن يبين انه ينفر من اظهار
سلطته .. وفسر لها الموقف كما بسطه أمام هولز .. فلما فرغ من
حديثه قالت :
ـ انك بدأت تشيخ ياجورج !. لم تعد الرجل الذى عرفته!..
أين عبقريتك التى أعادت العرش الى أسرة ستيوارت ؟. انك لم
تكن تتردد أمام عقبة أو معضلة !. انى لاعجب ماذا يكون حالك لو
لم أكن معك أرشدك وأشد أزرك !. يظهر انى سأحتاج الى أن أبين
لك كيف تمد يد المساعدة الى صديق دون أن تعرضه للضرر
والهلاك !.
ـ لو كان ذلك فى وسعك ياعزيزتى ..
لو كان !.. انى أحطم رأسى لو عجزت عن ذلك !.. نعم
فى وسعى أن أرشدك .. ألا توجد مناصب فى خارج انجلترا ؟.
الا توجد مستعمرات لهذه الدولة ؟. ماشأن الهند .. الشرقية
والغربية ؟.. انى أعرف ان الضباط يوفدون الى هذه المستعمرات
تباعا .. ومن يدقق هناك فى اسم راندال وفى تاريخه ؟..

فقال الدوق كأنما تذكر شيئا غاب عنه :
ــ هذه فكرة ! ..
ثم تطلع الى هولز وقد أشرق وجهه :
ــ ما رأيك فى هذا يا راندال ؟ .
فقال الكولونيل متلهفا :
ــ هل يوجد منصب أشغله فى المستعمرات ؟ .
ــ لا يوجد فى الوقت الحالى . لكن المناصب تخلو بين وقت وآخر . ان الموظفين يموتون فى تلك البقاع النائية ، أو يملون الحياة ، أو لا يطيقون الجو ويعودون الى انجلترا . وصحيح انه توجد مجازفات .. و ..
فقاطعه هولز فورا :
ــ قلت لك ان حياتى كانت حافلة بالمجازفات . ولن تكون المجازفات هناك بأشد مما ينتظرنى اذا بقيت هنا .. آه .. انى أرحب بهذه المجازفة ..
ــ سنرى اذن . عليك بالصبر . وقد يتاح لى ان اعينك فى أحد هذه المناصب ..
فقال هولز وقد تدلى فكه يائسا :
ــ الصبر ! ..
ــ نعم .. ان تلك المناصب لا تتهيأ فى كل وقت . واذا تركت لى عنوانك فسأتصل بك متى حانت الفرصة ..
فقالت الدوقة :
ــ واذا لم يرسل فى طلبك قريبا يا راندال فعليك أن تعود لزيارتى . سنستحثه معا . هو حسن النية ، لكنه بدأ يشيخ ، وأخذ ذكاؤه يصدأ ..
ولم يتمالك الوزير العظيم الذى كان يروع الجيوش الا أن يبتسم بوداعة ازاء هذا الكلام اللاذع ..

الفصل الرابع

صفحة من الماضى

اتكأ الكولونيل هولز على حافة النافذة فى غرفته المطلة على الحديقة بفندق بول ، وراح يتطلع الى شجرتى الكرز اللتين غمرتهما أشعة الشمس وتدلت منهما بعض الثمار الجافة ..
كان مرأى أشجار الكرز يثير فى نفسه ذكريات قديمة ، وسرعان ما عاد به الفكر الى الماضى البعيد ، وقت أن كان فتى يافعا لايجاوز العشرين من عمره ، ورأى نفسه يثب من ثغرة فى جدار حديقة حافلة

بأشجار الكرز فى مقاطعة « ديفون » ووقف فى ظل الاغصان يتطلع باسما الى فتاة صغيرة كانت تتأرجح فوق حبل مثبت بين شجرتين وهى غافلة عن وجوده ..

كانت الفتاة لا تكاد تجاوز دور الطفولة . اذ كانت فى الخامسة عشرة من عمرها ، لكن نضج جمالها أكسبها طابع الاكتمال والتقدم فى السن ، وكانت رغم معيشتها الريفية البسيطة تظفر من الدهاء النسوى بحظ موفور ، وراحت وهى تتأرجح تغنى بنغمات متسقة مع حركاتها . قائلة :

يا حبيبى يا حبيبى   أين تحتجب عنى

انــا فى انتظـــارك   لتتـــزوج مـــنى

يا حبيبى يا حبيبى

على ان غنائها انتهى بصرخة . فان الفتى تسلل خلفها دون أن تنتبه اليه ولف ســاعديه القويتين حــول خصرها ورفعهــا عن الارجوحة ، وبقيت مرفوعة بين يديه لحظة ، لـكنها لم تلبث أن تخلصت منه غاضبة ، واستوت على قدميها موردة الوجه لامعــة العينين ، وقالت وهى تلطم الفتى بيديها :

ــ أنت تبيح لنفسك حرية عجيبة يا راندال ! . من سمح لك بالحضور الى هنا ؟ .

فقال الفتى باسما دون ان ينزعج من كلامها أو صفعها :

ــ حسبت .. حسبت انك ناديتنى . كفى يا نانسى ، اعترفى بذلك ..

فضحكت ضحكة تشف عن الغضب وقالت :

ــ أنا ناديتك ؟ ! .. أنا ؟ ! ..

ــ ستنكرين كما هو شأن النساء . انى سمعتك تقولين :

يا حبيبى يا حبيبى   أين تحجب عنى

وكنت محتجبا خلف الجدار . فجئت اليك فى الحال . وكان نصيبى منك الصفع والانكار ! .

ــ ستنال أكثر من هذا اذا بقيت ..

ــ أرجو أن يتحقق ذلك ، انى لم أحضر الا لهذا الغرض ..

ــ لكنك ستنال مالا تحب ..

ــ جــائز .. والان لنتكلم فى موضــوع هذه الضربة . أنا لا احتمل أن يضربنى انسان ، ولو كان الضارب رجلا فليس له الا سيفى ..

فقالت ضاحكة :

ـ سيفك ! . وأنت لا تملك حتى مطواة ! .

ـ بل أملك سيفا . اليوم هو عيد ميلادى يا نانسى . وقد أهدانى أبى سيفا ..

ـ ان هذا تسرع من والدك . وأنا واثقة انك ستجرح نفسك .

فابتسم قائلا :

ـ انت تبعدين عن الموضوع . أعنى موضوع هذه الضربة .. لو كنت رجلا لقتلتك ، ولن يصون شرفى أقل من هذا الجزاء ..

ـ لعلك لا تظن أنى أصدقك ! .

فقال وهو يدنو منها :

ـ السؤال الحقيقى هو ماذا أفعل للضارب اذا كان امرأة .. كلما نظرت اليك لا أجد لك سوى عقاب واحد ..

أمسك بها فى قوة واصرار وقبلها ، ثم تخلى عنها وارتد الى الخلف ووقف يترقب ثورتها ، لكن لم يحدث شيء من هذا . فقد وقفت الفتاة أمامه منكسة الرأس شاحبة اللون . وقالت منتحبة :

ـ أواه ! . كيف تجرؤ على هذا ؟ .

بهت الفتى من هذه الظاهرة التى لم يكن يتوقعها . فقد كان ينتظر أن تقابله بالثورة واللطم من جديد ، وهو ما كان يتلذذ به . على انه أجاب ببساطة :

ـ انى كنت أتلهف لهذا منذ سنة . وسأكرر هذا مرات .. نانسى !. ألا تدرين مبلغ حبى لك ؟. الا تعرفين هذا دون حاجة الى الاعتراف والتصريح ؟ .

أزال هذا السؤال الحار اضطرابها وأثار دهشتها .. وقالت له :

ـ هذه وقاحة منك . ولو كنت رجلا لما صفحت عنك . اما وأنت طفل فسأصفح عنك ، بشرط الا تعود لهذا العمل ..

ـ لكنى أحبك يا نانسى . .

ـ أنت مستهتر يا راندال . وربما كان السبب هو حصولك على سيف لكى تلعب به . سأتكلم مع والدك فى هذا الشأن . انت فى حاجة الى الاخلاق لا الى السيف ! .

كانت الفتاة بارعة فى فن اللوم والعتاب . لكن الفتى رفض أن ينهزم . وقال لها :

ـ يا عزيزتى نانسى . انى أسألك الزواج بى ..

فوثبت الفتاة واتسعت حدقتها . وقالت :

ـ يا الهى ! . ما هذا التنازل ؟ ! . أى شرف تخلعه على ؟ ! .

فقال مبتهلا :
ـ انى أتكلم الجد يا نانسى . انى سأذهب غدا فى الصباح المبكر ، وقد جئت لوداعك ..
فظهرت فى عينيها دلائل الانزعاج لحظة ، على انها قالت فى صوت طبيعى :
ـ حسبتك تقول انك جئت للزواج بى ..
ـ ما هذه المشاكسة ؟ . انى أعلق أملا كبيرا على جوابك يا نانسى . أريد أن أسمع منك انك ستنتظريننى ، وانك ستتزوجين بى يوما ما ..
فقالت ساخرة :
ـ يوما ما ؟ . متى كبرت على ما أظن ! . سأكون فى ذلك العهد فتاة عجوزا ، ولست أحب أن أكون فتاة عجوزا .
ـ أجيبى يا نانسى . لا تسخرى منى ، قولى انك ستنتظرين .
وأراد أن يضمها من جديد ، لكنها راغت منه . وقالت له :
ـ لم تخبرنى بعد الى أين تذهب ..
نفض أمامها النبأ كالقنبلة وهو يطمع أن يزيد أهمية فى عينيها .. فقال :
ـ سأذهب الى لندن . الى الجيش ، ان أبى أوصى بى القائد مونك صديقه ، وسأخدم تحت امرته ..
ثم أمسك بها فجأة قبل أن تفطن الى غرضه . وقال لها :
ـ نانسى ! . عزيزتى ..
غضبت وراحت تتملص منه وتدفعه بيديها . وهتفت :
ـ اتركنى ! . اتركنى فى الحال ، والا استغثت ! .
لم يسعه ازاء غضبها ومقاومتها الا أن يتخلى عنها . ووقف أمامها خاضعا مترددا ، بينما رمقته بنظرات نارية وقالت لاهثة :
ـ يا الهى ! . ستنجح نجاحا عصيما فى لندن ! . سيحبون أعمالك الهمجية هناك ! . من الخير أن تذهب ..
ندم هولز ، ورأى أنه أمعن فى استفزازها . فقال لها :
ـ اصفحى عنى يا نانسى ! . لا تكونى قاسية ! . هذا آخر يوم يجمعنا ، والله يعلم كم يدوم فراقنا ! .
ـ هذا فضل من الله .
ـ لعلك غير جادة يا نانسى . لا يمكن أن تكونى غير مهتمة بى ! لا يمكن أن تكونى مسرورة بذهابى ! .
ـ بهذا تصلح أخلاقك ..

ـ قد لا أراك بعد اليوم لمدة طويلة يا نانسى . واذا كنت لا تهتمين بى حقا فلن أعود أبدا الى « بوثريدج » . أما اذا كنت تعنين بأمرى ، واذا قبلت أن تنتظرينى ، فسأستمد قوة من هذا ، وسأغدوا عظيما . سأهزم الدنيا ، وسأحملها اليك لكى أطرحها فى حجرك ..

لمعت عيناها .. فقد تأثرت باخلاصه وتحمسه . لكن خبثها وعنادها لم يفارقاها ولذلك ضحكت وقالت فى تهكم :

ـ سأحتار ماذا أفعل بها ..

غضب من سخريتها بعد أن فتح قلبه أمامها ، فالتزم الكبرياء والبرود وقال لها :

ـ لك أن تضحكى . لكن قد يأتى يوم لا ينفعك هذا الضحك . قد تندمين حينما أعود ..

فقالت متهكمة :

ـ ومعك الدنيا ! .

تطلع اليها بشراسة وقد امتقع وجهه . ثم دار على عقبيه فى سكون وابتعد بين الاشجار . وما كاد يخطو بضع خطوات حتى صادف كهلا فى رداء القسس هو والد نانسى ، وقد هتف حينما رآه :

ـ راندال ! .

فتمالك الشاب نفسه وقال :

ـ صباح الخير يامستر سلفستر . جئت لكى أودعك ..

ـ نعم يابنى .. ان والدك أبلغنى ..

وفى هذه اللحظة صدر صوت نانسى من خلال الاشجار قائلة :

ـ أنت تؤخر السيد يا أبى وهو مسرع . هو ذاهب لكى يهزم الدنيا ..

فابتسم القس ابتسامة رقيقة . بينما هز راندال كتفيه وقال :

ـ ان نانسى فرحة لرحيلى يا سيدى ..

ـ لا .. لا ..

ـ هى تجد فى هذا مادة للفكاهة يا سيدى كما ترى ، ويسرها أن تضحك ..

وتأبط القس ذراع الشاب متحببا وسار معه الى المنزل قائلا :

ـ هذا قناع ظاهرى .. وهو شأن النساء دائما .. والانسان فى حاجة الى وقت طويل لكى يفهم طبيعة المرأة .. لكنى أؤكد لك

انها ستستقبلك استقبالا حارآ عند عودتك . سواء هزمت الدنيا أو لم تهزمها . بل سيكون هذا استقبالنا جميعا لك .. فاذهب اذن فى سبيل العلا والمجد .. والله أدعو ان يردك سالما .

لكن راندال لم يتعز بهذا الكلام .. وغادر بيت سلفستر وقد نذر الا يعود اليه مهما حدث ..

على انه لم يغادر (بوثريدج) الا وقد وجد الدليل على صحة أقوال القس سلفستر . فان نانسى انتظرت عودتة عبثا فى هذا اليوم وبكت فى ليلتها استياء وحزنا لذهاب راندال .

وفى الصباح المكبر ، قبل أن يغادر اهل القرية مضاجعهم ، امتطى راندال جواده وغادر بيتة مشيعآ بدعوات والده . وفيما كان يمرفى طريقة ببيت القس سلفستر فتحت نافذة وأطلت منها نانسى وناداته فى صوت رقيق قائلة :

ـ راندال ! ..

جذب الفتى عنان جواده ورفع راسه . وسرعان ماذاب غضبه وهتف باسمها وقد خفق قلبه .

قالت له الفتاة :

ـ أنا .. أنا آسفة لضحكى ياعزيزى راندال . وقد بكيت كثيرا وأمضيت ليلى ساهرة لـكى لاتفوتنى رؤيتك .. وداعا ياعزيزى راندال .. والله يرعاك ويصونك . عد الى بأقرب وقت ! .

ردد راندال اسمها وقد غلبته عاطفته وعقـدت لسـانه عن الكلام . وفى هذه اللحظـة سـقط شىء فوق رأس جواده فأسرع بالتقاطه . فاذا هو قفاز مطرز .

هتفت الفتاة وهى تبسط يدها :

ـ قفازى ! . سقط منى ! . أعده الى يا راندال ! .

كانت النافذة بعيدة عنه ، وفوق ذلك لم تخدعه هذه المهزلة ، ولذلك رفع قبعته ودس القفاز فى شريطها وقال لها :

ـ سأحمله كتذكار منك حتى أعـود لطلب اليـد التى كان يكسوها ..

ثم قبل القفاز وانحنى أمامها وهمز جواده . وفيما كان يبتعد وصل صوتها الى سمعه فيه سخرية يسيرة وعاطفة غزيرة .. اذ قالت :

ـ لا تنس أن تحمل الدنيا معك ..

ولم يرن صوتها الموسيقى فى أذنه بعد هذه المرة ..

مضت خمس سنوات قبل عودتة ثانية الى (بوثريدج) ممتطيا

جواداً مطهما رافع الرأس مزهوا بما نال من مركز يسير في ركابه خادم
كان هولز الأب قد نزح الى لندن بعد رحيل ولده . ثم توفى منذ عامين . واذا كان راندال فى هذه المدة لم يهزم الدنيا فانه نال فيها مركزا طيبا يبشر بالمستقبل الزاهر . فقد استطاع بفضل صفاته النادرة ونفوذ جورج مونك صديق والده أن يرتقى فى الجيش الى مرتبة كولونيل .. وكان هذا أساساً طيبا يبنى فوقه صرح مستقبله وقد بذل مابذل من جهد ومقدرة لكى يغدو أهلا فى نظر نانسى ملهمته

سار راندال الى بيت القس وهو يعلل النفس بلقاء الحبيبة .. ولم يكن قد تلقى منها نبأ فى خلال الاعوام الثلاثة الاخيرة لكثرة تنقلاته واسفاره فى صفوف الجيش .. وراح يسائل نفسه عن حالها وجمالها

ولما ترجل أمام الدار خرجت له خادم لاعهد له بها عند القس سلفستر فخفق قلبه . لكنه تمالك نفسه وطلب منها أن تخطر الواعظ بقدومه .

وافاه بعد قليل شاب طويل القامة فى رداء القسس . استفسره قائلا :

ـ هل أردت أن ترانى ياسيدى ؟ .

وقف راندال يحدق فيه مذهولا منعقد اللسان مدة طويلة . ثم بلل شفتيه بلسانه وقال أخيراً :

ـ انى أردت مقابلة مستر سلفستر ياسيدى .. أين هو ؟ . الا يقيم هنا ؟ .

فاجاب الواعظ الشاب برفق :

ـ لا .. انى خلفته هنا .. (وسكت قليلا ثم استطرد) .. ان مستر سلفستر انتقل الى جوار ربه منذ ثلاث سنوات ..

تغلب هولز على شعوره وقال :

ـ هذه ابناء سيئة ياسيدى .. انه كان صديقا قديما ، وأين ابنته ؟ .. الآنسة نانسى ؟ ..

ـ لاأدرى ياسيدى .. انها رحلت من (بوثريدج) قبل مجيئى

فهز راندال ذراع الواعظ وقد تملكه انفعال فجائى :

ـ لكن الى أين ذهبت ؟ ..

احتمل الواعظ انفعال الشاب .. وأجابه :

ـ لاأدرى ياسيدى .. انى لم أتعرف بالآنسة سلفستر .. ربما كان العمدة ..

ـ نعم .. نعم .. العمدة ..

وقصد الى دار العمدة .. وهناك علم أن نانسى ذهبت على اثر وفاة والدها الى بيت عمة لها تدعى (تنفيلد) فى بلدة (تشارموث) .. فقصد راندال الى هذه البلدة من فوره يتبعه خادمه ، ووصل كلاهما اليها وقد أنهك السير الطويل الشاق قوى جواديهما ..

كانت العمة تنفيلد امرأة عجوزا متصلبة القلب . امتلأ قلبها بالتدين ، ولكنه تجرد من الرحمة والاحسان ، وما كادت تسمع اسم الفتاة حتى تصلب وجهها وقالت :

ـ مخلوقة جاحدة لا تخاف الله ! . ان أخى كان رجلا ضعيفا ، قد أفسدها بطيبته وتسامحه ، ومن الخير أنه مات قبل أن يرى عقوق ابنته العنيدة المتعلقة بالدنيا ..

فقال راندال غاضبا :

ـ انى جئت ياسيدتى لكى أسألك عن مكانها . لا عن أخلاقها .

تطلعت اليه العجوز لحظة . ورأت من وسامته أنه مثل ابنة أخيها من المتعلقين بحبال الدنيا ، وأنه لايطلبها لغرض طيب ، ولذلك زادت صلابتها ، وقررت ان تكذب لكى تنقذ الفتاة من شره ، ومن عجيب المصادفات ان الفتاة كانت غائبة عن البيت فى هذا الوقت ، فقالت العجوز :

ـ انك تطلب الى شيئا ليس فى مقدورى أن أجيبك اليه ..

ـ تقصدين انك لا تعرفين .. وانها .. انها تركتك ؟

فقالت العجوز وقد صممت على الامعان فى الكذب :

ـ نعم هذا ما أقصد ..

امتقع وجه الشاب . واسترسل فى اسئلته :

ـ متى تركتك ؟ .

ـ منذ سنتين ..

ـ والى أين ذهبت ؟ . لابد انك تعرفين هذا ..

ـ لا أعرف .. وكل ما أعرف انها ذهبت ، وربما كانت فى لندن ، فان هذا المكان يتمشى مع طبيعتها الدنيوية الجاحدة ..

حدق فيها متألما . ولم يكد يصدق أن نانسى تقيم فى لندن منذ عامين بلا نصير ولا معين . ثم قال لها فى حزن وانفعال :

ـ اذا كنت ياسيدتى قد أرغمتها على الذهاب الى لندن ، وهو ما استخلصه من هيئتك ، فثقى ان الله سيجازيك عن هذا الفعل .

ثم تركها دون أن ينتظر جوابا منها ..

ولو ان راندال تحرى عن الفتاة من أهل البلدة لعلم الحقيقة

ووقف على كذب العجوز ، لكن لم ير ما يدعوه الى التشكك فى كلامها ، ولذلك غادر البلدة دون أن يخاطب أحدا .

امضى ستة أشهر باحثا عنها فى كل مكان . وفى أثناء ذلك كانت نانسى تنتظره صابرة فى « تشارموث » واثقة من عودته الى « بوثريدج » حيث يعلم بمكانها ويخف لانقاذها واستخلاصها من قسوة عمتها ..

لكن هذه الصدمة التى تلقاها راندال فى مفتتح حياته كانت أقوى مما يستطيع احتماله . فقد جهد لبناء مستقبله حتى يفوز بالفتاة ، واذا هو يرى هذا البناء ينهار ويتقوض من أساسه . وسرعان ما غلبه اليأس على أمره . وتاقت نفسه الى السلوى والنسيان . واذا كان هذا متعذرا طالما كان مقيدا بقيود الوظيفة الرسمية ، فانه لم يلبث أن هجر الجيش وارتحل الى هولاندا مطمح أنظار المغامرين والافاقين . وانضم الى الجيش الهولاندى حيث نال فيه مكانة طيبة . لكنه كان جنديا مأجورا بلا روح ولا حمية . يسعى للارتزاق . وما اكتسبه من مال راح يبذره فى الشراب والمقامرة والعربدة .
واستحالت أطواره . وغدا شرير الطبع ، عابثا ، مستهترا ، حاملا حياته رخيصة فى كفه .

ثم حدث رد فعل فى نفسه . لكن بعد أن قضى خمس سنوات فى حياة العبث والخلاعة . واستيقظ ضميره فرأى انه اذا استمر فى حياته على هذا النحو فستنتهى على أسوأ ختام . وقرر أن يصلح عوجه ويعود الى انجلترا ..

كتب الى مونك الذى كان فى ذلك الوقت أقوى رجل فى انجلترا ، لكن سخرية الحظ لازمته من جديد . فقد كتب بعد فوات الاوان . بعد أن انتهى عهد الجمهورية وعادت الملكية الى انجلترا . ولم يكن يتيسر لمثله وهو الجمهورى ابن الجمهورى أن يندمج ثانية فى الجيش . ولذلك سد باب العودة فى وجهه .

وفى وسع القارىء ان يتصور الباقى . فقد عاد راندال الى حياته السابقة ، وأمضى خمس سنوات أخرى فى هذه المعيشة البوهيمية . حتى بدت نذر الحرب بين انجلترا وهولاندا . ورأى أن يلبى نداء وطنه الصامت وأن يهب لنجدته بسيفه . فقرر أخيرا أن ينفض عن غبار الجندية المأجورة وأن يعود الى انجلترا . ولولا انه وفق الى صاحبة فندق بول التى وجدت فيه رجل أحلامها لاضطر أن يعود الى حياة الجحيم التى هجرها .

الفصـــل الخـــامس
الجندى المرتزق

مضت ثلاثة أيام بعد مقابلة الكولونيل هولز للدوق البيمارل ، ولم يتلق منه ردا يبشر بقرب تحقيق غايته . فتضايق الكولونيل وخرج من الفندق وراح يتمشى فى شارع بول . واسترعى نظره جمهور متجمع حول خطيب عند مدخــل كنيســـة الحى . فيمم شطره من باب الاستطلاع وسمع الخطيب ينادى فى الناس قائلا :

ـ أوصيكم بالثورة قبل فوات الاوان ! . فان غضب الله يوشك أن يحل بكم . أن لعنة الطاعون تهددكم بالفناء ..

تطلع هولز الى وجه الخطيب . فاذا هو متجهم الوجه ، غائر العينين ، ينعق فى الناس كالغربان . وسمعه يقول :

ـ توبوا ! .. استيقظوا ! .. انظروا الخطر الذى يهددكم .. واعتصموا بالصلاة والتوبة لعلكم تدفعون هــذا الخطر قبــل أن يصيبكم . فى خلال أسبوع واحد هلك بالطاعون المميت ثلاثون رجلا فى حى « سانت جيلز » ، وعشرة فى حى « سانت كليمنت » ومثلهم فى حى « سانت أندروز » . هذه هى النذر . ان الطاعون يزحف فى العاصمة زحفا بطيئا محققا ، وستهلكون كما هلك من قبلكم اذا لم تفيقوا من سباتكم ، وتطرحوا الشر المتغلغل بينكم ! .

كان الجمهور خليطا من العامة . وقابل بعضهم كلام الخطيب بالضحك والاستهزاء ، فأخذ يندد بهم بالويل والهلاك .

واصل هولز سيره وهو يفكر فى أمر هذا الوباء الذى يحذر الخطيب الناس من أمره . وكان قد سمع انه تفشى فى الضواحى وفتك بكثير من السكان ، وتذكر فى هذه اللحظة ما كان يقوله بعض البلهاء من أن الهولانديين هم الذين جاءوا بهذا الوباء ونشروه فى انجلترا لكى يضعفوا به قواها . لكنه لم يعبأ بهذه الســخافات ولم يكلف نفســه عناء التفكير فيها ..

وفيما هو كذلك اعترضه رجل وسيم عليه سيماء الجندية ، كان يتأمله بامعان ، وأمسك بذراعه قائلا :

ـ اما أن تكون راندال هولز ! . أو انك الشيطان فى زيه ! .

عرف هولز فى المتكلم زميلا قديما فى السلاح . اتصل به فى أيام معركتى « دونبار » و « ورشتستر » .. فهتف :

ـ تاكر ! . نيد تاكر ! .

تصافح الاثنان بحرارة . وقال تاكر :

ـ انى أعرفك فى أى مكان ياراندال رغم التغير الذى طبعــه الزمن عليك ..

ـ أن الزمن قد غيرك أيضا ، لكنك فى يسر ظاهر ! .

فقال تاكر :
ـ أنا فى حالة طيبة .. وأنت ؟ .
ـ كما ترى ..
تأمله صاحبه قليلا . ثم قال اخيرا :
ـ انى سمعت عنك فى هولاندا ..
ـ قد عدت الى الوطن منذ عهد قريب ..
فقال تاكر فى دهشة :
ـ وما الذى جاء بك ؟ .
ـ الحرب . ورغبتى فى ايجاد منصب أخدم به وطنى ..
فقال تاكر متشككا :
ـ وهل وجدته ؟ .
ـ لا ..
ـ لو وفقت لأثرت دهشتى .. كان من الحماقة أن تعود . (ثم استطرد فى صوت خافت حتى لايسمعه أحد) .. ان الجو فى انجلترا لايلائم جنود الجمهورية القدماء ..
ـ لكنك هنا يانيد ..
ـ أنا ؟ . ان أبى لم يكن من قتلة الملوك ! . انا شخص مجهول مغمور ..
فتطلع هولز الى وجه صاحبه وهو يعجب كيف تدوم هذه الذكريات الى هذا الحد ، وراح يسائل نفسه : ترى هل تبقى الى الابد حائلا بينه وبين الاقامة فى انجلترا الملكيه ؟ .
ضحك تاكر وهز ذراع الكولونيل قائلا :
ـ لا . لا .. لاتتكدر ياصديقى . لنذهب الى حيث نستطيع أن نتكلم . فى جعبة كلينا كلام كثير .
فقال هولز :
ـ تعال معى الى فندق بول حيث أقيم ..
لكن تاكر تردد قائلا :
ـ ان مسكنى قريب من هنا فى (تشيبسيد)
وقصد الاثنان الى الفندق فى صمت .. ولما مرا بالكنيسة كان الخطيب لم يزل يصرخ فى الناس منذرا محذرا . فقال تاكر ساخرا :
ـ هذا مخلوق فصيح ! . ماأجدره أن يوقظ هذه الأغنام من غفلتها ..
حدق فيه الكولونيل متحيرا . فقد خيل اليه أن وراء كلامه معنى خاصا .. لكن تاكر واصل سيره دون أن يزيد شيئا .
ذهب به تاكر الى فندق فخم فى الحى الذى أشار اليه . وصعد

معه الى غرفته الخاصة الأنيقة . وبعد أن جاءت لهما صاحبة الفندق بالشراب وأغلق تاكر الباب وطلب الى الكولونيل ان يسرد عليه قصته

أصغى تاكر الى القصة برزانة . ولما فرغ منها الكولونيل تنهد تاكر وتفرس قليلا فى وجه صاحبه . ثم قال أخيرا فى تؤدة :

ـ اذن فان جورج مونك هو أملك الوحيد ؟ .

وضحك ضحكة تشف عن الازدراء واستطرد :

ـ لو كنت مكانك لانتحرت شنقا ووضعت حدآ لكل شىء .. فان هذا أقرب احتمالا وأخف عذابا ..

ـ ماقصدك ؟ ..

ـ هل تحسب ان مونك سيساعدك حقا ؟ .. أو انه ينوى مساعدتك ؟ ..

ـ بلا ريب . . لقد وعدنى بذلك . هو صديقى ، وكان صديق أبى

فقال تاكر بمرارة :

صديق ؟ .. ماعرفت فى حياتى ان الوصولى يصادق غير نفسه ولو تجسدت الوصولية والنفعية لما كانت غير جورج مونك ، أمير الوصولين ، كما تشهد بذلك حياته ! .. لقد كان من رجال الملكية ، ثم استحال شيئا بين الملكية والجمهورية ، ثم انحاز الى الجمهورية وباع اصدقاءه من أنصار الملكية ، وأخيرا ، عاد الى صفوف الملكية ثانيا وناهض اصدقاءه السالفين من رجال الجمهورية .. وكان فى كافة أطواره يختار الجانب الغالب أو الذى يتوسم فيه خدمة أغراضه ومطامعه ، ثم انظر الى مركزه الحالى ، فهو بارون ، وايرل ، ودوق ، وقائد عام ، والله يعلم ماذا يضم بعد الى سلسلة ألقابه ومنصبه ، آه ، انه سمن وامتلأ من النفعية ..

قال هولز فى شىء من الغضب :

ـ أنت تظلمه يا نيد ..

ـ هذا محال ..

ـ لكن هذا هو الواقع ، وقد نسيت ان الرجل قد يغير آراءه الحزبية لمحض الاقتناع ..

فقال تاكر ساخرا :

ـ ولا سيما اذا كان فى هذا التغيير تحقيق لمآربه ..

فقال الكولونيل فى اخلاص وانفعال :

ـ لا يليق بك ان تقول هذا الكلام . فانه غير صحيح ، كما انك مخطىء فى ظنونك ، لقد وعدنى أن يساعدنى ..

ـ وهل تعتمد على وعوده ؟. ان الوعود لاتكلف شيئا ، ان

مونك لم تخف عن حاجتك ، وهو رجل يربو دخله السنوى على ثلاثين الفا من الجنيهات ، وقد كان صديقا لابيك ، وهو يدين له بشيء كثير من مجده كما يعلم كل انسان ، فهل منحك بعض ماله لاصلاح شئونك حتى تسنح الفرصة لتحقيق وعوده ؟ .

ـ لو فعل لما قبلت منه ..

ـ لم أسألك هذا .. لكن أسألك : هل فعل ذلك ؟ .. طبعا لم يفعل ، وليس هو بالذى يفعل فهل كان أى صديق لك يتردد فى مساعدتك بكل ما يملك من الوسائل ؟ ..

ـ ان هذه المسألة لم تخطر بباله ..

ـ هى مسألة يفكر فيها أى صديق ، لكن مونك لا صديق له .،

ـ أكرر قولى انك تظلمه ، وقد نسيت انه لم يكن مجبرا على مساعدتى ..

ـ بل انه أجبر على وعوده لك ، فهناك زوجته الدوقة القذرة التى تسيطر عليه وتملك قياده ، وقد اضطر تحت الحاحها ان يعدك بما لن يفى به ، انى أعرف جورج مونك وأمثاله الذين تمتلىء بهم انجلترا فى الوقت الحالى ، هم يتهافتون على جثتها تهافت الجوارح الكاسرة ، وأنا ..

فطن تاكر الى أن هولز يتفرس فيه مذهولا من حماسته الفجائية ، فكف عن الاسترسال ، وقال ضاحكا :

ـ انما أتحمس لاجلك وحدك يا صديقى ، ضد اولئك الذين يخادعونك ، ما كان يجدر بك ان تعود الى انجلترا يا راندال ، لكن ما دمت قد جئت فلا تعلل نفسك بوعود جوفاء ..

ثم رفع كأسه وقال وهو ينظر الى الكولونيل من فوق قمته :

ـ انى أشرب نخبك متمنيا لك حظا أسعد ..

بادله هولز النخب دون أن ينبس بكلمة ، فقد تسرب اليأس الى قرارة نفسه ، واذا كانت هذه الصورة السريعة التى رسمها تاكر لنفسية مونك قد بنيت على الغرض والتحيز . فقد رأى هولز صدى لها في ماضى حياة مونك ، ولم يتمالك أن تأثر بها بدافع تشاؤمه وبؤسه الحالى ، ولذا قال في تؤدة وهو ينظر الى الخوان :

ـ لو كنت صادقا في كلامك فخير لى أن أعمل بنصيحتك وأن اشنق نفسى ..

فقال تاكر :

ـ هذا هو الطريق الوحيد الذى بقى لكل من يحترم نفسه في انجلترا ان يسلكه ..

ـ أو فى أى مكان آخر . لكن لم تتكلم عن انجلترا بمثل هذه المرارة ؟ .

هز تاكر كتفيه وقال :

ـ أنت تعرف ميولى . فأنا من اعداء النفعية والتقلب ، وكنت في حياتى من أنصار الثبات على المبدأ ..

تفرس هولز في وجه تاكر ولم يخف عنه ما وراء كلمـاته من معنى .. فقال له :

ـ اليس هذا .. اليس هذا طريقا خطرا ؟ .

فقال تاكر بكآبة :

ـ هناك اعتبارات يجب ان يضعها الرجل النزيه فوق اعتبار الخطر ..

ـ هذا صحيح ..

ـ ان النزاهه والشرف في الثبات على المبدا وعدم التلون .. واعتقد يا راندال انى رجل نزيه ..

فقال هولز بتؤدة :

ـ ولعلك تقصد أن تقول انى لست كذلك ..

لم يناقضه تاكر ، وهز كتفيه وهو يبتسم من باب التأدب والمجاملة . فلم يتمالك الكولونيل أن نهض غاضبا منفعلا من راى صديقه فيه .. وقال له :

ـ أنا متسول يانيد .. والمتسولون لا يختارون .. وفوق ذلك فقد أمضيت عشر سنوات من حياتى لم اكن في خلالها أكثر ولا اقل من جندى مأجور مرتزق . ان سيفى للايجار . وهـذه هى مهنتى التى أعيش منها .. أنا لا اساهم فى اقامة الحكومات .. ولا أعذب نفسى بالبحث فى جدارتها وصلاحها .. انى اخدمها بالثمن ..

لكن تاكر ابتسم فى كآبة وهز راسه متباطئا وقال

ـ لو صح هذا لما كنت الان فى انجلترا . انك جئت بسبب الحرب كما قررت . وقد يكون سيفك للايجار . لكن ما يزال لك وطن .. وستدافع عنه بسيفك قبل كل شيء . فاذا رفض الوطن هذه التقدمة فلا ينبغى أن تهب سيفك لاعداء انجلترا .. فلم اذن تنتقص من قيمتك وتصغر قدرك ؟. ما يزال لك وطن . وانت تحبه . وكثيرون فى هذا الوطن على استعداد لمحبتك والعطف عليك وان يكونوا في غير صفوف حكام انجلترا . لقد عدت لخدمة وطنك

فابذل في سبيله هذه الخدمة اذن . لكن سل نفسك أولا ما هو أفضل سبيل لخدمته .
ـ وكيف ذلك ؟.
ـ اجلس يا رجل . اجلس . واصغ الى .
استحلف تاكر الكولونيل بواجب الزمالة القديمة أن يكتم السر الذى يوشك أن يبوح به . وأفضى اليه بالسر معتمدا على هذه الرابطة . مطمئنا الى بؤس احوال الكولونيل . فاذا الذى قاله لا يعدو أن يكون خيانة لا ريب فيها .
بدا تاكر حديثه بدعوه الكولونيل الى التأمل فيما وصلت اليه سياسة الحكومة القائمة على التبذير وسوء الادارة والانتقام بعد استتباب الامر لاسرة ستيورات . وراح يعدد له المظالم التى أرتكبت في خلال الاعوام الخمسة الماضية مبتدئا بانتهاك حرمة قانون العفو والضرب به عرض الحائط . وكان يصور هذه الوقائع باللون الذى يتسق مع نغماته العدائية ، وان كانت مع ذلك مطابقة للواقع .. ثم استعرض اخيرا موضوع الحرب التى كتب على البلد أن تخوض غمارها . فحلل أسبابها وردها الى عوامل الاستهتار واهمال العناية بالاسطول الضخم العظيم الذى تركه كروموبل .. وراح يشير الى عبث البلاط باسلوب « البيوريتانى » المتعصب . ثم اختتم حديثه قائلا :
ـ لقد أشرفنا أخيرا على النهاية .. وستتطهر «هويتهول» من شارل ستيوارت ونسائه العابثات المستهترات واعوان السوء الذين يحفون به .. وستعود الجمهورية لكى تحكم انجلترا حكما صالحا عادلا فيفاخر أبناؤها الامناء بخدمتها والانتماء اليها .
ارتاع هولز من هذه الصراحة .. فهتف :
ـ يا الهى !. من المحقق انك جننت يانيد !.
فابتسم تاكر ابتسامة مخيفة وقال :
ـ لعلك تشير الى هذه المغامرة ؟؟. ان هؤلاء الوحوش قد نكلوا برجال افضل منا ، ذهبوا في سبيل هذه الغاية .. واذا اخفقنا . فلا ضير فى ان الحق بهم . لكن لن نخفق . أن تدبيراتنا قد احكمت احكاما تاما . وهناك شخص فى هولاندا يدير دفتها . وهو شخص عزيز علينا جميعا ، وان كنت في غير حل من ذكر اسمه .. ان الساعة قد حانت .. وقد انبث رجالنا في كل مكان يمهدون الاذهان للانقلاب وينفخون في النفوس روح الثورة .. وقد حالفتنا السماء اذ ارسلت هذا الطاعون لكى يفعم نفوس

الناس رعبا وجزعا ويحملهم على التساؤل عما اذا لم تكن هذه اللعنة الالهية قد حلت بهم بسبب ما يتمرغ فيه حكامهم من الرذائل والمساوىء .. وان ذلك الخطيب الذى سمعته على درج كنيسة بول هو واحد من اعواننا يقوم بمهمته ويبذر البذور فى التربة الخصبة .. وعن قريب سينبت المحصول .. وأى محصول !.

وتوقف تاكر عن الكلام .. وتأمل فى وجه صاحبه المروع بعين يلمع فيها بريق التعصب . واستطرد :

ـ ان سيفك متعطل يا راندال وانت تسعى لاستخدامه والانتفاع به . فهاهنا اذن خدمة تستطيع ان تؤديها فخورا . هى خدمة الجمهورية العتيدة التى كنت من انصارها فى الزمن الماضى .. خدمة غرضها استئصال هؤلاء الاعداء الذين ينكرون على مثلك مكانه الجدير به فى انجلترا . ولن تضرب لنفسك فحسب بل من أجل الالاف من امثالك كذلك .. انى اهيىء لك فى الحال مستقبلا مضمونا .. أما البيمارل فانه يعللك بالوعود ويمنيك بمناصب يؤثر بها كل يوم رقعاء الرجال ممن يمتون بصلة الى رجال بلاط شارل ستيوارت . انى فتحت قلبى امامك مخلصا رغم تعرضى للخطر .. فماذا انت قائل ؟.

نهض هولز وقد لاحت على وجهه دلائل العزم واستقر قراره فقال :

ـ ما قلته من قبل . أنا جندى مأجور . أنا لا اساهم فى اقامة الحكومات . انى أخدمها . ولا يوجد فى الحياة الحاضرة سبب يغرينى بالتحمس له والتفانى في سبيله ..

ـ لكنك عدت الى الوطن لكى تخدم انجلترا فى محنتها .

ـ لانى لم أعرف مكانا اخر اذهب اليه ..

ـ بديع !. انى أجاريك على حد كلامك . لا لانى اصدقك .. بل لكى لا اناقضك .. انك قد وجدت جميع الابواب التى كنت تعول على طرقها موصدة جميعا في وجهك . فماذا تفعل؟ لقد قررت انك جندى مأجور ، لا هم لك في الحياة الا ان تخدم اليد التى تستأجرك فهأنذا اذن اقدمك الى مخدوم كريم سيجزل لك العطاء ويكافئك بسخاء . مادامت انواع الخدمة جميعا سواء في نظرك ، فلتجبنى بلسان الجندى المأجور ..

ونهض نيد تاكر بدوره متحمسا ، وبسط يده الى صاحبه مستحثا فتطلع اليه الكولونيل برزانة بعض الوقت . ثم ابتسم وقال :

ـ ما ابرعك في انتهاز الفرص يا نيد . لكن غاب عنك شيء .. فان الجندى المأجور يخدم الحكومات القائمة . أما خدمة الحكومات التى فى دور التكوين فهذا من خصائص المتحمسين . وأنا رجل قد فقد كافة دواعى التحمس في خلال السنوات العشر الماضية .. اقم حكومتك ووطد دعائمها ، فأؤجرك سيفى مسرورا لكن لا تطلب الى أن أساهم فى اقامتها . فان رأسى هو كل ما بقى لى فى الحياة ..

ـ ان شارل ستيوارت لن يدعك تنال قوتك ..

ـ انت تبالغ .. واذا كان اغلب ما تسنده اليه صحيح فى جملته فلن أيأس من مساعدة البيمارل .

ـ انت أعمى .. اقسم لك انه لن يمضى وقت قصير حتى يغدو البيمارل بلا حول ولا قوة ، ويعجز حتى عن مساعدة نفسه .

هم هولز بالكلام . لكن تاكر استوقفه قائلا :

ـ لا تعطنى رايك الان .. دع ما قلته لك يستقر فى ذهنك وتدبره جيدا . امامنا وقت مناسب .. تمعن فى كلماتى . واذا مضت أيام ولم تصلك انباء من « هويتهول » بتحقيق الوعود الهوائية . فلعلك تغير نظرتك الى الموقف وتدرك اين تستقر مصلحتك الصحيحة .. تذكر اذن اننا في حاجة الى الجنود المهرة المدربين لتزعم حركتنا ، وان ابوابنا مفتوحة للترحيب بك واستقبالك . ثم تذكر كذلك ان زعماء الحركة في نشأتها سيبقون زعماءها في مستقرها ، وسيغنمون غنما عظيما . والان ياراندال .. ان زجاجة الشراب لم تفرغ بعد . لنجلس اذن لنشربها ولنتحدث فى شئون اخرى ..

وانصرف هولز الى مسكنه حوالى الغروب . وراح يعجب .. كيف يجرؤ تاكر على الافضاء له بمثل هذه المؤامرة الخطيرة غير معتمد الا على زمالته القديمة .

على انه حينما فكر فى الامر مليا زال عجبه .. فان تاكر لم يفض اليه الا بكلام عام عن وجود مؤامرة واسعة النطاق للتخلص من أسرة ستيوارت واعادة الجمهورية .. وهو لم يذكر أسماء معينة يمكن ان تزيد هذه المؤامرة تحديدا وترشد الى اصحابها . ولو ذهب هولز الى الجهات المسئولة ونفض اليها نبأ هذه المؤامرة فلن يجد مايعزز به هذا النبأ سوى مجرد كلام صدر من نيد تاكر .. وفى مجلس القضاء يستوى كلامه وكلام هولز .. بل انه اذا انكشف ماضى هولز للعيان فلن يجنى من هذا سوى الاساءة الى نفسه والاستهداف للخطر ..

ضحك هولز أخيرا من سذاجته حينما خيل اليه ان تاكر وثق به اكثر مما يجب .. ثم ضحك ثانية حينما استعرض المشروع الذى دعى للمساهمة فيه .. فهو مغامر مستيأس حقا .. لكنه لم يبلغ من المغامرة والاستيئاس الى حد تعريض عنقه لحبل الجلاد .. وليس له أن يقنط من انفراج أزمته لمجرد تحامل تاكر على البيمارل لأغراضه الخاصة .. ولم يتمالك هولز كلما زاد هذا الموضوع بحثا وتفكيرا بعد ان بات الان بعيدا عن تحريض تاكر .. ان زاد اقتناعا باخلاص البيمارل وصدق نواياه ..

الفصـــل الســـادس

وصفة مستر اثريدج

وصل الكولونيل هولز الى الفندق .. فرأى فيه حركة غير عادية . ولمح آثار القلق بادية على وجه مدام مارتا كوين .. وما كاد يستقر فى غرفته حتى لحقت به قائلة :

ـ هل سمعت الانباء المزعجة يا كولونيل ؟.. هى حديث العاصمة !..

تطلع الكولونيل اليها .. ثم هز راسه قائلا :

ـ لا .. لم أسمع أنباء مزعجة .. انى قابلت صديقا قديما وذهبت معه الى مسكنه فى فندق (الزهرة) حيث قضيت معه ثلاث ساعات .. ولم أكلم احدا سواه .. ما هى هذه الانباء ؟..

ـ يقولون ان الطاعون تفشى فى العاصمة .. فى بيت بحارة (بيربندر) . وقد حمله رجل فرنسى كان يقيم فى ضاحية (لونج ايكر) وقد هجرها حينما امتد الوباء اليها .. ولكن يظهر انه قد أصيب بالعدوى التى نقلها الينا ..

وتذكر الكولونيل ، تاكر وأعوانه الناعقين .. فقال لها :

ـ ربما كان هذا الخبر مكذوبا ..

ـ بل هو صحيح .. وقد جاء به خطيب كان يخطب فى الناس عند كنيسة بول .. ولم يصدقوه أول الامر .. لكنهم ذهبوا الى حارة (بيربندر) .. فوجدوا البيت المشار اليه مقفلا ومخفورا بأمر من العمدة .. ويقال ان العمدة السير جون لورنس قد ذهب الى (هويتهول) للتشاور فى الاجراءات الواجب اتخاذها لمنع انتشار الوباء .. وسيعمدون الى اغلاق المسارح والمحال العامة التى يتجمهر فيها الناس ، وهذا يستتبع اغلاق الحانات والمطاعم .. فماذا أفعل اذا تم ذلك ؟..

فأخذ هولز يسرى عنها وقال :

ـ لا .. لا .. لن يتطور الامر الى هذا الحد .. لا بد للناس من الاكل والشرب ، والا هلكوا جوعا .. وهى نتيجة أسوأ من الطاعون ..

ـ هذا صحيح .. لكنهم لن يفكروا فى هذا الامر فى تحمسهم الفجائى وخوفهم من غضب الله وهم يرون ان هذه المصائب لم تنحط علينا الا بسبب مساوىء البلاط ورذائله .. وهذا يحدث فى الوقت الذى يستعد فيه الاسطول الهولاندى كما يقولون لمهاجمة سواحلنا !

وهكذا اصبحت مارتا كوين تهتم بالمسائل العامة التى كانت تتجاهلها بعد أن رأت انها تهدد مصالحها المباشرة ! .

والواقع أنها كانت صادقة فى الاقوال التى أدلت بهـا .. فان عمدة لندن كان فى الوقت الحالى يقنع أولى الحل والعقد فى هويتهول باتخاذ الاجراءات الحاسمة لايقاف انتشار الطاعون ، وعلى رأس هذه الاجراءات التى أشار بها اغلاق المسارح ..

لكنه لم يشر فى نفس الوقت باغلاق الكنائس أيضا حيث يتعرض الناس لعدوى الوباء تعرضهم لها فى المسارح .. ولذلك لم تجد احتجاجاته اذنا واعية .. كما أن الطاعون اقتصر فى انتشاره على الاحياء الفقيرة .. ولم يكن يخشى أن يمتد الى مناطق الاغنياء ..

وفوق هذا كله فقد كان اهتمام السلطات المسئولة فى (هويتهول) متجها الى شئون الحرب ، واشاعات خروج الاسطول الهولندى من قاعدته قاصدا الى الهجوم على الشواطىء الانجليزية ، وكانت هذه المسائل وحدها كافية لاستغراق ما بقى من اهتمام المسئولين الذين كانوا ينسجون على منوال مليكهم شارل ستيوارت المنهمك فى اللذائذ والمسرات ، كما كان الصفوة من هؤلاء منقسمين على أنفسهم انسياقا وراء الاهواء الشخصية المتصلة بشئون الحرب والاسطول ، وفى طليعة هؤلاء الدوق بكنجهام الذى ساءه أن يترك بلاطه الخاص فى يورك ويخف الى بورتسموث لتولى قيادة احدى سفن الاسطول ، فاذا الدوق يورك شقيق الملك وقائد عام الاسطول يقف فى طريقه ويحول دون غايته خوفا من المنافسة واشباعا للاهواء الشخصية ، ولما لجأ الدوق بكنجهام الى الملك التماسا للانصاف كان من الطبيعى أن ينحاز الى صف أخيه ويمسك عن انصاف الدوق بكنجهام ، وهكذا بقى هذا الدوق فى البلاط لكى يستسلم الى أحزانه ويرتبط تاريخه بتاريخ الكولونيل هولز بروابط المصادفات العجيبة ..

كان الدوق بكنجهام رغم اقترابه من سن الاربعين ، من ذوى المزاج المنبسط الذين لا يستسلمون للاحزان والهموم الا ريثما

يستنبطون الوسائل لتبديدها ونفيها عنهم ، وقد لجأ الى صديقه ونديمه جورج اثريدج صاحب المسرحية الرائعة الصيت (الثأر الهزلي) وهو مثله في الخلاعة والمجون ، يستوحيه وسيلة يدفع بها عن نفسه أسباب الغم والانقباض ، ويعود بها الى البشاشة والمرح ، فراح هذا الصديق يصف له مواهب الممثلة الذائعة الصيت سيلفيا فاركارسون ويطنب في امتداح جمالها ، فأعرض عنها الدوق ونعتها بأنها ممثلة ساقطة ، فقال اثريدج :

ـ ان شهيتك صدئت وفي حاجة الى ما ينبهها .

فقال الدوق بكآبة :

ـ صدقت . صف لي اذن منبها .

فقال اثريدج :

ـ هذا ما أنا فاعل . اني أصف لك سيلفيا فاركارسون ، ممثلة (مسرح الدوق) .

ـ ممثلة ! دمية مصبوغة بالالوان ! كانت هذه الوصفة تنجع منذ عشرين عاما .

ـ ليست هذه دمية مصبوغة . هي صورة مجسدة للجمال والمواهب .

ـ كم سمعت هذا الكلام عن كثيرات قبلها .

ـ اسمح لي أن أقول ان هذه تمتاز بالعفة والفضيله .

حدق فيه بكنجهام متسائلا . وقال له :

ـ وما يكون هذا ؟

ـ هذا هو العنصر الاساسي في وصفتي .

ـ لكن هل توجد بها هذه الصفة حقا ؟.

فقال اثريدج :

ـ تعال معي وانظر بعينيك .

فقال بكنجهام معترضا :

ـ ان الفضيلة لا تنظر بالعين .

ـ هي مثل الجمال ، تتراءى في عين الناظر . ولذلك لم يتح لك من قبل أن تراها .

استمع الدوق بكنجهام لمشورة صديقه ونديمه جورج اثريدج .. وقصدا الى (مسرح الدوق) لمشاهدة سيلفيا فاركارسون . وقد ذهب الدوق وفي نيته أن يندد وينتقد .. لكنه بقي في المسرح لكي يمجد ويعبد .. فقد راعه جمال الفتاة وبراعة فنها . وقد رأى القراء فيما سلف من فصول هذه الرواية ان الدوق أطرى الممثلة من مقصورته الخاصة على مسمع من جمهور النظارة . وأعلن

لها انه لن يهدأ حتى يدبج لها رواية خاصة بنفسه .

ثم انتقل بعد انتهاء التمثيل الى مقصورة الفتاة وكرر لها اعجابه فتقبلت هذا التعطف بمزيد الشكر والابتهاج .. وان شعرت فى نفسها حينما رات نظرات الدوق اليها بدافع خفى يحذرها منه .. فقد كان الدوق من أجمل الرجال فى بلاط شارل ستيوارت .. وقد حدثتها نفسها بأن جمال الرجال يخفى وراءه شيئا مشئوما .

ولما انصرف الدوق بكنجهام وصديقه من المسرح قال هذا :

ـ أحسب انك وجدت وصفتى مطابقة لذوقك .. ولعلها ترد لك شيئا من شبابك الذاهب .

فقال بكنجهام :

ـ ان ما أعجب منه هو كيف تصفها لى ولا تصفها لنفسك ؟.

فأجاب اثريدج :

ـ هكذا شأنى دائما .. مثال التضحية ونكران الذات . وفوق ذلك فان هذه الفتاة تتصنع الطهر . وأنا أجهل كيف أعالج هذا الصنف من النساء .. وهذه دراسة جديرة بأن يتوفر الانسان عليها .

فقال بكنجهام :

ـ أحقا ؟. اذن فسأتفرغ لهذه الدراسة .

ولقد توفر الدوق بكنجهام حقا على هذه المهمة بغيرة الطالب المجد ونشاطه .. فكان يتردد كل يوم على (مسرح الدوق) ، ولم يتخلف يوما عن ارسال طاقات الورود والازهار اليها رمزا لتقديره لها واعجابه بفنها .. كما كان يثابر على زيارتها فى مقصورتها الخاصة بعد انتهاء التمثيل لكى يطنب فى امتداح مواهبها .. وبعد مضى اسبوع أعلن لها انه أتم تدبيج الفصل الاول من الرواية التى وعدها بوضعها خصيصا لها . وقال :

ـ انى عكفت عليها ليلا ونهارا مدفوعا بالروح الذى ألهمنى .. فمتى تسمعينها منى ؟.

فسألته : ألا يحسن ان تتموا فخامتكم الرواية أولا .؟

ارتاع الدوق وبهت ، فهتف :

ـ أتمها .. قبل أن أعرف ما اذا كانت ستنال موافقتك وتطابق رغبتك ؟!

ـ لكن ليست المسألة هى مسألة رغبتى يا صاحب الفخامة .

ـ وما هى اذن ؟. ألست أضع الرواية خصيصا لأجلك ،مدفوعا بالروح الذى ألهمنى ؟. وهل استمر فى اتمامها تخامرنى الهواجس

كل لحظة فيما اذا كنت ستعدينها جديرة بمواهبك بعد الفراغ منها ؟. لا . لا . لا بد أن أعرف رأيك أولا فى الفصل الاول .. وأن أتفق معك بشأن الفصول الباقية .. ولذلك أسألك للمرة الثانية، بحق الفن المقدس، متى تسمعين ما كتبته ؟.

ـ ما دمتم فخامتكم تسبغون على كل هذا الشرف، فانى أترك لكم تحديد الوقت

سرت الفتاة بهذا الاطراء الذى بدا لها من جانب الدوق العريق فى النبل، رصيف الملوك، ونسيت مؤقتا ما خامرها أول الامر من الريب فى نواياه .. فقد توثقت الصلة بينهما فى خلال هذا الاسبوع وكان يعاملها باحترام وتقدير حتى رأت انها كانت مخطئة فى توجسها منه .

قال لها الدوق : هل توافقين ان يكون الغد موعدنا ؟.

ـ اذا شئتم فخامتكم ؟. وستحضرون معكم الفصل الذى تم ..

فرفع الدوق حاجبيه . وقال وهو يدير نظره فى أرجاء مقصورتها :

ـ أحضره ؟. لعلك لا تقصدين أيتها الطفلة انى سأقرأ الفصل هنا فسألته فى شىء من الحيرة :

ـ وأين اذن ؟.

ـ وأين يكون هذا الا فى بيتى .. وأى مكان أصلح من هذا ؟.

بدت على الفتاة دلائل جزع يسير .. وثارت مخاوفها من جديد .. لكنها لم تشأ أن تواجهه بالرفض حتى لا يكون لهذا من معنى الا أنها ترتاب فى نواياه .. ولمح الدوق ترددها وانتظر حتى تفصح عن غرضها فقالت فى صوت متقطع :

ـ لكن .. فى بيتك .. ماذا يقال عنى يا صاحب الفخامة ؟. اذا ذهبت وحدى ؟.

فقاطعها فى لهجة تشف عن العتاب الرقيق :

ـ يالك من طفلة !. هل يخطر لك انى أعرض بسمعتك للقيل والقال ؟ . وحدك ؟ . اطمئنى . انى سأدعو بعض الاصدقاء ليكونوا شهودا ومستمعين لما كتبت .. سيكون بينهم بعض سيدات (مسرح الملك) .. كما سأدعو بعض أصدقائى .. وربما شرفنا جلالة الملك بحضوره . ستضمنا وليمة عشاء حافلة .. وبعد العشاء سأسمعك روايتى . هل زال ترددك ؟.

دار رأسها طربا وزهوا ... فستحضر وليمة عشاء فى (والنجفوردهوس) قصر الدوق بكنجهام حيث تكون ضيفة الشرف وقد يشرفها الملك بشخصه !.

لا ريب أن هذا منتهى ما تطمح اليه من المجد . ولا ريب أن هذه المناسبة ستكون حجر الاساس فى ترسيخ شهرتها وتوطيد دعائم مستقبلها .

وهكذا تغلبت على ترددها . واعربت للدوق عن قبولها .

الفصـــل الســـابع

وليمة

فى مساء اليوم الذى تقابل فيـــه الكولونيل هولز ونيدتاكر ؟ وحوالى الوقت الذى كان فيه السير جون لورنس عمدة لنـــدن يجاهد عبثا فى هويتهول لاغلاق المسارح والمحلات العـــامة لايقاف انتشار الطاعون فى العاصمة . جلس الدوق بكنجهـــام فى قصره يستمتع بوليمة العشاء التى أعدها احتفاء بضيفته الممثلة العظيمة سيلفيا فاركارسون .

جلس احد عشر مدعوا حول المائدة التى اعـدت لاثنى عشر . وبقى المقعد الكائن الى يمين الدوق خاليا . فقد أرسلت الآنســـة فاركارسون ضيفة الشرف فى آخر لحظة رســالة قررت فيها ان طارئا فجائيا قاهرا عاقها عن الحضور فى الموعد المحـدد واستوجب بقاءها فى بيتها ، وانها لذلك ستحرم من شرف المساهمة فى وليمة العشاء ، لكن لن يفوتها الحضور وقت قراءة الرواية .

كان هذا العذر مصطنعا فى الواقع . والحقيقة أن الآنســـة فاركارسون قد ثارت هواجسها من جديد من ناحيـــة الدوق . وآثرت أن تتأخر عن موعد الوليمة مدة ساعتين كاملتين ريثما يكون المدعوون قد فرغوا من العشاء . وبذلك تحضر وقت قراءة الرواية وتكفى نفسها مؤونة الاندماج فى وسط الدوق والاختلاط بضيوفه أثناء الوليمة .

واستاء الدوق بكنجهام من هذه الرسالة . وكان يود تأجيل موعد الوليمة لولا أن ضيوفه لم يتركوا له ذلك . ولم يكن الدوق قد اعد الفصل الاول من الرواية كما زعم . بل انه لم يخط فيهـــا سطرا واحدا . وكان مقررا أن تستغرق الوليمة كل الســـهرة . ولذلك قرر ان يطيل أمد الوليمـــة الى أقصى مدة ممكنة .. ومن المرجح أن الممثلة ستحضر فى وقت يمكنها من المشاركة فيهـــا .. ولذلك انتظر الدوق حضورها صابرا ..

كان المدعوون نخبة من رجال وسيدات الطبقة الراقية . ومنهم من كان فى الخلاعة والعربدة مضرب الامثال .. وقد اســـتخفهم الطرب فراحوا يستمتعون بالنكات والنوادر ما شاء لهم الاستمتاع .

وتعالى الضحك حتى كان يتردد صداه فى جوانب قاعة الطعام الرائعة التى تناثرت فيها عشرات الثريات المتلألئة .. ولما فرغوا من العشاء لم يفارقوا المائدة . بل استمروا فى مجالسهم يحتسون كؤوس الشراب فى انتظار ضيفتهم المتخلفة ..

وجلس بكنجهام وحده بينهم فى ملابسه الرائعة الثمينة لا يشرب ولا يشاطرهم عبثهم ومجونهم . وكان ينصت بين وقت وآخر فى لهفة لعله يسمع ما يبشر بقرب حضور الممثلة الفاتنة التى أعد من أجلها هذه الوليمة الحافلة ..

وفيما هم كذلك اذ نهض احد المدعوين (السير هارى ستانهوب) من مكانه واعتلى مقعده ممسكا بيده (فردة) حذاء أنيق انتزعه من قدم احدى السيدات .. وأمر الوصفاء بصوت مرتفع ان يوافوه بالخمر ..

وقد حاولت السيدة أن تنتزع الحذاء من يده لولا ان مدعوا آخر أمسك بها وضمها الى صدره وهى تتصنع الصراخ والاحتجاج والمحانقة ..

جاء الوصيف وصب الخمر فى الحذاء كما أمره السير هارى ستانهوب . ووقف ستانهوب على رأس المدعوين شديد المرح مورد الوجه ، واقترح عليهم أن يشربوا نخبا معينا بأسلوب يخجل الحياء من ذكره ..

وبينما هو يهم بالشرب من الحذاء فتح الباب الكائن خلف الدوق وأعلن الحاجب حضور الآنسة سيلفيا فاركارسون ..

ساد صمت قصير تخللته الدهشة . ثم تعالت أصواتهم جميعا ترحيبا بمقدم الضيفة ..

ووثب بكنجهام من مكانه وانثنى حوله . وشاركه آخرون فى الوقوف تقديرا للقادمة . ووقف ستانهوب مثبتا احدى قدميه فوق المقعد والثانية فوق المائدة ، وانحنى أمامها منكسا الحذاء الذى شرب منه النخب !..

سمرت سيلفيا فى مكانها لاهثة الانفاس ممتقعة الوجه .. ووقفت على رأس الدرجات الثلاث المؤدية الى مستوى القاعة تحدق بعينين متسعتين جزعا ورعبا فى هذا المشهد الداعر .. حيث لعبت الخمر بالرءوس والتفت السواعد حول الاعناق والخصور ، وترددت الضحكات الماجنة وانعدم الحياء والوقار ..

ثم رأت أخيرا الدوق بكنجهام يتقدم الى ناحيتها بقامته المديدة وقد ضاقت عيناه وانفرجت شفتاه عن ابتسامة يسيرة وبسط يديه ترحيبا واحتفاء ...

كان يتقدم اليها متزن الخطوات وقور الحركات .. ولم تبد عليه علائم الشمل التى شملت أصحابه . لكن اتزانه لم يملأ نفسها طمأنينة . وغاض الدم من وجهها فزعا واشمئزاز ..

تطلعت اليه مبهورة وهو يتقدم اليها ، وما لبثت ان دارت على عقبيها وفرت هاربة فى فزع الذى أطل برأسه فى قاع الجحيم وارتد مروعا طائش اللب قبل ان تتلقفه شياطينها ..

سادت دهشة عميقة عقدت الالســـنة بضع ثوان ! ثم دوت عاصفة من الضحك العنيف الجنونى زادت الفتاة اندفاعا وامعانا فى الهرب والنجاة ..

أخذت تركض فى المشى المستطيل كما يركض النـــائم تحت سلطان كابوس مروع ، وبلغت البهو الفسيح واندفعت منـــه الى الدهليز ، ثم وصلت أخيرا الى الباب المفتوح حيث رمقها الخدم فى دهشة ، لكنهم لم يحاولوا ايقافها ..

ووصلت صيحة الدوق الى خدمه يأمرهم بايقافها بعد فوات الاوان ، اذ كانت فى هذه اللحظة قد وصلت الى الفناء وركضت فى خفة الارنب الى الباب الخارجى الكبير المطل على (هويتهول) ، حيث كانت المركبة المقفلة التى جاءت فيها تعود أدراجها متباطئة ،وسرعان ما أدركتها واستوقفتها وهى تلهث ، فوثبت الى داخلهـــا وأمرت الحوذى أن يسير بها بأقصى سرعة الى ميدان (سالسبورى) وما كادت تقفل باب المركبة حتى أدركها ثلاثة من خدم الدوق وصاحوا فى الحوذى يأمرونه بالوقوف ، فأطلت الفتاة من نافذة المركبـــة من الناحية المقابلة وقالت للحوذى :

ــ اسرع !.. أسرع !.. أتوسل اليك بالله أن تسرع !..

ولو كانت المركبة فى فناء القصر لما جرؤ الحوذى على التقـــدم والابتعاد ، لكنها فى هذا الوقت كانت فى منطقة (هويتهول) نفسها، وكان فى وسع الحوذى وهو الآن فى الشارع أن يتحدى خدم الدوق، ولم يجسر هؤلاء على اعتراض المركبة بالقوة ، فتقدمت المركبة فى طريقها دون عائق ، وغاصتالآنسة فاركارسون فى مقعدها تستنشق الهواء وتفيق من أثر الرعب الشديد الذى استولى عليها ..

وعاد الدوق بكنجهام الى قاعة الطعام يجر قدميه خيبة حيث استقبله ضيوفه بعاصفة قوية من الضحك والاستهزاء ، وقـــد حاول أن يشاركهم ضحكهم لكي يزيل أثر الهزيمة التى لحقته ، لكنه لم ينجح فى محاولته ، وتهالك فى مقعده الفخم مستاء ساخطا ..

وكان صديقه ونديمه مستر جورج اثريدج أقل الحضـــور استسلاما للسكر فوضع يده على ذراع الدوق قائلا :

ـ انى حذرتك .. اذ قلت لك ان صـــاحبتنا من أنصـــار الفضيلة ، وانه يجب لها شيء من الصبر والاناة ، وهذا ما يجب أن تتوسل به لكى تستأثر بها ..

الفصـــل الثـــامن

نصيحة اثريدج

انتصف الليل . وانصرف الضيوف . وبقى الدوق بكنجهـــام وحده مع صديقه جورج اثريدج يشكو له مر الشكوى من هـــذه السخرية التى تعرض لها . فقال هذا :

ـ لا حق لك فى الشكوى . ولو سألتنى رايى لتنبأت لك بمـــا يحدث بعد أن جمعت حـــولك رهطا من العابثين المـــاجنين الذين لا يعرفون معنى للتماسك والاعتدال .. ولو أنها جاءت فى الموعد المحدد قبل ان يبلغوا حد الثمل لتغير الموقف ، وشاركتهم ثملهم الى حد ما ، ونظرت الى أفعالهم بعين أخرى .. أما وقد حدث ما حدث . فأنت قد أثرت اشمئزازها .. وهذا يغاير ما أشرت عليك به .

فقال الدوق الساخط :

ـ ليكن .. انى تعرضت للسخرية . ولا بد من اتخاذ اجراءات حازمة ..

فقال اثريدج وهو يضحك ساخرا :

ـ اجراءات حاسمة !. هل هذا هو الصبر الذى أوصيتك به ؟

ـ لتذهب الى جهنم أنت وصبرك !

ـ اذن فهى لم تخلق لك . رويدك يا عزيزى بكنجهام . أنا لا أعرف ماذا تقصد بالاجراءات الحازمة التى أشرت اليها . واذا كنت تشير الى اختطاف الفتاة فلتذكر بأن القانون يعاقب على هذه الفعلة بالاعدام شنقا .

حدق فيه الدوق مذهولا . ثم قال وهو يضحك ازدراء :

ـ القانون ؟ وما شأنى بالقانون يا صديقى الطيب القلب ؟!

ـ لعلك تعنى انك فوق طائلة القانون ؟

ـ هذا شأنى دائما .

ـ لكن الزمن تغير . ولا ريب أن روشستر كان يرى رأيك هذا حينما اختطف الآنسة ماليت فى ليلة الجمعة الماضية . لكن روشستر هو الآن نزيل سجن (البرج) بسبب هذا العمل .

فقال بكنجهام ساخرا :

ـ وأنت ترى انهم سيشنقونه .

ـ لا .. لن يشنقوه لانه أبدى استعدادا لتعويض ما أصابه سمعة الآنسة ماليت بالزواج منها .
ـ أنت مخمور يا جورج أكثر مما كنت أقدر . ان الآنسة ماليت شخصية لها قيمتها فى المجتمع ، ولها أصدقاء من ذوى النفوذ .

ـ وكذلك الآنسة فاركارسون . ان الممثل بترتون صديقها ، وهو ذو نفوذ كبير . وما أنت فى حاجة الى أعداء جدد يتألبون عليك .
فقال بكنجهام بمزيد الاحتقار :
ـ لكن هذه امرأة خليعة ساقطة من نساء المسرح !.

ـ ان هؤلاء النساء محبوبات من جماهير الشعب . ولو كنت الدوق بكنجهام لفضلت ألا أثير سخط شعب العاصمة فى مثل الظروف الحالية فالحرب تثير هياجهم . ووباء الطاعون يقلق أفكارهم ويوقظ ضمائرهم . والخطباء يجوبون أنحاء لندن منذرين الناس بأن ما يصيبهم انما هو من غضب الله .. والجماهير تستمع اليهم .. وقد بدأوا يتطلعون الى (هويتهول) ويرون فيها مصدر البلاء الذى استوجب نقمة الله عليهم وهم لا يحبون أمثالنا يا بكنجهام . وان أسماءنا قد بدأت تزكم أنوفهم . ولو مهدت لهم هذه الفرصة وزودتهم بهذا السلاح فسيصرون على حرفية القانون ويلحون فى طلب العدالة . ان الانجليز شعب هادىء فى الظاهر ، وكم من حمقى لقوا حتفهم منخدعين بهذا السكون السطحى الظاهر .. وان المكان الذى طاح فيه رأس الملك شارل السابق على مدى النظر من هذه النوافذ .

ولذلك أقرر لك أن هذه النية التى تبيتها اذا كانت قليلة الاخطار فى أى عهد سالف فهى الآن أشد خطرا . ومن مأمنه يؤتى الحذر ، كما يقول المثل .. ولو كان رجل غيرك أقل شأنا لتسنى له أن يقوم بهذا العمل دون أن يستهدف لما تستهدف له من الخطر .
طرح الدوق ازدراءه أخيرا .. واستسلم للتأمل والتفكير ..
وجلس اثريدج يراقبه عن كثب .. فقال له الدوق أخيرا :
ـ لا تنظر الي ساكنا . لعنة الله عليك !. أشر علي !.
ـ وما الفائدة ما دمت لا تعمل برأيى ؟.
ـ مهما يكن فاسمعنى هذا الرأي . ما هو ؟
ـ انس الفتاة .. وابحث عن طريدة أسهل منالا منها . أنت أكبر سنا من احتمال هذه المطاردة الشاقة العسيرة .
ما كاد الدوق يسمع هذه الكلمات حتى أخذ يلعن صديقه

وينعته بالعبث والمجون ، واقسم الا يتخلى عن غرضه ، وان يتابعه مهما كلفه من ثمن . فقال اثريدج :

ـ اذن فلا بد أن تزيل الاثر السيء الذى احدثته هذه الليلة .. ولن يكون هذا بالامر اليسير . بل هو مجهود شاق فى الواقع . لكن هناك أشياء فى صفك . فانك مثلا لم تكن ثملا كالباقين حينما تقدمت لاستقبالها . والمأمول ان تكون رات هذه الظاهرة. وعليك أن تزورها فى المسرح يوم الاثنين وتعتذر لها اعتذارا صادقا عن مسلك ضيوفك الشائن .. قل لها انك لو علمت انهم سيتصرفون هـــذا التصرف المعيب لما دعوتها لكى تكون بينهم .. واعترف لهـــا بأنك ابتهجت حينما رأيتها ترحل فورا . وان هذا ما كنت تشير به عليها فى ذلك الوقت

ـ لكنى تابعتها .. وقد حاول خدمى أن يستوقفوا مركبتها ..

ـ هذا طبيعى .. لكى تقدم لها اعتذارك وتقرها على العودة .. اف لك يابكنجهام .. لا ابتكار عندك .. وتزعم انك كاتبمسرحى فقال الدوق مرتابا :

ـ وهل تحسب انها ستصدقنى ؟.

ـ هذا يتوقف على مقدرتك فى التمثيل .. وانت مشـــهور بالقدرة على التمثيل!

ـ وهل تحسب انى انجح ؟.

ـ فى البداية .. لكن يجب أن تتلو هذا خطوات أخرى . يجب أن تظهر أمامها فى صورة مختلفة .. فقد عرفتك خليعا أولا بالشهرة وثانيا بالتجربة .. وهذا ما يحملها على الحذر منك .. فاعمل اذن على أن ترى فيك بطلا .. أو بعبارة أخرى منقذا لها من كارثة .. انقذها من خطر داهم ، فتكسب حمدها واعجابها ببطولتك .. ان المرأة تعشق البطولة .. فلتكن بطلا اذن .. ومن يدرى أى طالع سعد يقترن ببطولتك .

فقال الدوق بكآبة وهو يحسب أن صديقه يسخر منه :

ـ وأين أجد هذا الخطر الداهم الذى أشرت اليه ؟.

ـ اذا انتظرت حتى تجد هذا الخطر ، فقد يطول انتظارك .. لا بد أن تعمل بنفسك على خلقه .. وقليل من الكيد والتدبير كفيل بأن يحقق لك ما تريد .

ـ هل تقترح شيئا معينا ؟. هل فى وسعك أن تحدد شيئا ؟

ـ أرجو ذلك .. بشيء من التفكير .

ـ اذن فكر بالله !.

ضحك اثريدج من تحمس مضيفه .. واترع لنفسه كاسا من

الشراب ارسل نظره من خلاله فى ضوء الشموع ثم احتساه وقال للدوق
ـ هذا هو الملهم . اسمع ما يلهمنى به ..
واعتدل فى جلسته ، وراح يفضى للدوق بتفاصيل الغزوة التى تفتق عنها ذهنه الشيطانى .

الفصل التاسع

منصب فى الهند

لم يترك نيدتاكر الكولونيل هولز يتخلص من تأثير الاغراء الذى بثه فى نفسه . بل زاره يوم الاحد فى غرفته بفندق بول لكى يزيل تردده ويحمله على الانضمام الى صفه وقبول رأيه . وقد وجده هذه المرة اقل مقاومة وادنى الى الاستسلام . فان الايام مرت تباعا وبرهن الدوق البيمارل على انه كما صوره نيدتاكر . ممطلا للوعود . وكان حسابه يتضخم فى الفندق . فيزيد يأسه ويشتد تشاؤمه .

على ان هولز لم يستسلم تماما لتاكر . ووقف موقفا وسطا بين الرفض والقبول . ولكنه لم يخيب ظن تاكر حينما وعد أن يزوره فى الغد مع صديق من ابناء الجمهورية . وفى الموعد المحدد جاءه تاكر مع هذا الصديق المدعو راثبورن وكان هولز يعرفه معرفة يسيرة .. وقرر الاثنان انهما جاءا مفوضين من شخصية لا يمكن أن يبوحا باسم صاحبها ولو فعلا لتغلبا على كل تردد من جانب هولز . وعرضا عليه باسم هذه الشخصية منصبا فى الحكومة الجديدة كان جديرا بأن يذهل مثله وهو المملق الذى أشفى على جافة اليأس والافلاس .. وقال راثبورن مبينا له دقة الخطة التى وضعت موضع التنفيذ :

ـ ان السماء فى صفنا ، فقد ارسلت هذا الوباء لكي يتدبر الناس فى أمر حكامهم الذين اختاروهم . واكتشف أعواننا أربع اصابات بالطاعون فى أحياء مختلفة حاول رجال الحكومة أن يخفوا أمرها عن الناس .. لكن خطباءنا يقومون الآن بمهمتهم خير قيام فى كشف الحقيقة وترويع الناس حتى يدفعوهم الى طريق الحق والصلاح .. والثورة على فجور الحكام .
وقال تاكر يؤيد صاحبه :
ـ ومن هذا ترى اننا اتممنا الاستعداد لكل شيء ، هذه هى الفرصة الوحيدة امامك يا راندال ، واذا تأخرت الان ..
فقطع عليه حديثه طرق على الباب .. فوثب تاكر منمكانه

مذعوراً ، وتلفت راثبورن حوله منزعجا ؛ فقال الكولونيل بهدوء حينما رأى خوفهما :
ـ لم تنزعجان ؟.. هذه صاحبة الفندق الطيبة ..
حملت مارتا كوين رسالة الى الكولونيل هولز .. وما كاد يرى الختم الكبير الذى يعلوها حتى سرى الى وجهه توردسير ، وأسرع بفضها وتلاوتها بين نظرات القلق التى ظهرت على وجوه المتآمرين وصاحبة الفندق معا ..
طالع هولز الرسالة مرتين .. فقد حدثت المعجزة ، حدثت في آخر لحظة وهو يوشك ان يتردى في هوة عميقة فيها هلاكه المحقق ، وكان نص الرسالة التى كتبها له الدوق البيمارل كمايلى:

« ان الحظ قد حالفك باقرب مما كنا نتوقع .. انى علمت من رسالة تلقيتها الان بان منصبا عسكريا قد خلا في الهند .. وهو منصب كبير هام جدير بمواهبك . وستكون فيما وراء البحار بمنجاة من التحقيق والاستقصاء .. واذا زرتنى اليوم فسأزودك بتفصيلات أوفي »
استأذن الكولونيل هولز صاحبيه لحظة .. وتناول قلما وورقة من دولاب جانبى وسطر بضع كلمات جوابا عن هذه الرسالة ..
وما كادت مارتا كوين تغادر الغرفة حاملة الرد الى الرسول المنتظر حتى انهال عليه المتآمران بالاسئلة والاستفسارات .. فبسط هولز الرسالة أمامهما . وسرعان ما انقض عليها تاكروراح يلتهمها بنظره وقد وقف راثبورن فوق رأسه .. وبعد ان الم الاثنان بفحواها وضعها تاكر فوق الخوان وقال فى سخط واستياء :
ـ ماذا كان جوابك ؟..
ـ قلت انى سأذهب الى سمو الدوق فى الموعد المحدد
فقال راثبورن
ـ ولكن ما الفائدة ؟.. لعلك غير جاد فى قبول منصب من حكومة على وشك السقوط !..
فهز هولز كتفيه واجاب :
ـ انى قررت لتاكر منذ البداية انى اخدم الحكومات ولا اساهم في اقامتها ..
فقال تاكر : ولكنك الان ..
ـ صحيح انى ترددت . لكن عاملا غير منتظر قد جد فى الحساب .

حاولا ان يثنياه عن قراره .. لكن عبثا حاولا . اذ قال لهما:
ـ اذا كنت ذا فائدة لحكومتكم بعد ان تقيموها فانتم تعرفون
اين تجدونني .. وقد رأيتم انه يمكنكم الوثوق بي .
ـ لكن فائدتك الحقيقية لنا هي في النضال القادم .. وهذا
ما يجعلنا على استعداد لمكافأتك بسخاء ..

على ان هولز لم يتزحزح عن رأيه . فان رسالة البيمارل
صرفته تماما عن المؤامرة والمتآمرين ..
وعند انصرافهما اكد لهما هولز ان سرهما سيكون معه في
حرز حريز . وانه سينسى كل شيء.. فخرج الاثنان مستاءين ..
لكن تاكر عاد اليه بعد قليل وقال له :
ـ ربما يتبين لك يا راندال بعد التفكير وامعان النظر انك
اخطأت في ربط حياتك بحكومة لن يكتب لها البقاء . وآثرت قبول
المركز السامي الذي نعرضه عليك على الرضاء بالفتات الذي
تصدق به عليك البيمارل . ولو كنت عاقلا سليم التفكير لفعلت
هذا . فاذا تم لك ذلك فانت تعرف اين تجدني .. وكن واثقا
اني سأرحب بك وأكون لك نعم النصير ..
وتصافح الاثنان وانصرف تاكر وهو يتنهد . بينما عاد هولز
الى غرفته وحشا غليونه وهو يستبعد حدوث هذا الذي اشار
اليه تاكر .
وفي نفس اليوم ذهب هولز الى البيمارل في قصره . فعلم منه
أن المنصب الذي سيتقلده هو منصب هام ذو مرتب كبير . وأن
هولز اذا قام بواجباته على خير وجه وهو ما لا يرتاب فيه
البيمارل ، فسيكون هذا المنصب مقدمة لخير كثير وترقيات
اكبر شأنا ثم قال البيمارل :
ـ ان الوسيلة الوحيدة لحجب ماضيك هي خدمة الحكومة
مدة من الزمن في اي مكان .. ومتى استدعيتك الى أرض الوطن
فيما بعد لكي اقلدك منصبا آخر في انجلترا وسئلت عن سابق
خدماتك ، فلن احتاج الى اكثر من التنويه بخدمتك في الهند ،
ولن يطمع أحد في اكثر من هذا . هو نفي موقوت . لكن ثق اني
سأعمل على تقصير أمره بكل ما في طاقتي.
لم يكن هولز يطمع في اكثر من هذا المنصب المغري . واعرب
للبيمارل عن عميق شكره .. فقال له هذا :
ـ اذا عدت الى في الغد . فستتسلم الامر الرسمي بتقليدك
هذا المنصب ..
انصرف الكولونيل مبتهج النفس منشرح الخاطر .. فقد

ابتسم له الحظ أخيرا بعد طول تجهم وعبوس .. وقد ابتسم له فى الوقت المناسب بعد أن بلغ منه اليأس منتهاه وأوشك أن يتورط فى مؤامرة خاسرة ..
وهكذا عاد الى الفندق وهو يكاد يطير فرحا .. وأمر ان يؤتى له بزجاجة من أفخر النبيذ .. وطالعت مارتاكوين انباء التوفيق على وجهه .. فقالت له :

ـ اذن لقد نجحت مساعيك فى هويتهول أخيرا ؟..
فاجاب هولز وقد استلقى في مقعد وثير وبسط ساقيه :
ـ نعم .. نجحت .. أكثر مما استحق ..
فاستفسرته في شيء من الحياء .. فافضى لها بما ناله . وسرعان ما ظهرت عليها دلائل الانقباض والكآبة . فتأثر هولز واستخلص من اسفها لفراقه انه وجد فيها صديقة له .. ثم سألته وقد احتبست انفاسها :
ـ ومتى تذهب ؟
ـ في ظرف اسبوع ؟
تأملته بحزن .. ثم قالت فى تؤدة :
ـ رباه ! هل تذهب الى الهند ! بين المتوحشين والاشرار . لابد انك جننت اذ قبلت هذه المغامرة !
ـ ان المفلسين غير مخيرين يا سيدتى . انى اذهب حيثما اجد عملا وفوق هذا فليس الامر داعيا الى التشاؤم كماتتصورين . تتصورين .
ـ لكن ماذا يضطرك الى الذهاب ، وقد قررت لك من قبل أن من كان مثلك جدير به أن يفكر فى الاستقرار وتكوين بيت واتخاذ زوجة !
رأت مارتا ان الوقت قد حان لكى تبدأ الهجوم . واذا لم تفعل الان افلتت منها الفرصة الى الابد . ولذلك استطردت دون ان تدع له سبيلا للجواب :
ـ انظر الى نفسك ! انظر الى حالتك ! ما اجدرك ان تبحث لك عن زوجة تعنى بحالك . لا ان تسلم نفسك الى الاغتراب وحياة الجندية الخشنة .
فقال ضاحكا :
ـ نصيحة بارعة .! لكن توجد صعوبة واحدة .. يجب لمن يختار زوجة ان يعولها .. ولو بقيت في انجلترا فلن أجد ما يكفى لكى اعول نفسى وحدها .. واذن فلا مفر لى من الهند اولا وآخرا .

دنت من الخوان .. وانحنت فوقه .. وواجهته قائلة :
ـ انك نسيت شيئا .. فهناك نساء كثيرات يملكن المـــــال الموفور ولاضير على الرجل الفقير ان يتزوج بواحدة منهن .
فقال هولز ضاحكا :
ـ انك قلت شيئا مثل هذا من قبل .. فمن رايك اذن أن أكون من صيادى الثروة !. وانت ترين انى اليق للقيــــــام بهذا الدور ؟.
فأجابت : نعم .. انت رجـل مستقيم .. ولك اسم ومركز تتقدم بهما .. وهناك نساء كثيرات من ذوات الغنى والحســب المتواضع على اتم استعداد لقبولك زوجا .. وكلاكما ســـيكمل نقص صاحبه .
ـ يا الهى .! انت تفكرين في كل شيء .. اذن فاوجدى هذه الزوجة اولا وأنا على استعداد لرفض منصب الهند .. لكن يجب ان تسرعى .. فان أمامى أسبوعا واحدا فقط ..
فاه هولز بهذه العبارة ضاحكا وهو معتقد انها ســتعجز عن التنفيذ لكنها فاجأته قائلة :
ـ اذا كنت جادا فانى امدك بهذه الزوجة .. وهى ســيدة لا بأس بجمالها ، فى مثل سنك ، تملك ثلاثين الفا من الجنيهات ، وبعض ممتلكات اخرى .
حدق فيها هولز لحظة .. ثم سالها :
ـ وترضى بالزواج من متشرد ؟. ماذا بعقلها ؟.
ـ لاشيء .. اذا كنت جادا فانى اقدمها لك.
ـ ثلاثين الف جنيه .! ومن لا يلزم اتم الجد ؟. في وسـعى أن أكون من الاعيان بمثل هذه الزوجة !.
ـ اذن ! لا تفعل ؟.
ـ لانه لا توجد هذه المراة
ـ واذا وجدت ؟..
ـ لكنها غير موجودة
ـ اؤكد لك انها موجودة
ـ اين هى اذن ؟.
فدارت مارتا كوين حول الخوان واتت الى جانبـــــه .. وأجابت :
ـ هى موجودة .. هنا ..
ـ هنا ؟.
زادت اقترابا منه ، وقالت برقة :

ـ هنا ، فى هذه الغرفة .
فتطلع اليها دون ان يفقه شيئا .. ولما رأى ابتسامة الحياء والارتباك التى لاحت على وجهها سطعت الحقيقة امام عينيه .
اضطرب الكولونيل.. ولم يدر ماذا يفعل .. ومالبث ان نهض من مكانه وقال متلعثما :

ـ أنا .. أنا لم أفكر فى .. فى المعنى الذى كنت تقصدين ..
وشجعها اضطرابه .. فدنت منه وهمست :
ـ والان وقد عرفت الحقيقة يا كولونيل ؟.

ـ أنا .. لا اعرف ماذا أقول .
ونشطت قواه العقلية للتفكير بعد الصدمة الاولى .. وفهم اخيرا سبب الرخاء والسخاء اللذين كان يتمتع بهما فى الفندق وهو الرجل المفلس المحتاج :
قالت له :
ـ اذن لاتقل شيئا ياكولونيل .. سوى انك ستطرح من ذهنك كل تفكير فى السفر الى الهند .
فقال كالغريق يتشبث بالقش :
ـ لكن .. لكنى اعطيت كلمتى .
فالتصقت به .. ووضعت يدها على كتفه قائلة :

ـ لكنك اعيطتها قبل ان تعرف هذه المسألة . وسيفهم صاحب السمو الدوق .. ولن يرغمك على قبول المنصب .
ما عليك الا ان تفسر له الموقف .
هتف فى صوت خافت :
ـ لا يمكننى..لا يمكننى..
ـ اذن يمكننى انا ..
ـ أنت ؟..
فقالت في عزم :

ـ نعم .. انا .. اذا كانت كلمتك هى الحائل الوحيد فانى استقل مركبة واقصد فورا الى هويتهول .. سيستقبلنى جورج مونك .. واذا لم يتيسر ذلك ، ستستقبلنى الدوقة زوجته ... انى اعرفها منذ أيام الشباب حينما كانت خياطة تكسب قوتها بعرق الجبين .. ولن تقفل بابها في وجه صديقة .. فاذا قبلت الان ففى وسعى ان احلك من الكلمة التى قلتها للدوق.
اشتد قلقه .. وقال وقد حول نظره عنها :
ـ لكن .. لكنى عشت حياة كلها التنقل والاضطراب حتى

اعتقد انى لن أستطيع الاستقرار .. وفوق ذلك يا سيدتى ؟
ماذا عندى لكى أقدم لك ؟.

ــ اذا كنت أنا قانعة بهذه الصفقة ، فلم تفكر في هذه المسائل ؟

ــ بل لابد ان افعل .. أنا رجل لا أملك ان احرك حب المرأة ولا تقديرها .. انارجل غير اهل للزواج.

ــ لكن ..

فرفع يده يستوقفها .. وقد رأى ان هذه هى الفرصة الوحيدة لوضع الامور في نصابها . فاستطرد :

ــ لا فائدة من المناقشة يا سيدتى .. انا اعرف نفسى .. والاسباب التى تحول دون قبولى الزواج هى كما بسطتها لك . وانا في الواقع شديد التأثر والشكر لهذا العطف والتقدير .. لكن الموضوع قد انتهى عند هذا الحد .

امتقع وجهها ازاء صلابته .. وقد هالها ان تطرح نفسها امام هذا المتسول فتفوز منه بالاعراض ولا تكفى آلافها الثلاثون لتجميلها في عينيه .. وأحست بمرارة قاتلة . واستحال عطفها عليه مقتا هائلا له . وأيقنت انه لن يروى هذا المقت سوى قتله واخماد انفاسه .

اخذت تتفرس في وجهه صامتة وقد راح صدرها يعلو ويهبط وكادت تجحظ عيناها .. بينماوقف امامها مضطربامحولا نظره عنها يتطلع من النافذة .. ولم يحاول ان يزيد شيئا على أقواله السالفة ..

واخيرا شهقت شهقة عميقة وقالت بهدوء :

ــ انا آسفة لانى ..

اخذته الشفقة عليها .. وقاطعها قائلا :

ــ ارجوك ..

لكنها سارت الى الباب في خطوات متثاقلة وفتحته .. ثم وقفت وادارت اليه رأسها قائلة :

ــ بالنظر الى تطور الموقف على هذا النحو ، فربما ترى من الملائم ان تبحث لك عن مكان آخر غير هذا ، غدا ، لا أكثر ..

اومأ برأسه قبولا .. وهم بالكلام .. لكن الباب اغلق في وجهه بصوت عنيف قاصف .. وبقى وحده فى الغرفة .

وتهالك في مقعده ثانية وهو يتنفس الصعداء كمن ازيح عن صدره جبل .. ولمس جبينه بيده .. فاذا هو مغطى بالعرق ..

الفصل العاشر

بين الدوقين

نهض الكولونيل هولز* مبكرا في صباح اليوم التالي ونثر كيس نقوده فوق فراشه . فاذا كل ثروته من الدنيا لاتعدو خمسة وثلاثين جنيها وبضعة شلنات .. ولما كان الدوق البيمارل قد وعده أن يتسلم اليوم اذنا بمبلغ ثلاثين جنيها لكى ينفق منه في تزويد نفسه بالملابس الرسمية اللازمة ، ولانه كان يخشي ان يظهر امام الدوق ورجال حاشيته وهو المرشح للوظيفة الممتازة بمظهر الفقير المدقع فيخجل الدوق ويعمل على احراجه . فقد قرر الكولونيل ازاء هذه الاعتبارات جميعا ان يبادر الان بشراء ملابس جديدة كاملة حتى يظهر بالمظهر اللائق . ولذلك غادر الفندق عقب تناول طعام الافطار .. وقصد الى حوانيت الازياء حيث تزود (بطقم) كامل من الملابس الانيقة الفاخرة . ولما عاد الى الفندق لارتدائها لم يبق في كيس نقوده سوى نيف وثمانية جنيهات . على انه لم يكترث بهذا واطمأن الى انه لن تمضي ساعات قلائل حتى يستعيد ما أنفقه .

ارتدى الكولونيل هولز ملابسه الجديدة .. ولما تطلع الى نفسه في المرآة كاد ينكر شخصه . وابتسم مترحما على ذكرى هولز الرث الملابس الزرى الهيئة الذى كانه فيما مضى . واحس بانه لم يكد يجاوز الثلاثين .

ولما نزل الى الطابق الارضى في الفندق احدث منظره ضجة ودهشة لفرط أناقته وجدته واذ كان من غير اللائق أن يذهب الى هويتهول سائرا ، فقد أمر احد الخدم باستدعاء مركبة لنقله الى مهبط آماله وأحلامه .

كانت الساعة قد آذنت بالحادية عشرة . ورأى الكولونيل هولز ان هذا موعد مناسب لزيارة الدوق البيمارل . لكن كان هناك شخص اشد منه تبكيرا . هو الدوق بكنجهام الذى قصد برفقة صديقه السير هارى ستانهوب لزيارة الدوق البيمارل قبل خروج الكولونيل هولز من الفندق بساعة .

ادخل الدوق بكنجهام وصاحبه الى غرفة البيمارل في الحال . وبرغم ما كان بين اخلاق الدوقين وطباعهما من تنافر وتباين كبيرين ، اذ كان البيمارل مثال الجد والصرامة ، وبكنجهام حليف اللهو والخلاعة ، فان البيمارل لم يكن يدقق كثيرا في مسائل الفضائل . ولم يكن من طبعه أن يثير عداوة الناس له ،

وكان كل همه ان يكثر حوله من الاصحاب والاولياء . ولـذلك استقبل بكنجهام بالحفاوة والترحيب اللائقين .

قال بكنجهام يكشف عن غرضه من هذه الزيارة :

ـ انى استأذن سموكم في تقديم سير هارى ستانهوب صديقى الحميم .. وهو جندى شاب ذو مواهب طيبة ، وانى الح فى أن يظفر بخدمتكم .

كان البيمارل قد سمع ان السير هارى ستانهوب من أشد الشبان خلاعة ومجونا . ولما رآه الآن ألفى منظره مطابقا لسمعته . وأدهشه ان يرى بكنجهام ينعته بصفات الجندية التى كان يعرف انه لاينتمى اليها في كثير ولا قليل . على انه لم يعرب عن شعوره من هذه الناحية . واحنى رأسه ببرود ردا لتحية سير هارى ، وقال بفتور :

ـ لا حاجة الى الالحاح في طلب خدماتى لاصدقائك يا فخامة الدوق وبعد أن استقر بهم المقام جميعا استطرد البيمارل :

ـ هل لسموكم ان تبينوا لى كيف استطيع أن اسدى بعض الخدمات ؟!

استلقى بكنجهام فى مقعده الى الخلف .. ووضع احـدى ساقيه فوق الاخرى قائلا :

ـ ان السير هارى يرغب لأسباب خاصة فى أن يرى العالم .

لم يكن البيمارل يعرف ماهية هذه الاسباب . لكنه كان يعلم ان السير هارى ستانهوب قد أضاع الثروة الطائلة التى ورثها منذ ثلاثة اعوام .. وانه أصبـح غارقا فى الديون حتى قمـة رأسه .. واذا لم يخف لنجدته احد اصدقائه فسـيحاصره الدائنون ويضيقون عليه الخناق ، وقد ينتهى به المصـير الى السجن .

واستأنف بكنجهام حديثه بعد صمت يسير :

ـ لكن السير هارى يرغب رغبة صادقة فى ان يكون غيابه عن انجلترا مقترنا بخدمة جلالة الملك .

فلم يطق البيمارل هذه المناورات ، ولذا تولى بنفسه الاعراب عن غاية زائريه بعبارة صريحة :

ـ السير هارى بعبارة موجزة يروم منصبا فيما وراء البحار .

فقال بكنجهام :

ـ هذا هو الموقف بايجاز .. واعتقد ان السير هارى سيكون جديرا بتقديركم .

تطلع البيمارل الى السير هارى .. فالفاه ابعد ما يكون عن

استحقاق هذا التقدير .. ولم يتمالك رغم تسامحه ان أحس في نفسه بازدراء لهذا الماجن الخليع الذى يريد ان يستعين بنفوذه لكي يخدع دائنيه ويفلت منهم .. على انه قال له :
ـ وما نوع هذاالمنصب ؟
ـ ان منصبا عسكريا قد يطابق ميول السير هارىواستعداده فان له بعض الخبرة فى الفنون العسكرية .. وقد خدم وقتا ما فى الحرس الملكى ..
فقال البيمارل :
ـ لا بأس .. ساضع نصب عينى توصيات سموكم بشأن السير هارى .. ومتى وجد منصب لائق ..
فقاطعه بكنجهام بفتور :
ـ لكنه موجود في الوقت الحالى
فقال البيمارل :
ـ أحقا ؟. لست اعرف هذا ؟.
ـ يوجد منصب في بومباى خلا بوفاة (ماكارتنى) المسكين وقد علمت بامره في البلاط في الليلة الماضية .. ولعلك قد نسيته كما أظن .. وهو منصب يليق تمام اللياقة للسير هارى .
عبس البيمارل .. وأخلد الى التفكير قليلا ثم هز رأسه برفق وقال :
ـ من واجبى ايضا يا صاحب السمو ان انظر في لياقةالسير هارى لهذا المنصب . ولا يسعنى الا ان اقرر بكل خضوع انى لا اشاطركم هذا الرأى ..
بوغت بكنجهام بهذا الكلام .. وحدق فى البيمارل بأنفة وقال :
ـ لا احسبنى فهمت قصدك .
فتنهد البيمارل وقال :
ـ يجب لمن يتقلد هذا المنصب ، وهو من المناصب الكبيرةذات المسؤولية الجسيمة ، ان يكون جنديا موفور الخبرة كامل الخلق .
ولاريب ان السير هارى يتمتع بمزايا وصفات بارزة . لكن يستحيل ان يظفر في سنه الحالية بالخبرة التى يعجز بدونها عن الاضطلاع باعباء الواجبات الخطيرة التى تنتظره .. وليس هذا وحده هو الحائل الوحيد يا صاحب السمو .. فانى قد اخترت الرجل الذى توفرت له الصفات المنشودة ، وقد قبل ان يسند اليه هذا المنصب . ولذلك لا يمكن ان يعد المنصب المذكور شاغرا .
ـ لكن جلالة الملك قد وقع امس فقط المرسوم الملكى بشغل هذا المنصب على بياض .

ـ صحيح .. لكنى برغم ذلك لااستطيع ان اتحلل من وعدى. وأنا اتوقع الآن بين وقت وآخر زيارة الشخص الذى اسند اليه هذا المنصب .

لم يخف بكنجهام استياءه . وقال :

ـ وهل يسوغ لى ان اعرف اسمه ؟

تردد البيمارل .. فقد أدرك مبلغ الخطر الذى يستهدف له الكولونيل هولز اذا هو ذكر اسمه للدوق بكنجهام الذى قد لا يتورع عن التخلص منه بأى ثمن .. وكان في ماضى هولز واسمه اكبر عون في هذا الشأن . ولذا قال البيمارل :

ـ لن تعرف اسمه ياصاحب السمو! لانه جندى مغمور الى حد ما وان كانت مواهبه مع ذلك معروفة لى تماما ، وأنا مقتنع بأنه لا يوجد من يفضله لملء هذا المنصب ، لكن مناصب أخرى ستخلو بلا ريب فى المستقبل ، وعندئذ ..

فقاطعه بكنجهام بأنفة :

ـ ليست المسألة مسألة مناصب تخلو .. لكنها مسألة هذا المنصب بالذات .. انى قد حصلت على موافقة صاحب الجلالة الملك ، وما جئت الى هنا الا باشارة جلالته ، ومن حسن الحظ أن الذى اخترته لهذا المنصب شخص مغمور، وسيضطر للاذعان أخيرا، وفى وسعك أن تعلله بالتعيين فى أول منصب يخلو ، واذا كنتم سموكم فى حاجة الى تعليمات أقطع وأجلى فانه يسرنى أن أستصدر لكم من جلالة الملك أمرا كتابيا ..

غلب الدوق البيمارل على أمره .. وجلس فى مكانه متجهم الوجه جامدا كأنه قطعة من جماد ، لكن صدره كان يغلى غضبا ، فقد رأى المناصب الكبيرة التى كان يجب أن توكل الى المفكرين وذوى العزم من أبناء انجلترا لكى يحسنوا خدمتها ، رأى هذه المناصب تغدق بغير حساب على الاذناب والمتطفلين ممن يحفون حول بلاط الملك شارل ، وأغضبه أكثر من هذا انه كان مغلول اليدين عاجزا عن المقاومة بسبب شخصية الكولونيل هولز الذى اختاره لهذه الوظيفة ، ولو كان الامر متعلقا بشخص آخر غير شخص الكولونيل وماضيه ، لما تردد البيمارل فى الذهاب من فوره الى الملك شارل واقناعه برفض مطلب الدوق بكنجهام ، لكنه كان يعلم انه اذا قام بهذه الخطوة فسيقضى على هولز قضاء مبرما ، وقد يعرض نفسه لسخط الملك الذى سيغضب ولا ريب حينما يعلم انه يدافع عن شخص عرف بنزعاته الجمهورية واتهم والده بقتل الملك السابق ..

غض البيمارل نظره .. فرأى أمامه فوق المنضدة المرسوم الخاص بالتعيين فى المنصب المشار اليه وقد ترك فيه فراغ كاف

لتحرير اسم صاحبه ، ولما أيقن انه هزم وانه خير له وللكولونيل هولز نفسه أن يذعن لاملاء الموقف الحالى ، لم يسعه الا أن يغمس القلم فى المداد ويتناول المرسوم قائلا :

ـ ما دمت مزودا بأمر صاحب الجلالة، فلا سبيل الى الاعتراض بالطبع ..

سطر البيمارل إسم السير هارى ستانهوب فى المرسوم بمرارة وألم ثم قدمه الى بكنجهام دون أن ينبس بكلمة وهو يشعر بالغم والانقباض .

ونهض بكنجهام باسما .. ووثب السير هارى ستانهوب باسما كذلك .. ولاول مرة منذ بدء الحديث فتح فمه للكلام ، فقال وهو ينحنى ويتظرف :

ـ انى خادم سموكم المخلص . وسأبذل كل جهدى فى أن أكون أهلا لهذا المنصب ..

وقام البيمارل من مكانه متباطئا ، وانحنى كلاهما أمامه تحية الاستئذان والوداع وانصرفا على الاثر ..

ثم تهالك فى مقعده متثاقلا واعتمد رأسه بين كفيه وأخذ يسب ويلعن ..

وبعد ساعة جاء الكولونيل هولز مشرق الوجه محلقا فى سماء الآمال .. فجوبه بالحقيقة المؤلمة التى حطمت نفسه وهوت به الى الحضيض .. واذا هو يرى نفسه مرة أخرى سخرية الحظ والعوبة الاقدار ...

على انه احتمل هذه الصدمة متجلدا فى الظاهر على الاقل ، وان كانت قد حزت فى نفسه ومزقت قلبه .. وقال له البيمارل منفعلا لاول مرة :

ـ انى أردت لهذا المنصب رجلا .. وقد اضطرونى لخلعه على مخنث خليع !.

وحاول البيمارل أن يعلله بالآمال ويمنيه بمنصب آخر يخلو قريبا فقال هولز بمرارة :

ـ نعم . .لكى ينتزعه مرة أخرى ماجن مثقل بالديون حتى يفلت من دائنيه .

فقال البيمارل وهو يتفرس فى وجهه بحزن :

ـ اعرف يا راندال انك متألم لهذه الصدمة .

فتغلب الكولونيل على نفسه واغتصب ضحكة وقال :

ـ ان حياتى كانت كلها صدمات متصلة ..

فقال البيمارل :

ـ انى أعرف هذا .

وراح البيمارل يذرع الغرفة جيئة وذهابا وقد أطرق برأسه .. ثم وقف أمام الكولونيل قائلا :

ـ أرجو أن تعرفني بمحل اقامتك باستمرار .. وانتظر أن تصلك أنباء مني قريبا .. ولتثق بأني سأبذل غاية جهدي .

فأضرم هذا الوعد جذوة الامل الخامد في نفس الكولونيل ، فقال :

ـ هل ترى حقا ان منصبا آخر سيخلو في المستقبل ؟..

فتوقف الدوق قليلا عن الجواب .. ثم قال في كآبة :

ـ أصارحك يا راندال اني لا أكاد ارى ذلك .! ان الفرص لمثلك كما تعلم ليست .. دائمة .. لكن قد يجد ما ليس في الحسبان .. واذا حدث هذا فكن واثقا اني لن أنساك .

أعرب له الكولونيل عن شكره .. ونهض للانصراف وقد شاعت في هيئته آيات اليأس والقهر .. فجعل البيمارل يراقبه مليا . ولما وصل الى الباب استوقفه قائلا :

ـ راندال .. انتظر لحظة .

دار الكولونيل على عقبيه ووقف في مكانه منتظرا .. بينما تقدم منه الدوق متباطئا وقد استغرقه التفكير . وتردد قليلا . ثم قال أخيرا :

ـ لعلك .. لعلك في غير حاجة ملحة الى مال ؟..

أقر الكولونيل وهو يضحك في حياء بحاجته .. فتأمله الدوق لحظة ثم أخرج من جيبه ببطء كيسا به نقود يسيرة . وقال وهو يفتحه :

ـ اذا كان قرض يسير يساعدك حتى ...

ثارت كبرياء الكولونيل ازاء ما عده احسانا .. فهتف :

ـ لا !. لا !.

لم يكن هذا الرفض بحرارة . لكن البيمارل لم يبذل ادنى محاولة للتغلب عليه . ولم يبذل الحاحا آخر ، بل أعاد الكيس الى جيبه وهو لا يخلو من الارتياح .

الفصل الحادى عشر

امرأة حاقـــدة

عاد الكولونيل هولز الى لندن على قدميه . فان مركبة كتلك التي قصد بها الى هويتهول لم تعد له .

اغلقت جميع الابواب في وجهه . ولم يبق امامه لكي لا يموت جوعا الا أن ينضم الى صفوف تاكر وراثبورن . يساهم في تحقيق الثورة التي يتآمرون للقيام بها .

وفيما هو يسير مستغرقا فى تأملاته أيقظه صوت خشن آمر يقول هذه الكلمات :

ـ ابعد يا حضرة !

كان الكولونيل قد وصل الى حي (سانت كليمنت دين) وسرعان ما وقف فى مكانه وتلفت الى يمينه حيث صدر هذا الصوت الآمر .. فرأى رجلا ممسكا بحربة واقفا امام باب موصد بالقفل يعلوه صليب أحمر وقد خطت أعلاه هذه العبارة بحروف غليظة بنفس اللون : « ليرحمنا الله »* .

بوغت الكولونيل بهذا المشهد وانتفض كانما لمس شيئا مروعا .. وابتعد مسرعا الى وسط الطريق ووقف قليلا يتطلع الى البيت الموبوء المغلق الباب والنوافذ . فقد كان أول بيت شاهده من هذا القبيل .. ورأى بعينه كيف ينتشر الطاعون بسرعة ويزحف على لندن .. وتابع طريقه مسرعا وهو يفكر فى هذه الاداة الفعالة التى سيتخذ منها الثائرون المتآمرون وسيلة لبث مبادئهم الثورية وتحقيق أغراضهم .. وطال به التفكير فى هذا الشأن حتى مال بدوره الى اعتناق الرأى القائل بأن هذا الوباء هو نذير من السماء ولعنة من الله على مدينة استغرق قادتها فى اللذائذ وفنوا فى الدنيويات . وأن السماء فى جانب هؤلاء الذين يقومون بعملية الانقاذ والتطهير من هذا الفساد . وحزم أمره أخيرا واعتزم أن يبحث هذه الليلة عن تاكر لكى ينضم الى صفوف الجمهوريين .

ولما وصل الى كنيسة بول بالشارع الذى يقع فيه فندقه رأى جمهرة من العامة ملتفة حول الخطيب الناعق الذى شاهده من قبل يحذرهم من الطاعون وينذرهم بالويل والثبور وعظائم الامور لما هم فيه من غفلة وضلال ...

على انه قد انضم الى الجمهور هذه المرة فريق من الصبية والفتيان الاشقياء الذين راحوا يقابلونه بالسخرية والاستهزاء .. فصاح فيهم الخطيب بصوته الخشن الداوى :

ـ توبوا ايها اللاهون الضاحكون !. فكروا فى موقفكم .. ستهلك لندن كلها بعد أربعين يوما .. ان الطاعون يحاصر هذه المدينة الضالة العاصية .. هو يدور حولكم كالاسد الغاضب ، يبحث عن مقتل فيكم !! أربعون يوما فقط .. و ...

وطارت بيضة من يد صبى قصاب الى وجه الخطيب لكى تقصر مدة الهلاك .. فترنح فى مكانه وأخذ يلهث .. بينما سالت البيضة المهشمة فوق لحيته وأخذت تتساقط فوق صدره ..

صرخ الخطيب وهو يلوح بذراعيه جنونا :

ـ يا كلاب !.. يا خنازير !.. هلاككم أقرب من حبل الوريد !..

وضاع صوت الخطيب في عاصفة الضحك العنيف الذى أثاره مشهده .. وانهالت عليه المقذوفات من كل جانب . وكان آخرها قط أنشب مخالبه فى صدره وراح يموء بصوت مخيف لفـــرط فزعه ...

ولما عجز الخطيب عن الاحتمال فر من أمام الجمهور والتجأ الى داخل الكنيسة مشيعا بالضحك والاهانات .. على أنه ما كاد يختفى حتى انقطع ضحك الجمهور فجأة ، وأعقبه سكون كسكون الموت .. ثم تفرق أفراده وأخذوا يتراكضون من كل ناحية وهم يصيحون صيحات الفزع والارتياع ..

ألفى الـكولونيل هولز نفسه وحيدا .. ولم يدر سببا لهذا التفرق الفجائى . فتقدم خطوات الى البقعة التى أخلاها الجمهور الهارب أمام درجات الكنيسة .. وهناك وقع نظره على شـــاب قوى البنية ممددا فوق الارض يتلوى ألما .. وفيما كان يدنو منه صاح فيه واحد من أفراد الجمهور الهارب :

ـ احترس !.. احترس !.. هو مصاب بالطاعون !..

جمد الكولونيل فى مكانه مروعا ثم رأى رجلا متقدما فى الســن مرتديا ملابس سوداء يتقدم الى ناحية المصروع ، حتى اذا شارفه ألقى عليه نظرة ، ثم أدار رأسه وأشار الى رجلين يحمل كل منهمـا حربة ان يتبعاه ...

وأخرج من جيبه قنينة صب منها سائلا فى منـديل وأدناه من أنفه . وركع على الأرض بجانب المصروع وأخذ يفك أزرار ســترته بهدوء .

أعجب الكولونيل بشجاعة هذا الرجل .. وخجل من خوفه.. فتقدم الى الامام بعزم وانضم الى هذا الجمع الصغير ..

أدار الطبيب رأسه وتطلع الى الكولونيل هولز عند اقترابه .. لكن الكولونيل كان ينظر فى هذه اللحظـة الى المريض الذى كشف عن صدره .. وما لبث أن أشار أحــد الرجلين حاملى الطبيب الحربة الى بقعة حمراء أسفل حلق المريض ، وقال لزميله بصوت مختنق أجش :

ـ انظر !.. الاعراض !..

وفى هذه اللحظة خاطب الطبيب هولز قائلا :

ـ يحسن بك يا سيدى ألا تدنو أكثر من هذا ..

فقال هولز بهدوء :

ـ هل هو .. الطاعون ؟..

أومأ الطبيب برأسه ايجــابا .. وقال وهو يشير الى البقعــة الحمراء :

ـ الاعراض ظاهرة .. أرجو يا سيدى أن تذهب ..
ثم دس أنفه وفمه فى المنديل مرة ثانية وعاد الى الاشراف على المريض ..
ابتعد هولز طوعا لهذا النصح .. ولما دنا من أفراد الجمهور المتخلف الذى وقف برغم ذعره فضولا واستطلاعا كما هو شأن الجماهير دائما ، رأى الناس يبتعدون عنه منكمشين كأنما أصابه الوباء بدوره ..
سار هولز يفكر فى هذا الحادث الذى يخدم أغراض الجمهوريين ببلاغته وتأثيره أجل من خدمات أبلغ الخطباء ، واذا كان قد بقى فى نفسه شىء من التردد للانضمام الى تاكر فان هذا الحادث قد أزال تردده وزاده تصميما ..
كان حر مايو يخنق الانفاس .. وقصد هولز الى فندق بول لكى يطفىء حرارة ظمأه ويسوى حسابه مع مارتاكوين ، ولما دخل الفندق ألفاها فى الغرفة العامة تتحدث مع بعض الناس ، وحينما وقع نظرها عليه كفت عن الحديث وتطلعت اليه وهو يتقدم الى غرفته الخاصة وقد أطبقت شفتيها ..
لحقت به الى الغرفة وهو يفك أزرار سترته .. فحياها ببشاشة كأنه لم يحدث بينهما شىء ، لكنها قالت له بجفاء :
ـ ماذا تطلب يا كولونيل ؟..
فأجابها :
ـ كأس من الشراب اذا كنت أهلا لاحسانك .. ان حلقى جاف كالصحراء !.. أف لهذا الحر !..

وتهالك فوق مقعد قرب النافذة لاستنشاق الهواء ..
ذهبت صامتة وعادت بعد قليل حاملة اناء الشراب ، فوضعته فوق الخوان .. وما كادت تفعل حتى انقض عليه الكولونيل وأهوى عليه بفمه وشرب حتى ارتوى .. بينما وقفت مارتا كوين تراقبه فى سكون فلما وضع الاناء قالت له :
ـ لعلك رسمت خطتك لمغادرة فندقى هذا اليوم ، كما اتفقنا بالامس ؟.
أومأ برأسه ايجابا ، وقال لها :
ـ سأنتقل الى فندق (العصفور) بعد ظهر اليوم .
فقالت فى رنة الازدراء ، اذ كان الفندق المذكور من الفنادق الحقيرة :
ـ فندق (العصفور) .! لا بأس به .! هو ينسجم مع ملابسك الجديدة .! لكن هذا لا يعنينى .. فكل ما يهمنى هو أن تذهب .
كانت لهجتها تشف عن الوعيد .. ومالت الى الامام واستندت

الى الخوان .. ولم يبق عنده شك فى أن هذه المرأة التى عاملتــــه بمنتهى الترفق فى الماضى قد انقلبت الآن حربا عليه واستحالت عدوا له .. وقالت :

ـ ان فندقى محترم السمعة .. وفى نيتى ان احافظ على هذه السمعة لا أريد خونة فيه ولا طريدى المشنقة .

كان الكولونيل يهم بالشرب ثانية .. لكن كلماتها اوقفت الاناء فى منتصف المسافة بين يديه وفمه .. وردد كلماتها متباطئا :

ـ خائن .! طريد المشـــــنقة .! لا اظن انى فهمت قصـــدك يا سيدة ؟. هل توجهين الي هذه الكلمات .؟ الي انا ؟.

فقالت فى رباطة جأش :

ـ اليك يا سيدى .

حدق فيها عابسا .. ثم هز كتفيه ضاحكا وقال :

ـ انت مجنونة

واتى على ما بقى فى الاناء من الشراب .. فقالت له :

ـ لا .. لست مجنونة ، ولا بلهاء يا حضرة الثــــــائر .! ان الانسان يعرف بأصحابه ، والطيور على أشكالها تقع كما يقول المثل .. وهل يمكن الا أن تكون خائنا وانت تصاحب الخونة ، وتتصل بهم هنا فى دارى كما رأيت بعينى ، وكما فى وسعى أن اشهد بذلك، لو انى اردت بك شرا على انى سأوفر عليك ذلك .. لكن عليك أن تغادر فندقى اليوم . والا قد أغير رأيي .

ألقى الكولونيل هولز الاناء فوق الخوان .. ونهض على قدميه وصاح قائلا :

ـ كفى يا امرأة !.. هل لك أن تخبرينى ماذا تقصدين ؟.. ومن هم الخونة الذين صاحبتهم ؟..

فأجابت ساخرة :

ـ ما رأيك فى صاحبك دانفرس ، الذى يقبض عليــــه رجال البوليس فى الوقت الحالي ؟..

ـ صاحبى دانفرس ؟.. ليس لى صاحب بهذا الاسم .. بل لم اسمع بهذا الاسم من قبل ...

ـ أحقا ؟. ولعلك أيضا لم تسمع باسمي مســــــاعديه تاكر وراثبورن اللذين كانا معك هنا بالامس فقط ؟.. وماذا كانا يعملان معك ؟.. وما هى صلتك بهما ؟.. عليك أن تفسر هذه المسائل لرجال البوليس . سيسألونك عن أسباب اتصالك بهذين الخائنين اللذين قبض عليهما فى صباح اليوم مع كثيرين غيرهما بتهمة التآمر لاعادة الجمهورية . آه . يالها من مؤامرة شريرة .. لاغتيـــــال الملك .. واحراق المدينة ..

احس الكولونيل هولز كأنما تلقى ضربة بين عينيه .. فاستولى عليه الفزع .. وتدلى فكه .. وقال لاهثا :
ـ قبض عليهما !. تقولين ان تاكر وراثبورن قبض عليهما !.. ما أنت الا امرأة مجنونة مخرفة !.
على انه كان فى ضميره مقتنعا بصدق اقوالها . فكيف تسنى لها الوقوف على نبأ التآمر الا اذا كانت قصتها حقيقية ..
ضحكت المرأة ثانية وقالت متهكمة :
ـ هل انا مجنونة حقا ؟.. اخرج الى الشارع وسل أول رجل تصادفه عن اعتقال صاحبيك قبيل الظهر فى حى (تشيبسيد) ، وعن المطاردة الحامية التى يقوم بها رجال البوليس فى الوقت الحالى للبحث عن دانفرس زعيم المتآمرين،وعن غيره ممن اشتركوا فى هذه المؤامرة الشريرة !. انا لا اريد ان يأتوا الى هنا للبحث والتفتيش .. لا أريد ان يضم بيتى الى قائمة اسماء الاماكن التى كان المتآمرون يتلاقون فيها وقد جعلت بيتى واحدا منها ، منتهزا فرصة كونى بغير رجل يحمينى ، وكنت فى اثناء ذلك تخدعنى بالكلام المعسول .! ولولا انى أحب ان احتفظ لفندقى بسمعته الطيبة لذهبت الى رجال العدالة وابلغتهم أمرك وهذا وحده هو سر سكوتى .. فعليك ان تذهب اليوم . والا كان لى رأى آخر .
وحملت الاناء الفارغ واتجهت الى الباب قبل ان يجد كلاما يقوله .. على انها وقفت فى مدخل الغرفة قائلة :
ـ ساجيئك بحسابك فى الحال . ومتى سويته فلك ان تحزم امتعتك وتذهب فى الحال .
وخرجت واغلقت الباب خلفها بصوت مسموع
ومع أن الحساب الذى هددته باحضاره كان ولاريب ثقيلا فانه هان الان فى نظره بالقياس الى الخطر المروع الذى بات يهدده . خطر السجن والمشنقة .. ولا يهم انه اشترك فى هذه المؤامرة بقلبه فقط .. فان رجال العدالة متى علموا باتصاله بتاكر وراثبورن فلن يبدوا اقل رحمة لنجل راندال هولز قاتل الملوك .. ولاريب ان مولده وسوابقه ستكون اكبر شاهد عليه .
لم يخامره اقل شك فى هذه الحقيقة..على ان مسألة الحساب اذا كانت أقل خطرا فانها قريبة عاجلة .. ولذلك استغرقت تفكيره فى هذه اللحظة .
كان يعرف ثقل هذا الحساب وتضخمه .. وان ما معه من النقود لايفى بسداد بعضه ، وكان واثقا تمام الوثوق بأن مارتا كوين لن ترحمه اقل رحمة .. ولذلك اخذ يقدح زناد فكره استنباطا للوسائل التى يستطيع ان يتخلص بها من هذا المأزق .

لعن تبذيره فى الصباح.. ولم يسعه الا ان يجمع ملابسه الجديدة فى ربطة واحدة وان يقصد الى الحانوت الذى ابتاعها منه. وهناك جابهته حقيقة مؤلمة .. وعرف مبلغ الفارق بين الشراء والبيع .. وقدم له مبلغ عشرة جنيهات فقط لشراء الملابس التى ابتاعها فى الصباح بثلاثين جنيها .. ومع انه انهال على صاحب الحانوت بالسباب وتوعده ، فانه لم تلن له قناة.. وما كان السباب والتهديد يجدى من مثله شيئا .. ولذلك قبل الكولونيل هذا المبلغ مكرها ..

ولما عاد الى الفندق وجد مارتا كوين تنتظره بقائمة الحساب .. وماكاد يطلع عليها حتى كاد يغمى عليه .. فقد كانت هذه الضربة اوجع وآلم الضربات التى تلقاها فى هذا اليوم المشئوم. وجعل يدرس مفردات الحساب متجلدا حتى لا تخونه شجاعته امام نظر مارتاكوين التى كانت تراقبه عن كثب وتتفرس فى وجهة مطبقة الشفتين .

كان مجموع المبالغ المطلوبة منه تجاوز عشرين جنيها . ومع انه كان يتوقع حسابا ثقيلا فانه لم يكن يقدر انه سيبلغ هذا الحد .. وخيل اليه ان مارتا كوين قد ضمنت هذا الحساب ثمن الاهانة التى تلقتها منه حينما رفض الاقتران بها ، وراح يفكر فيما اذا لم يكن منفذه الوحيد من هذا المأزق هو قبول هذا الزواج ! هذا اذا كانت مارتا ترضى به الان زوجا ..

رفع اليها عينين غائرتين .. وقال :

ـ هذا حساب ثقيل جدا .!

ـ نعم .. انك اكلت وشربت كثيرا .. وتمتعت بضيافة طيبة .. وارجو ان تجد مثلها فى فندق (العصفور) .

فقال الكولونيل :

ـ سأكون صريحا معك يامدام كوين. ان الظروف قدعاكستنى وقد تخلى عنى سمو الدوق البيمارل الذى كنت أعول عليه .. وانا فى الوقت الحالى .. فى ضائقة .. وليس لى اقل مورد .

ـ ان هذا لم يمنعك ان تأكل وتشرب من احسن ما فى فندقى .. هذا كلام سمعته من اشقياء كثيرين قبلك .

فصاح هولز متوعدا :

ـ مدام كوين ..!

لكنها لم تخف منه .. واستمرت فى حديثها وقد حلا لها ان توجه ضربة الى كبرياء الرجل الذى حطم كبرياءها .. فقالت :

ـ وهناك وسائل كثيرة لمعاملة الاشقياء . اذا توقفت عن الدفع فسأدعوا رجال البوليس فى الحال .. وربما تطورت المسألة الى

اكثر من موضوع الحساب . ولعلك تعرف قصدى .. ولذلك انصح لك ان تدفع الحساب بغير تذمر ولا بكاء ..

لم يجد هولز ان يستسلم للغضب .. ولو فعل لكان فى هذا هلاكه . ولذلك كظم غيظه وقال :

ـ يا مدام كوين .. انى بعت ملابسى لسداد دينى لك . لكن هذا الدين ما يزال اكثر مما املك .

فقالت ضاحكة :

ـ بعت الملابس الجميلة التى اردت ان تبهر بها الانظار فى (هويتهول) ! أتقول حقا ؟. لكنك لم تبع كل شيء . مازالت معك هذه الياقوتة المدلاة من اذنك .. وهى وحدها تكفى لسداد الحساب مرتين .

انتفض الكولونيل .. ووضع يده على تلك الماسة التى اخذها تذكارا من ذلك الفتى الملكى المجهول الذى انقذه من الموت فى معركة (ورشستر) منذ خمسة عشر عاما . ومهما كان يعلق عليها من الآمال وينفر من بيعها . فلم يسعه الا ان ينزل على حكم الامر الواقع . ولذلك احنى راسه قائلا :

ـ انى نسيتها ..

ـ نسيت !.. لاباس .. هانذا اذكرتك بها ..

ـ شكرا لك .. سابيعها فى الحال .. وستنالين حسابك اليوم ..

وخرج من الفندق باحثا عن يهودى لكى يبيعه الياقوتة ويوفى دينه لهذه المرأة الحاقدة ..

الفصل الثانى عشر

بطولة زائفة

كانت الآنسة سيلفيا فاركارسون تقيم فى مسكن فخم فى ميدان (سالسبورى) ، مواجه لمسكن الممثل بيترتون ، وفى صباح اليوم الذى خابت فيه مساعى الكولونيل هولز عند الدوق البيمارل رغبت الآنسة فاركارسون فى ابتياع بعض الملابس التى قيل لها انها توجد فى حى (تشيبسيد) ، ولذلك استقلت المقعد المغطى وأمرت تابعيها ان يحملاها الى الحى المذكور ..

وفيما هى تبتعد عن مسكنها حانت منها التفاتة الى بيت بيترتون .. فرأت وجها مشئوما مخيفا يطل عليها من مدخل الباب كانما يتجسس حركاتها ، فمرت فى جسدها قشعريرة وارتدت فى مقعدها الى الخلف ، على انها لم تلبث ان ضحكت من مخاوفها ونفت من خيالها صورة هذا الجاسوس المخيف .

سار بها الرجلان الى الحى الذى تقصده .. واجتازت شارع بول فى طريقها الى الحانوت ، وكان الخطيب الناعق ما يزال واقفاً على درجات الكنيسة ينذر الناس بالهلاك ، وقد انتهت خطابته بتلك النهاية المضحكة المحزنة التى رأيناها فيما تقدم ..

ولما استقر بها المقعد المحمول اخيرا امام الحانوت الخاص هبطت منه ودلفت الى الداخل لشراء ما يلزمها ..

وما كادت تفعل حتى ظهر فى أثرها ذلك الجاسوس الكريه السحنة المدعو باسم باتس ، يتبعه ثلاثة من الاشقياء على مسافة وجيزة ، ويسير فى أثر هؤلاء ثلاثة آخرون ..

انسل باتس الى مدخل احد البيوت واخرج من جيبه قلما وورقة وسطر فيها بجهد بضع كلمات .. ثم دعا احد الاشقياء وقال له وهو يدس الورقة فى يده مع قطعة من النقود :

ـ اسرع بهذه الى صاحب السمو .. خذ مركبة .. واذهب بكل سرعة !..

ذهب الرسول بسرعة البرق .. ووقف باتس فى مكانه يدخن غليونه ويراقب مدخل الحانوت ..

وبعد مضى ساعة ونصف خرجت اخيرا الآنسة فاركارسون ومعها صاحب الحانوت حاملا لفائف الملابس التى ابتاعتها .. فوضعها فى داخل المقعد المقفل ودلفت المثلة الى جانبها .. وحمل الرجلان المقعد وعادا بها الى مسكنها فى الطريق الذى جاءت منه..

كان هذا بعد نصف ساعة من سقوط الشاب الذى صرعه الطاعون امام درجات كنيسة بول .. ووقف افراد الجمهور يتناقشون فى تفاصيل هذا الحادث وقد استولى عليهم الخوف والاضطراب ..

أحست سيلفيا بالفزع السائد حولها .. وراحت تسائل نفسها عن اسبابه .. وفيما هى كذلك تعالى من خلف مقعدها صوت خشن داو بهذه الكلمات :

ـ هاكم واحدة من هؤلاء الذين استنزلوا غضب الله على هذه المدينة التعسة !..

سمعت سيلفيا هذه الكلمات تتردد خلفها على مسافات متقاربة ورأت افراد الجمهور المنهمك فى الحديث والتعليق يترك حديثه فجأة ويلتفت اليها .. حتى خيل اليها اخيرا ان جميع الاعين قد تعلقت بها وجعلت تحدق فيها ..

فهمت سيلفيا انها المقصودة بالجملة السالفة .. ولم تتمالك ان تسلل الخوف الى نفسها بتأثير هذه النظرات العدائية التى صوبت اليها من كل مكان . فانكمشت فى مقعدها المغطى الى الخلف

وجذبت ستار احدى النافذتين حتى تحتجب عن العيان .
ثم تعالى الصوت الخشن من جديد بهذه الكلمات .
ــ هنا تجلس ممثلة خليعة غارقة فى الحرير والمخمل .! بينما يسير عباد الله المتقون فى الخرق والاسمال البالية .. وغضب السماء ينهال علينا فى صورة الطاعون جزاء الذنوب والخطايا التى تنشرها بيننا .
اهتز المقعد قليلا .. فقد انضم بعض افراد الجمهور الى المتعصب المجهول واخذوا يدفعون حاملى المقعد .. فتزايد خوف سيلفيا ولم يخف عنها ما قد تجده على ايدى جمهور جاهل استفز شعوره ، وبذلت جهدا قويا للتغلب على اضطرابها حتى لا تصرخ خوفا وجزعا .
على أن حاملى المقعد كانا من أقوياء الاجسام .. ولذلك واصلا سيرهما الى الامام رغم الأيدى التى كانت تدفعهما وسكتا عن رد التحرش بمثله حتى لا يستفحل الامر .. ولم يصدقا ان مثل هذه الممثلة المعبودة تستهدف للعدوان بتحريض هذا المتعصب الحاقد الذى كان يوغر الصدور حولها .
على ان عدد المعتدين تزايد بتأثير كلمات المتعصب المجهول الذى راح يصيح قائلا : هذه سيلفيا فاركارسون الممثلة فى مسرح (الدوق) . ! هى امرأة خليعة مجردة من الحياء !. وبسبب الآثام التى تقترفها مثيلاتها قد غضب الله وانزل علينا المصائب التى سنقاسى بسببها حتى تهلك هذه المدينة على بكرة ابيها .!
دنا المتكلم فى هذه اللحظة من نافذة المقعد .. وكان يلوح فى يده بعصا قصيرة .. وشد ما ذهلت سيلفيا حينما عرفت فيه ذلك الجاسوس المخيف السحنة الذى رأته يراقبها فى مدخل بيت بيترتون .
استمر الرجل فى تحريضه .. فصاح قائلا
ــ لقد رأيتم بأعينكم زميلا لكم يصرع أمامكم !.. وسيلقى آخرون هذا المصير تكفيرا عن الدعارة التى لوثت مدينتكم .
لم تفقد سيليفيا عقلها رغم الخوف الذى تسلط عليها .. لقد رات فى هذا المتعصب مخلوقا ناقما عليها بسبب الوباء الذى ارسلته السماء على المدينة .. على انها حينما رات انه كان يراقبها فى ميدان سالسبورى وقد تتبعها حتى هذا المكان ، تبين لها بجلاء انه غير مدفوع لهذا التحريض بوحى الساعة .. بل هو يعمل رفاقا لخطة مرسومة مدبرة .
وفى هذا الوقت اخذ الاشقياء يدفعون حاملى المقعد بشدة حتى كان المقعد يتطوح بعنف وراحت سيلفيا تتمايل فيه يمينا

ويسارا .. وانضم افراد آخرون من جمهور النظـارة الذين كانت سيلفيا تعلق امالا على مسارعتهم لنجدتها وحمايتها .. انضموا الى المعتدين وتجمعوا حولها .. وأخـذ بعض النسوة يقـذفنها بالشتائم والسباب .

ثم وقفت حركة المقعد اخيرا امام فندق بول فى الوقت الذى كان الكولونيل على درجاته يهم بالنزول لبيع الياقوتة وفاء لدينـه لصاحبة الفندق .. فوقع نظره على هذا المشهد ووقف فى مكـانه ينظر عابسا ..

ساء الكولونيل هولز أن يرى جمهورا جاهـلا يضطهد امرأة عزلاء ويعتدى عليها .. فاستقر عزمه على التدخل وتاديب هـذا المتعصب الشرير الذى كان يحفز الناس ضدها .

وفى هذا الوقت استقر المقعد على الارض . ولم يستطع الكولونيل ان يتميز وجه المرأة الجالسة بداخله . وماكاد الكولونيل يتحرك خطوة لتنفيذ عزمه وانقاذ المرأة من اعتداء الجمهـور حتى وافتها النجدة من مصدر آخر .

فقد ظهر فجأة رجل طويل القامة فاخر الثياب يحمل بيـده سيفا مجردا ، وشق طريقه بين افراد الجمهور زاجرا منتهـرا ، يتبعه أربعة من الاتباع أخـذوا ينهالون بسياط فى أيديهـم فوق أكتاف المتعصب المحرض والاشقياء المعتدين الذين كانوا يسيرون فى اثره .

اخذ المنقذ النبيل يلوح بسيفه يمينا ويسارا . وصـاح افراد الجمهور قائلا :

ــ الى الوراء ايتها الديدان الحقيرة ..! الى الوراء..! ودعوا السيدة تستنشق الهواء !.. الى الوراء !.. والا جعلت بعضـكم يذهبون الى مأواهم في الجحيم ..

تراجع افراد الجمهور المعتدى وابتعد عن دائرة السيف . وطاردهم اتباع النبيل بسياطهم حتى وقفوا على مسافة بعيدة.. ثم التفت النبيل الى حاملى المقعد وامرهما برفعه . فاطاعا وهما يحمدان الله على هذه النجدة التى هبطت عليهما من السـماء .. وتقدما بالمقعد للابتعاد عن هذا الجمهور المعادى ..

كان النبيل هو الدوق بكنجهام الذى عرفه الجمهور واخـذ يردد اسمه فى رهبة ووجل . وتقدم الدوق المقعد متأبطـا سيفه وامر اتباعه ان يسيروا فى المؤخرة . ففعلوا ولم يحـاول افراد الجمهور ان يكرروا عدوانهم .. بل وقفوا جمـاعات يتجاذبون اطراف الاحاديث فى شأن هذا الحـادث . واختفى

المتعصب الذى كان يقود حملة العدوان مع رجاله الاشقياء ولم يبق لهم اقل اثر بين افراد الجمهور .

شهد هولز هذا الحادث .. ودفعه الفضول للسير فى أثر الموكب .. وحمله على ذلك أن الموكب سلك الطريق الذى كان قصد ان يسير فيه . ولذلك غادردرجات الفندق وسار الهوينا على مسافة وجيزة ..

انعطف الموكب الى شارع جانبى .. وهناك وقف الدوق وأمر الرجلين بوضع المقعد على الارض . ثم تقدم الى النافذة ورفع قبعته وانحنى امام سيلفيا واضعا احدى يديه على قلبه وقال لها:

ـ أؤكد لك يا طفلة انك علمتنى معنى الخوف . فانى لم أعرف فى حياتى سوى اليوم ما هو الخوف .. اية جرأة حملتك يا عزيزتى سيلفيا على التغلغل فى المدينة فى وقت هاجت فيه أفكار الناس بسبب الحرب والطاعون » حتى بأتوا يلتمسون ما يصبون عليه جام غضبهم وسخطهم ! وانى اشكر الله من اعماق قلبى اذ تصادف مرورى في هذه الجهة ، وتيسر لى انقاذك من الخطر ..!

انحنت سيليفيا الى الامام . وابتسمت ابتسامة تشف عن الصلابة والازدراء . وقالت في صوت جامد :

ـ كانت فرصة سعيدة يا صاحب السمو .

فقال الدوق وهو يجفف جبهته بمنديل رقيق .

ـ نعم .. فرصة سعيدة حقا .

فهمت سيلفيا اخيرا لحساب من كان يعمل ذلك المتعصب الذى راقب خروجها من دارها اولا ، ثم تتبعها عن كثب وادار بعد ذلك حملة الاعتداء عليها ، ممهدا بذلك الفرصة امام الدوق بكنجهام لكى يتظاهر بالنجدة والشهامة .

ولذلك قالت الفتاة في تهكم :

ـ ان سموكم تظهرون في الوقت المناسب !

فقال الدوق . وقد تجاهل التهكم الذى لم يغب عنه :

ـ انى احمد الله لهذا . وعليك ان تشاركينى هذا الحمد .

فقالت له بنفس اللهجة :

ـ وهل سموكم تترددون كثيرا على هذه الاحياء ؟

ـ لا .. وانما هى المصادفة المحضة التى جعلتنى امرمن هذا الطريق .

ـ ولعل المصادفة ايضا هى التى جعلتكم تدبرون هذاالخطر لكى يتسنى لكم انقاذى !.

ارتاع الدوق .. ولم يفهم اول الامر .. فقال وقد جـز في نفسه تهكمها :
ـ انا دبرت هذا الخطر ! . يالك من طفلة ! كيف يخـامرك هذا الظن من ناحيتي ؟.
فقالت ضاحكة :
ـ بل تأكدت من هذا يا سيدى ، منذ ان رأيتكم تظهرون على المسرح في اللحظة التي نسميها نحن الممثلين : « اللحظـة الدراماتيكية » آه يا سيدى !.. انى كنت بلهاء حينما استسلمت للخوف من هؤلاء الحمقى !. فقد كانت الرواية محبوكة حبكـة ضعيفة تدعو الى الرثاء .. على انها أثرت في نفوس الجمهـور الذى سيتحدث عن بطولتك على الاقل يوما كاملا .. لكن لعلك لا تطمع في ان يمتد الى هذا التأثير ، منـذ ان كنت انا عضـوا في الرواية .
كان بكنجهام معروفا بالصفاقة وجمود الوجه .. على ان هذا التهكم زلزل اعصابه حتى خشي ان يعجز عن كبح جماح غضبه. لكنه تغلب على شعوره وعالج الكلام قائلا :

ـ الواقع انك ظالمة !. وانت دائما سيئة الظن بى . ولعـل السبب يعود الى تلك المأدبة اللعينة وما رأيت فيها من مسـلك الضيوف الثملين . لكنى اقسمت لك ان الذنب لم يكن ذنبى . وانى احسست باشد الارتياح حينما رأيتك ترحلين مبتعـدة عن مشهد ما كنت ارضى ان اسيء اليك به .
وان كنت رغم هذا القسم ارتاب في تصديقك لما اقول ..
فقالت ببرود :
ـ وهل تعجبون سموكم اذا كنت كذلك ؟.
تطلع اليها لحظة بعينين قاسيتين . وتظاهر بالغضب قائلا :

ـ ليتنى تركتك لهؤلاء الاشقياء الذين كانوا يضـطهدونك
فضحكت فورا وقالت :
ـ كم اود ان اعرف على اى وجه كانت تنتهى المهزلة لو انك تخلفت عن القيام بدورك !. لعل مضطهدى كانوا هم انفسـهم يخفون لنجدتى من اعتداء الجمهور ، حتى لا يستهدفوا لغضبك ! ولو حدث هذا لكان امرا طريفا مسليا .. آه . كفى !. انى اشكر لسموكم هذه التسلية .. اما وقد كانت بلا ثمرة فلعلكم لاتكلفون نفسكم عناء تكرارها . آه يا سيدى !. اذا كان لكم ان تخجلوا من شيء . فلتخجلوا من قصور تدبيركم وغباء افتنانكم !.
ثم تحولت عنه في ازدراء وقالت لتابعيها :

ـ ارفع المقعد ياناتانيل .. لنواصل السير بسرعة .. والا تأخرنا ..

اطاع الرجلان . وابتعدا بها تاركين الدوق بكنجهام جامدا في مكانه يعض شفته قهرا ويغلى غضبا من هذه الهزيمة التىجعلته مضرب الامثال في السخرية والزراية .

افاق الدوق بكنجهام لنفسه اخيرا وتغلب على انفعالهودارعلى عقبيه قاصدا مركبته التى كانت تنتظره .. وفجأة احس بيد تجذب ذراعه .. وسمع صوتا تتخلله الدهشة يناديه صاحبه قائلا :

ـ سيدى !. سيدى !.

التفت الدوق حوله .. فاذا هو وجها لوجه ازاء الكولونيل هولز الذى وصل منذ قليل خلف المقعد المقفل كانما كانت تجذبه قوة خفية ولما خيل اليه ان هذا القادم قد شهد هزيمته لم يتمالك غضبه .. وصاح فيه قائلا وهو يصعد فيه نظره :

ـ ما هذا ؟. هل تجسرعلى لمسى ؟.

لم يتأثر الكولونيل من مظهر الدوق ومن صوته .. بل أجابه ببساطة :

ـ انى لمستك من قبل كما اعتقد .. وقد احتملت لمسى بجفاوة اشد .. فانى لمستك في ذلك الوقت بقصد انقاذك .

فقال الدوق بازدراء :

ـ ها !. وقد لمستنى الان لكى تذكرنى بذلك !.

تالم الكولونيل من صرامة هذه اللهجة . وصعد الدم الى وجهه ثم دار على عقبيه لكى يبتعد دون ان ينبس بكلمة .

لكن الدوق اغضبه ان يرحل عنه على هذا النحو الفجائىدون اعتذار ولا تفسير .. فامسك به من ذراعه غاضبا واستوقفه قائلا :

ـ قف لحظة يا سيدى !..

وقفا وجها لوجه . وظهرت على وجه الكولونيل علائم الانفة .. فدهش الدوق واستاء وقال :

ـ احسب انه يعوزك الاحترام الواجب لاقدار الناس .

فقال الكولونيل :

ـ ان فراستك لم تخطىء ، على الاقل ، في هذا الشأن ..

اشتد عجب الدوق .. وقالبعد صمت قصير :

ـ هل تعرف من انا ؟.

ـ عرفت ذلك منذ خمس دقائق فقط .

ـ لكنى احسبك قلت انك أسديت الى خدمة من قبل ؟
ـ كان هذا منذ اعوام طويلة .. ولم اكن اعرف اسمك في ذلك العهد .. ولعل سموك قد نسيت .
أرغم الكولونيل هولز الدوق على احترامه بلهجة الازدراء التى خاطبه بها .. ثم ان الدوق قد اشتد فضوله . فقال برقة :
ـ هل لك ان تساعدنى على التذكر ؟
ضحك الكولونيل ضحكة قصيرة . ثم نفض عنه ذراع الدوق في غير حفاوة ولا اكتراث .. ومد يده الى شعره المرسل وكشف عن الياقوتة المدلاة من اذنه .
حدق بكنجهام امامم لحظة . ثم مال الى الامام لكى يمعن النظر .. ومالبث ان كتم انفاسه دهشة .. وقال وهو يتفرس في وجه الكولونيل :
ـ كيف آلت اليك هذه الماسة ؟
فاجاب الكولونيل فورا :
ـ انى تلقيتها تذكارا عقب موقعة (ورشتستر) من مخلوق تافه الشأن حسبت ان حياته جديرة بانقاذها .
لم يستأ الدوق من هذه اللهجة .. بل تغلبت عليه الدهشة في هذه اللحظة . وقال وهو يتفرس في وجه الكولونيل :
ـ اذن فهو انت ..! نعم ..! كان لذلك الرجل انفك وطولك! لكنك لا تشبه فى شىء آخر ذلك الجمهورى الذى انقذنى فى تلك الليلة .. ان شعرك كان يختلف عن هذا ..و..لكنك انت هو.. ما اغرب مقابلتى لك الان على هذا النحو ..! لكنى كنت اتوقع ان أراك ..
دهش الكولونيل بدوره وقال :
ـ كنت سموك تتوقع رؤيتى ؟
ـ اثناء تلك السنوات الماضية .. لقد انبئت باننا سنلتقى ثانية .. اجل .. وان حياتنا ستتصل فى وقت ما .
فهتف الكولونيل وقد تذكر فى الحال تلك الخرافة التى جعلته يستبقى الماسة حتى هذا الوقت :
ـ انبئت ..! كيف انبئت ؟.. من انبأك ؟؟
فاجاب الدوق وقد افاق من تأملاته :
ـ لا يمكن يا سيدى ان نقف للحديث على قارعة الطريق . ونحن لم نتقابل لكى نفترق ثانية . تعال معى ..
وجذب الكولونيل من ذراعه وسار به .. وامر اثنين من رجاله بالفرنسية ان يتبعاه ..

استسلم الكولونيل وهو تحت تأثير الحيرة والعجب .. وترك نفسه للدوق يقوده الى حيث يشاء .. شأن الذى يستسلم للاقدار تقذف به اينما تريد .

الفصل الثالث عشر

وفاء بكنجهام

جلس الدوق بكنجهام والكولونيل هولز الذى انقذ حياته في غرفة خاصه حجزها الدوق في احد الفنادق ، وكان كلاهما يقدر مدى الدين الذى يدين به الدوف لصاحبه . ففى تلك الليلة ،منذ اعوام طويلة ، سقط الدوق جريحا مغمى عليه فى ساحة القتال بين الملكيين والجمهوريين ، وعثر به اثنان من ذئاب البشر ممن يرتادون ساحات المعارك لسلب الموتى والاجهاز على الجرحى ، فامسك به احدهما وتأهب الثانى لاغماد خنجره في صدره لكى يقضى عليه ، وفى تلك اللحظة الرهيبة مر الكولونيل هولز بهذا المكان من باب الصدفة المجردة وشاهد هذا الشروع الآثم ، فأهوى بسيفه على احد الرجلين فشجه نصفين ، ولاذ الثانى بالهرب ، ثم حمل هولز الدوق الجريح وذهب الى كوح احد الفلاحين حيث اسعف بالعلاج واطمأن على حياته التى كانت على شفا الهلاك ..

استعاد كلاهما هذه الذكرى .. وجلسا حول خوان يتجاذبان اطراف الحديث بين اقداح النبيذ الذى امر الدوق باحضاره لضيفه ، فقال هولز :

ـ كنت في اعماق نفسى مقتنعا باننا سنلتقى يوما ما ، وهذا ما حملنى على استبقاء هذه الماسة ، ولو كنت أعرف اسمك لبحثت عنك ، اما وقد كنت اجهله ، فقد عللت نفسى بان الحظ سيلقينى في طريقك ..

فقال الدوق بيقين تام

ـ بل قل الاقدار ..

ـ كما تشاء .. وقد حافظت على هذه الماسة حتى في الظروف القاسية التى مرت بى وكان يمكن ان اجد في بيعها ما يخفف ضائقتى ، معللا نفسى بانى قد القاك ثانية ، فاتخذ منها سببا للتعارف ..

ولم يقل الكولونيل انه كان في هذا الوقت يسعى لبيع الماسة تحت تأثير حاجته الشديدة الى المال ..

وأومأ الدوق برأسه موافقة .. وقال :

ـ هذا من عمل الاقدار كما ترى .. لقد كان هذا مخطوطا فى لوح القدر ، وكان هذا اللقاء مرسوما من قبل ، الم اقل لك انى انبئت به ..

فكرر هولز سؤاله السالف :

ـ من انبأك به ؟.

فاجاب الدوق :

ـ من انبأنى به ؟. النجوم .. هى المنبىء الصحيح . ورسائلها واضحة كالصبح لمن يستطيع قراءتها .. احسبك لم تسع يوما لطلب هذا العلم ؟.. علم قراءة النجوم !..

حدق هولز فى الدوق لحظة .. ثم هز رأسه وابتسم ابتسامة استخفاف وقال :

ـ انا جندى يا سيدى .

ـ وكذلك انا .. متى دعت الحال . لكن هذا لا يمنع ان اكون قارىء نجوم ، وشاعرا ، وقاضيا فى الاقاليم الشمالية ، ونبيلا من نبلاء البلاط فى العاصمة ، واشياء اخرى منوعة .. ان الانسان يقوم فى حياته بادوار متعدده .. ومن يقنع بدور واحد فكأنه لم يعش في الحياة .. اذا اردت ان تعيش يا صديقى ، فعليك ان تنهل من موارد الحياة المختلفة ..

كان الدوق يتكلم بطلاقة بهرت الكولونيل .. فاخذ يصغى اليه مأخوذا .. بينما استرد بكنجهام قائلا :

ـ ولما قابلتنى الان كنت العب دور البطل العاشق ، لكنى صادفت في هذا الدور من الفشل مالم اصادف مثله فى حياتى .. ولو لم اكن مدينا لك بحياتى من قبل ، لعددت نفسى مدينا لك الان مذ منحتنى ساعة انسى فيها ما لقيته على يدى تلك الخليعة الحسناء من الهوان والعذاب . ولعلك رأيت كيف عبثت بى تلك المراة الفاجرة .

ثم ضحك ضحكة لا تخلو من المرارة واستطرد :

ـ لكنها ستدفع ذات يوم ثمنا كاملا لما كلفتنى من العناء . آه . لعنة الله عليها !. حدثنى الان عن نفسك يا صديقى . كيف حالك الان ، وقد كنت من قبل جمهورى النزعة !.

ـ لا مبدا لى الان .. انى خدمت مذاهب متعددة منذ تلك الايام ، في الداخل والخارج ، لكنها لم تعد على بفائدة كما ترى بعينيك .

فقال بكنجهام وهو يتفرس فيه :

ـ اصبت .. ان حالك لا تدل على اليسر والرخاء .

ـ بل قل هى حال تدل على البؤس ولا تخف ان تكـــون من المبالغين .
فقال الدوق وهو يرفع حاجبيه دهشه :
ـ احقا ؟. كم يحزننى ذلك .! لكنى قد اكون ذا فائـدة لك .. ان بيننا دينا قديما .. ويسرنى ان انتهز هذه الفرصـــة لتصفيته .. ما اسمك يا سيدى ؟ انت لم تخبرنى به .

ـ راندال هولز .. كولونيل سابق في فرق الفرسان .
استنجد الدوق بذاكرته .. فخانته اول الامر .. ثم تذكـر أخيرا وقال في تؤدة :
ـ كان هذا اسم شاب من اعداء الملكية.. لكن لايمكن ان تكون أنت هو .. انت اصغرمنه بثلاثين عاما .
فقال الكولونيل :
ـ كان هذا ابى .
ـ آه .. ! لا عجب اذن اذا عجزت عن ايجـــاد منصب في انجلترا يا صديقى .. مهما خلصت نيتى لرد الجميل الذىطوقت به عنقى فان هذا الموقف يزيد الامر تعقيدا .
تلاشى بصيص الامل الذى اضاء في صدر الكولونيل ..وقال بكآبة :
ـ هذا ما كنت اخشى .
لكن الدوق استوقفه قائلا :
ـ انى قلت يزيد الامر تعقيدا يا صديقى ، ولم اقل انهيجعله مستحيلا .. انا لا اعترف بالمستحيل.. واقسم لك انى لا اتوق الان الى شىء اكثر من تحسين احوالك ، ولكى يتسنى لى ذلك يا كولونيل يجب ان تزيدنى علماباحوالك .. انت لم تخبرنى بعد كيف جئت الى انجلترا في عهد الملكية المتعطشة للثأر ، وقد كنت الجمهورى المتحمس .
اخبره الكولونيل بقصته . وسرد عليه تفصيلا وافيـــا لمـا صادفه في حياته من النحس ، فيماعدا اتصاله بالمؤامرة التى دعاه اليها تاكر وراثبورن ولما جاء الى ذكر منصب الهند الذى اوشـك الدوق البيمارل ان يعينه فيه وطار من يده فى آخر لحظـة ، لم يتمالك الدوق بكنجهام ان ضحك فى كآبة وهتف :
ـ وكنت انا الذى سلبت منك هذا المنصب !. انظـر كيف كانت يد الاقدار تعمل فى الخفاء !. لكن هذا يضاعف دينى لك .. ويوجب على ان اسعى الى اصلاح حالك .. فلتطمئن اذن الى انى فاعل ذلك .. وساجد وسيلة لازالة نحسك واسعاد طالعك ..

ولابد من السير بحذر كما تعلم .. لكن ثق انى لن اتخلى عن هذه المهمة .

ابتسمت آمال هولز .. ومع ان الحظ قد عاكسه حينا فقد زال تجهمه اخيرا واخذ يبسم له بعد طول عبوس ، وذلك بفضل هذه الماسة الثمينة التى جعلته غريزته يتشبث بها ويحافظ عليها .

اخرج الدوق من جيبه كيسا من النقود الذهبية وقال :

ـ وانى يا صديقى .. كعربون على صدق نيتى نحوك ..

فقال الكولونيل وقد ثارت عوامل الكبرياء في صدره للمرة الثانية :

ـ لا يا صاحب السمو .. لست فى حاجة ملحة . انى .. انى استطيع ان اقاوم بعض الوقت .

لكن الدوق بكنجهام كان من معدن يخالف معدن الدوق البيمارل فبينما كان هذا شحيحا مقترا كان بكنجهام سخيا كريما .. وما كان ممن يقبلون ان يجابهوا بالرفض .. فقال في عذوبة:

ـ انى اجلك بسبب هذا الرفض .. لكن ليست هذه هبة .. وانما هى قرض زهيد سترده الى متى مهدت لك السبيل لذلك .. هيا يا سيدى .. ان بيننا من الاسباب مالايقوم الذهب بوفائه . وان رفضك ليسوءنى.

ابتهج هولز في اعماق نفسه بهذا التمهيد الذى يستر كرامته ... فقال :

ـ اني اقبله اذن كقرض ، مادمت تلح هذا الالحاح الكريم..

ترك الدوق الكيس في يد الكولونيل ، ونهض قائلا :

ـ ستسمع منى يا كولونيل في وقت قريب .. وارجو ان اعرف محل اقامتك .

فكر الكولونيل قليلا .. فقد كان عول على الاقامة في فندق (العصفور) بعد مغادرته لفندق مارثاكوين لرخص الاقامة في الفندق الاول .. اما الان وهو يمتلك هذا الكيس الثقيل ويوشك ان ينال اكثر منه ، فقد عاد اليه سخاؤه القديم ، وفكر في فندق مشهور بوفرة اسباب الراحة فيه، واجاب الدوق قائلا :

ـ ستجدنى فخامتك فى فندق (القيثارة) بشارع وود .

ـ اذن فستسمع منى هناك فى وقت قريب.

وغادر كلاهما الفندق معا .. فقصد الدوق الى المركبة التى كانت تنتظره.. ومضى الكولونيل الى فندق بول رافع الرأس حتى ليكاد يناطح السحاب .

على ان مدام مارتاكوين ماكادت تراه وترى الياقوتة مدلاة من اذنه حتى صاحب قائلة :

ـ انت لم تبعها ..! وقد غيرت رأيك ! وفكرت فى العودة لكى تبكى وتستعطف انقاذا لها..! لكنى انذرتك. وبما انك لم تستمع .. فسترى ..

فقاطعها الكولونيل بصوت كالرعد :

ـ امسكى لسانك يا امرأة ..!

وتقدم نحوها مهددا وقد تملكه الغضب .. على انه وقف في مكانه وكظم غيظه وضحك .. ثم اخرج من جيبه كيس النقود وكشف عن القطع الذهبية التى بداخله . وقال لها باذراء :

ـ ما هو مجموع حسابك؟ خذى نقودك .. واريحينى .

لكنها لم تفكر في الحساب فى هذه اللحظة .. فقد اذهلتها رؤية الكيس ومافيه من القطع الذهبية ، وجعلت تحدق فيه وفي حامله كالمأخوذة ، ثم تجلى الشك فى عينيها ، وسألته بلهجة الوعيد :

ـ وكيف توصلت الى هذا الذهب ؟..

ـ وهل هذا من شأنك ؟..

فقالت بازدراء شديد :

ـ حسبتك ارفع من التدنى الى النهب وقطع الطريق !.. لكن يظهر انى خدعت فيك فى هذا الشأن ، كما خدعت فى غيرك ..

فهتف الكولونيل غاضبا :

ـ اسكتى يا خسيسة !.. قولى ما هو حسابك ، حتى ادفعه لك وانفض عن حذائى غبار فندقك .

وحدثت بينهما على اثر ذلك مشادة عنيفة كان سلاحها الكلام القارص ، ورفعت مارتا كوين صوتها حتى لفتت انظار نزلاء الفندق القليلين ، واستقدمت خادمها تيم الذى جاء الى الغرفة منزعجا ..

ولم يتمالك الكولونيل ان ساوره القلق برغم غضبه .. فقد خشى ان يتطور الموقف الى مالا تحمد عقباه ، ولم تكن صحيفته بيضاء كما يعلم القارىء ، وفي اثناء ذلك اخذت صاحبة الفندق تصيح قائلة :

ـ يا لص !.. يا خائن !.. هل ترفع صوتك فى دارى هنا ،وقد جعلت منها وكر للتآمر والخيانة ؟.. سأهذب اخلاقك يا طريد المشنقة !.. تيم !.. ادع رجال البوليس !.. سينزل حضرته

ضيفا في سجن (نيوجيت) حيث يتمتع براحـــة اوفر ، اسرع يا تيم !..

واسرع تيم لتنفيذ الامر .. ولما راى الكولونيل انه لا فائدة من البقاء افرغ نصف محتويات الكيس ونثرها حوله قائلا :

ـ سدى فمك القذر بهذه النقود !.. خذى حسابك بالتيمة!.. اخذك الشيطان !

واندفع الكولونيل من الغرفة في اعقاب تيم . ولم يجرؤ احد من نزلاء الفندق على اعتراض طريقه.. وخرج الى الشـارع تاركا خلفه امتعته القليلة .

الفصـــل الرابع عشـــر

ظلام اليائس

اقام الكولونيل هولز ثلاثة اسابيع فى فندق (القيثارة) انفق فيها بسخاء مابقى معه في كيس النقود .. وكان ينتظر كل يوم ان نوافيه رسالة من الدوق بكنجهام .. فلما مضت هذه المـدة ونضب الكيس ساوره القلق .. واشتد قلقه من ناحية اخـرى حينما علم ان رجال البوليس كانوا يجدون فى البحث عنـــه فى فندق (العصفور) حيث اخبر مدام مارتاكوين انه سيقيم فيـه .. وخشى ان يهتدوا بين وقت وآخر الى مقره الحقيقى.. فيكون فى هذا القضاء عليه .. ثم راى ان رجال البـوليس اذا كانوا لم يشددوا فى البحث عنه وتضييق الخناق عليه ، فذلك لان امـورا هامة كانت تشغل الاذهان وتستغرق عناية الناس في تلك الايام.

ففى اوائل شهر يونيو روع الناس بسماع قصف المـدافع منذره بالتحام الاسطولين الانجليزى والهولندى قرب الشـواطىء الانجليزية ..على ان هذا الالتحام انتهى باندحار الاســطول الاخير وعودته الى قاعدته الاصلية .. ثم جاء الدوق يورك اميرال الاسطول الانجليزى يحمل على مفرقه اكاليل الفوز ... واقيمت صلاة باهرة فى هويتهول ابتهاجا بهذا النصر ، بلغ من روعتهـا وفخامتها انها انست الناس ، ولو الى حين هول الطاعون الذى كان يزداد انتشارا وينذرهم بالفناء .

فلما انتهت تلك الحفلات استيقظ الناس فجأة الى الخطـر الداهم الذى يهددهم . وزاد الفزع والاضطراب حينما انتقـل البلاط من هويتهول الى سالسبورى ابتعادا عن المدينة المـوبوءة .. واشتدت حركة الهجرة حتى كانت المركبات والجياد تغـادر لندن كل يوم صفوفا متراصة .. وخيم على المدينة جمود شـل

حركة البيع والشراء بسبب تناقص عدد السكان الناجين بحياتهم.
وكان خطباء السوء يتزايدون وينذرون بما ينتظرهم من شر مستطير . ولم يعد افراد الجمهور يقابلونهم بالهزؤ والاستخفاف .. بل كانوا يستمعون اليهم .. وقد علت وجوههم علائم الروع والاضطراب ..
لكن الكولونيل هولز كان في شغل بأموره الخاصة عن هذه المسائل . ولما علم بانباء ارتحال البلاط عن هويتهول تحرك للعمل خوفا من رحيل الدوق بكنجهام اسوة بغيره من نبلاء البلاط، وهو الذي كان يعلق عليه أمله الاخير..
فارسل هولز رسالة الى الدوق يذكره فيها بامره .. لكن مضى يومان دون ان يصله رد ما . حتى أخذ اليأس يستولى على نفسه . وتلقى اخيرا ضربة جديدة زادته يأسا وغما .

فقد خرج هولز ذات يوم لبيع الياقوتة بتأثير حاجته الشديدة الى نقود ، وبعد أن ادت رسالتها التى احتفظ بها لاجلها .. ولما عاد الى الفندق في المساء انتحى به بانكس صاحب الفندق ناحية منعزلة وهمس في اذنه قائلا :
ـ جاء الى هنا رجلان للبحث عنك .
انتفض هولز لهفة اذ وثب ذهنه في هذه اللحظة الى الدوق بكنجهام وخطر له انه اوفد اليه رسلا من عنده..لكن صاحب الفندق الطيب القلب الذى اخذته الشفقة على الكولونيل هز رأسه برزانة وقال له :
ـ كانا من رجال البوليس .. ومع انهما لم يقولا ذلك الا انى عرفتهما ..وقدسألانى اسئلة كثيرة عن مدة اقامتك هنا، ومن اين جئت وماذا تفعل .. وأمرانى عند انصرافهما الا اخبرك بشيء من هذا .. لكن ..
وهز صاحب الفندق كتفيه ازدراء . وتفرس في وجه الكولونيل الذى بدت على وجهه علائم الرزانة . فقد فهم ان اتصاله بتاكر وراثبورن عرف لرجال العدالة عند محاكمة الاول، الذي حكم عليه بالاعدام شنقا . ولم يخامره الان ريب في انه سيلقى هذا المصير اذا وقع تحت طائلة القانون رغم براءته .
واستأنف صاحب الفندق حديثه قائلا :
خطر لى يا سيدى ان احذرك . حتى اذا كنت فعلت شيئا مخالفا للقانون لم تجلس لكى يقبضوا عليك . انا لا اريد ان ينالك اقل مكروه .
فاستجمع هولز جأشه وقال :

ـ انت صديق طيب القلب يا سيد بانكس . وانا اشـــكرك واؤكد لك انى لم افعل شيئا . لكن الظواهر قد تكون ضدى . فقد كان تاكر السيءالحظ صديقا قديما لى

فقاطعه صاحب الخان قائلا وهو يتنهد :

ـ نعم يا سيدى انى فهمت هذا من بعض حديثهما . وهذا ما حملنى على المجازفة باخطارك . فاذهب بالله يا سيدى!. اذهب قبل فوات الاوان .

استمع الكولونيل لنصيحة صاحب الخان الذى كان يعطفه سرا على الجمهوريين . ودفع حسابه الذى استنفذ اكثر ثمـــن الياقوتة . وغادر الفندق دون ان يحمل ادواته القليلة .

على انه ماكاد يتقدم في ظلام الشارع حتى برز امامه شبحان فجأة اعترضا طريقه . وكشف احدهما عن مصباح مظلل رفعه الى وجهه . وسمع صوتا خشنا يأمره قائلا :

قف باسم الملك ..

لم ينتظر الكولونيل حتى يتحقق ان كان الرجلان مسلحين . بل اطار المصباح بضربة من يده . ثم وجه الى الرجل الذى كان يحمله لطمة قوية اوقعته على الارض .

وفي هذه الاثناء انقض عليه الثانى ولف ذراعيه حول جسده وحاول ان يطرحه ارضا . لكن هولز وكزه فى صدره وكزة قوية بساعده . ثم دفعه بعنف والقاه مصطدما بالجدار وراح يركض فى خفة الارنب غير عابىء بالصيحات التى تعالت خلفه .

تغلغل الكولونيل فى ظلمة الشوارع .. ولم تدم المطاردة وقتا طويلا .. ولما اطمأن كف عن الركض واخذ يسير باعتدال .. لكن الخوف لازمه وحمله على مواصلة السير مدة طويلة .. ثم امضى الليلة فى خان صغير وهو يفكر فى هذا الموقف الدقيق الذى صار اليه .

وقبيل الفجر استقر عزمه على مغادرة انجلترا نهائيـــا حيث لم يجد فيها غير الخسة والامتهان .. ولعن الوطنية التى اتت به اليها .. ورآها سرابا خادعا واملا مكذوبا .. ومادام الاســطول الهولاندى قد عاد الى قاعدته وفتحت خطوط الملاحة فلن يجد مشقة في الابحار الى فرنسا على ظهر احدى السفن ولو بصفة عامل مادامت النقود تنقصه .. ولما انتهى الى هذا الرأى قصـد من فوره الى ميناء وابنج في بكرة الصباح .

الفى سفنا على اهبة الرحيل .. ومنها ما كان فى حاجة الى الايدى العاملة .. لكن لم يقبل احد الربابنة ضمه الى رجـاله

حتى يقدم شهادة بخلوه من الطاعون .. فقد حتم انتشار الوباء هذا الاجراء وجعله شرطا لازما لمن يغادر لندن او يدخلها .

لم تدخل هذه العقبة في حسابه .. لكن لم يكن امامه الا الاذعان ولذلك قصد الى قصر ـ الجيلدهول ـ مقر العمدة طلبا لهذه الشهادة . وسلك طرقا جانبية غير مطروقة رأى ابوابا كثيرة مغلقة يعلوها الصليب الاحمر يحرسها رجال كانوا يحذرون المارة من الدنو منها .

كان الطاعون قد فشا فشوا مروعا حتى اصبح يحصد الارواح بالآلاف ..ولم يدرك الكولونيل مدى انتشاره الحقيقي حتى وصل الى قصر ـ الجيلدهول ـ حيث رآه محاصرا بعشرات المركبات والمقاعد المقفلة وجمهور الغوغاء ، وقد وفدوا جميعا على القصر مثل الكولونيل يلتمسون الحصول على شهادة الصحة والبراءة من الطاعون .. لكى يتمكنوا بها من مغادرة المدينة الموبوءة .

وقف هولز في غمار الجمهور ينتظر دوره عبثا .. فقد خيل اليه ان الصفوف لا تنتهى .. وقاسى كثيرا من التعب والجوع والظمأ .. ولما اقبل المساء ولم يجد فائدة من الانتظار ترك مكانه ساخطا ورجع بغير الشهادة المنشودة .

على انه ماكادت تمضى ساعة حتى ادرك ان الحظ حالفه حين قضى عليه بالفشل في الحصول على شهادة الصحة ..فبينما كان جالسا في مطعم صغير في حي (تشيبسيد) سمع حديثا يدور بين رجلين على مائدةمجاورة عن حادث اعتقال تم في اثناء النهار .. فاصغى الكولونيل وسمع احد الرجلين يقول لصاحبه :

ـ لكن كيف قبض عليه ؟. كيف اكتشفوا امره ؟.

فأجابه الثانى :

ـ قبض عليه في (الجيلدهول) وهو يلتمس شهادة الصحة لكى يتمكن من مغادرة المدينة بواسطتها .. أؤكد لك انه ليس من السهل مغادرة لندن في هذه الايام .. فان اعوان السوء منتشرون فى كل مكان .. وعن قريب سيعتقلون دانفرس بهذه الكيفية .هم يترقبونه ويترقبون كثيرين غيره .

ماكاد هولز يسمع هذا الحوار حتى فترت شهيته .. فقد كان فى شرك محكم الاطراف .. ولم يدرك هذه الحقيقة الاحينما هدته الصدفة وحدها الى سماع هذه الكلمات .. ورأى انه اذا حاول الحصول على شهادة الصحة ولو باسم مستعار فقد

تنكشف حقيقة شخصيته ويحدث ما كان يخشاه .
بات الكولونيل في موقف يدعو الى اشد اليأس .. فلو بقى في لندن فسيقع عاجلا او آجلا في ايدي من يبحثون عنه ومن يجدون في اثره ، ولاسيما بعد اعتدائه على رجال العدالة قرب فندق (القيثارة) ولو حاول الخروج منها فانه بذلك يسلم نفسه الى ايدي رجال القانون.
استقر رأيه بعد طول التفكير على التماس حماية الدوق البيمارل .. فيمم على الفور شطر قصره .. على انه تذكروهو في الطريق انانية الدوق وحذره . وساوره الشك في ان يأخذ الدوق على عاتقه اثبات براءته ولاسيما في مثل التهم الخطيرة التي تحول حول رأس هولز
ولذلك تردد الكولونيل في الذهاب الى البيمارل .. ثم صمم اخيرا على الذهاب الى الدوق بكنجهام لالتماس المساعدة . فقصد على الاثر الى قصر الدوق في (والنجفوردهوس)

الفصل الخامس عشر

شبح المشنقة

لم يرافق الدوق بكنجهام البلاط الى سالسبوري . وبقى في لندن .. بعد ان اصبح اسيرا في حبائل الممثلةسيلفيا فاركارسون التي فشل في الفوز بحبها على النحو الذى رآه القارىء فيما مر من الفصول .
كان الدوق غارقا في تفكيره بشأن الممثلة حينما وصلتهرسالة الكولونيل هولز التى لم يكترث بها لهذا السبب .. وكم كان جزعه حينما علم ان السير جون لورنس عمدة لندن قد رأى فيما رأى من وسائل مكافحة الوباء اغلاق المسارح والمحال العامة ، وتقرر ان ينفذ هذا الامر ابتداء من يوم السبت .. ومعنى هذا ان يهجر الممثلون لندن .وتفلتسيلفيا من يدى الدوق ولذلك صمم على العمل .
استدعى اليه الدوق الشقى باتس في يوم الاثنين السابقليوم السبت الذى حدد لاغلاق المسارح والمحال العامة .. وأمره بالبحث عن بيت خال .. فصدع الشقي بالامر ، وعاد في صباح الثلاثاء وقرر للدوق انه وفق الى رحبة جيدة الاثاث بشارع (الفارس) ، وان صاحبها ابدىاستعداده لتأجيرها بايجارمعقول في هذا الوقت الذى يغادر فيه اغلب الناس بيوتهم في لندن .. فقال له الدوق :

ـ لا بأس بهذا البيت .. وان كنت افضل حيا آخر اقـل سكانا ..

فقال باتس :

ـ اذا استمرت الامور على النحو الحالى فلن تجدوا سموكم ما تشكون منه .. فان لندن ستكون عن قريب اخلى بقعـة في انجلترا ، ان اكثر من نصف البيوت بشارع الفارس قد خلت من سكانها ، لعل سموكم لا تفكرون في الاقامة هناك ؟

فقال الدوق وهو مستسلم للتفكير :

ـ الى حد ما .. ارجو الا تكون العدوى انتقلت الى هـذا الشارع؟.

ـ لم تنتقل بعد . لكن الخوف سائد فى الشارع من انتشار المرض فيه كما في غيره..

فقال الدوق بازدراء :

ـ أن هؤلاء الناس ينزعجون من الطاعون بلا مبرر. لكن هذا ظرف مناسب ، وسينفع في ابعاد الناس عن التطفل والاهتمـام بشئون جيرانهم ، انا لا اريد ان يتجسس على احد في شـارع الفارس ، عليك ان تذهب غدا ياباتس الى صاحب الدار المذكورة وتستأجرها باسمك ، هل فهمت ؟.. لا اريد ذكر اسمى في هذا الشأن ، ولكى تدفع الشكوكثرة الاسئلة ادفع للرجل ايجارستة اشهر سلفا ..

فاجاب باتس بانه سيفعل كما امره سيده .. فمال الدوق في مقعده الى الخلف وتطلع الى خادمه وهو يبتسم ابتسامةالمكر وقال له :

ـ لا ريب انك فهمت الغرض من استئجار هذا البيت .

ـ ليس لى يا صاحب السمو ان افكر في أى شأن من شئونك

ـ معنى هذا ان شئونى تخفى عليك .. وهذا دليـل على الغباوة ، هل تذكر تلك المهزلة التى مثلناها منذ شهر لحسـاب الآنسة فاركارسون ؟..

ـ نعم .. فان عظامى لاتزال تؤلمنى من تأثير ضربات السياط التى تلقيتها ، وقد كانت رواية واقعية من جانب خدم سـموكم الفرنسيين الملعونين..

ـ لم يكن هذا رأى السيدة .. او على الاقل لم تقتنع بهـا .. يجب ان نقوم بشىء افضل من ذلك هذه المرة ..

ـ هو ما تقول يا صاحب السمو .

ـ سندخل عنصرا اكثر جدا في المهزلة .. سنختطف السيدة .. وهذا هو سبب استئجار الدار المشار اليها .

فقال باتس وقد ظهرت على وجهه فجأة دلائل السذاجة :
ـ نختطفها ؟!
ـ هذا ما اريده منك يا باتس ..
فقال باتس لاهثا وقد تدلى فكه :
ـ منى ؟. منى يا صاحب السمو ؟.
ـ نعم .. ما وجه الغرابة فى هذا ؟.
ـ لكن يا صاحب السمو .. هذا .. هذا شـــديد الخطورة .. هذه مخاطرة عقابها الشنق .
ـ لعنة الله على غفلتك !.. هل تتكلم عن الشنق وانا خلفك احميك ؟.
ـ هذا ما يؤكد كلامى ، فانهم لن يجسروا على شنق سمو الدوق . لكنهم سيحتاجون الى كبش الفداء ، وسيشنقون صنيعتك اسكاتا لغضب الرأى العام ..
ـ هل أنت مجنون ؟ .
ـ لست عاقلا فقط يا صاحب السمو ، بل أنا بعيد النظر ايضا . واذا كان لى أن اسدى النصح لسموكم ..
فعبس الدوق وهتف غاضبا :
ـ هذه جرأة منك يا شقى ! . لعلك نسيت نفسك ! .
ـ عفوا يا سمو الدوق ! . لعلكم لا تقدرون مدى الفزع من الطاعون فى المدينة . هم يقولون فى كل مكان انه عقاب الله أنزله بالناس بسبب آثام البلاط . وهذا ما يصبه الخطباء فى اذهانهم فى كل وقت ، واذا كان ما تفكرون فيه سموكم .
فصاح الدوق بصوت كالرعد :
ـ يا الهى ! . أراك تتجاسر على نصحى برغم كل شىء ..
لزم باتس الصمت . لكن ملامح وجهه كانت تنم عن الصلابة والعناد ، بينما استطرد بكنجهام :
ـ اصغ الى يا باتس . ان الطاعون يخدمنا خدمة عظيمة .. ولو قمنا باختطاف الانسة فاركارسون أثناء اشتراكها فى التمثيل لاثرنا ضجة كبيرة ، وقد يؤدى اكتشاف الحقيقة الى نتائج سيئة ، لكن عمدة لندن قد أصدر الامر باغلاق المسارح يوم السبت ، واذن فسنتم هذه المسألة فى مساء السبت ، ولن يثير اختفاء الانسة فاركارسون أقل اهتمام . ولا سيما ازاء انهماك الناس فى أمر الطاعون ..
ـ وبعد ذلك يا صاحب السمو ؟ .
ـ بعد ذلك ؟ .
ـ عندما تتقدم الانسة بشكواها ؟ .

فابتسم بكنجهام ابتسامة الخير وقال :
ـ وهل تشكو السيدات من هذه المسائل .. فيما بعد ؟ ..
وفوق ذلك من يصدق قصتها اذا قالت انها ذهبت الى بيتى ضد رغبتها ؟ . تذكر انها ممثلة ، لا أميرة . وما زلت أتمتع بالسلطة والنفوذ فى هذا البلد .
لكن باتس هز راسه قائلا :
ـ انى أرتاب فى أن سموكم تستطيعون انقاذ عنقى من حبل المشنقة اذا حدث ما نخشاه ، وسيحدث هذا ولاريب . ثقوا من هذا يا صاحب السمو . فان اعوان السوء منتشرون فى كل مكان ، وهم ينتهزون هذه الفرص ..
فهتف الدوق متبرما :
ـ لكن منذا الذى يهمك ؟ .
ـ السيدة نفسها ، اذا خطفتها لاجلك ، وفوق ذلك الم تقولوا سموكم ان البيت سيستأجر باسمى ؟ . ولو كان أحد فى حاجة الى الدليل ففى هذا الكفاية ، أنا خادمكم المخلص الوفى ، والله يعلم انى لا أدقق كثيرا فى خدمتى لكم . لكنى لا أجرؤ على القيام بهذا العمل يا صاحب السمو ..
ذهل الدوق من معارضة تابعه . وهم أن يثور فى وجهه ، لكنه تماسك وقال له بهدوء :
ـ انى أريد الدليل على اخلاصك . ومن حسن الحظ ان هذا الدليل موجود فى متناول يدك . فافعل اذن ما آمرك به ..
فتطلع باتس الى الدوق جازعا . ولم يتمالك أن راح يتحسس عنقه كأنما خيل اليه ان حبل الجلاد يطوقه فى هذه اللحظة . ثم هتف مبتهلا :
ـ لا توجد خدمة لا أقوم بها للتدليل على اخلاصى لشخصكم يا مولاى . مرونى بكل شىء . الا هذا ..
فقال الدوق ببرود :
ـ هذه هى الخدمة الوحيدة التي أطلبها منكم فى الوقت الحالى ..
فهتف باتس يائسا :
ـ لا أستطيع يا صاحب السمو . هذا عمل عقابه الشنق ، كما تعلمون ..
فقال الدوق بغير اكتراث :
ـ اذا طبق القانون حرفيا ، فسيكون هذا العقاب من نصيبى ـ وما دمتم سموكم أسمى من أن ينالكم هذا العقاب فسأكون بديلكم ..

هذا تكرار ممل . تذكر انك ستنال مائة جنيه أو أكثر ..

ــ ليست المسألة مسألة مال يا صاحب السمو . لن أقوم بهذا العمل ولو نلت الف جنيه ..

غلت مراجل الغضب فى صدر الدوق ، لكنه تظاهر بالبرود وقال :

ــ اذن فعليك بترك خدمتى يا باتس . اذهب الى مستر جروفز وخذ منه ما بقى لك من حساب عندى ..

قرر الدوق هذه الكلمات باشارة من يده . فوقف باتس مترددا ، لكنه انسحب اخر الامر بعد أن راى انه لا فائدة من التوسل او الاعتراض . وبقى الدوق ساخطا بعد أن فشل فى هذه المناورة . لا يدرى بمن يستعين لاتمام هذه المهمة ..

جلس الدوق غاضبا بعد أن تخلى عنه مساعدة الشقى باتس ؟ وفيما كان مستسلما للتفكير جاءه أحد الخدم واعلن اليه قدوم زائر باسم الكولونيل هولز كان يلح فى طلب مقابلته . فازداد استياء الدوق وسخطه . وهم أن يأمر الخادم بطرد الكولونيل ، لكنه تمالك نفسه وتذكر الرسالة التى تلقاها منذ ثلاثة أيام وكانت تتضمن رجاء حارا . فأثار موضوعها خاطرا فى نفسه . وبلل شفتيه بلسانه . واخذ يقدح زناد فكره . ثم أشرق وجهه رويدا ونهض فجأة وأمر الخادم بادخال الزائر .

دخل هولز منتصب القامة شأن الجندى الاصيل . لكنه كان ممتقع الوجه بتأثير اليوم الذى قضاه بين ميناء وابنج وقصر « الجيلدهول » هدفا للمخاوف والوساوس .. وقال الدوق معتذرا :

ــ ارجو ان تتجاوزوا سموكم عن تطفلى والحاحى . لكن الواقع ان حاجتى قد تزايدت منذ أن كتبت اليكم . حتى صارت الان أكثر مما أحتمل ..

تفرس الدوق فى وجهه قليلا . ثم صرف الخادم وقدم مقعدا لزائره ، فجلس هولز فى اعياء . بينما بقى الدوق واقفا ، وقال فى صوت عذب :

ــ انى تلقيت رسالتك . وربما خطر لك بسبب سكوتى انى نسيتك . لكن الواقع غير هذا . لكن لعلك تدرك انه ليس من اليسير مساعدة من كان فى ظروفك ..

فقال هولز فى كآبة :

ــ ولا سيما وقد ساءت ظروفى اكثر من قبل ..

ــ وماذا حدث ؟ ..

فأخبره الكولونيل بالتطورات الاخيرة التى حدثت له . واختتم كلامه قائلا :

ـ وهكذا ترون سموكم انى لم أعد مهددا بالموت جوعا فقط ، بل شنقا كذلك ..

سار الدوق فى الغرفة مفكرا . ثم عاد الى الكولونيل وقال :

ـ لكن كان من الاستهتار لمن هو فى مثل مركزك ان يتصل بهؤلاء الكلاب أعداء الملكية ، مهما كان الاتصال يسيرا . فانك بذلك وضعت حبل المشنقة حول عنقك ..

ـ لكن هذا الاتصال لم تشبه شائبة .. فقد كان تاكر من اخوان السلاح القدماء . وقد كنت سموك جنديا وتدرك معنى هذا . وصحيح انه كان يغرينى بمختلف الوعود . ولكنى رفضتها رفضا باتا ..

فابتسم الدوق ابتسامة يسيرة وقال :

ـ هل تتصور ان القضاة سيصدقونك حينما تقول لهم هذا الكلام ؟ .

ـ لا أتصور هذا ما دمت ادعى راندال هولز ، وأنا فى عهد حكومة متعطشة للثأر تتلهف لاعدامى انتقاما من والدى . وهذا ما يجعلنى أستسلم لليأس المطبق . أنا رجل أسير فى ظل المشنقة .

فقال الدوق يعاتبه برفق :

ـ صه ! .. صه .. يجب الا تتكلم بمثل هذه اللهجة يا كولونيل . فان صوتك يشف عن عدم الولاء . ولو كنت عاقلا حقا لسارعت الى رجال العدالة وافضيت اليهم بما تعرفه من أنباء التآمر ، مهما كانت صداقتك لتاكر ..

ـ لو فعلت هذا فكيف كان يمكن ان أثق بتصديقهم لكلامى ؟ . انى اعلم أنباء مفصلة عن المؤامرة . وما كان بوسعى أن أقدم الدليل على شيء . وكانت أقوال تاكر فى هذا الشأن ترجح أقوالى نظرا لتاريخى القديم . ولذلك لزمت الصمت ولم أشأ أن أبوح بشيء عن تلك المؤامرة ..

فقال الدوق بسماحة :

ـ يكفينى تأكيدك هذا . ولعمرى انى أقدر دقة مركزك وارى كيف انسقت الى هذا الخطر . وأول واجباتنا فى هذا الصدد هو انقاذك من ورطتك الحالية . يجب ان تفعل الان ما كان الواجب يحتمه عليك فى أول الامر . يجب أن تقصد الى رجال العدالة ، وتبين لهم موقفك بصراحة كما فعلت معى ..

ـ لكنهم لن يصدقونى ..

فقال الدوق باسما :

ـ لن يصدقوك . اذا لم تجد أقوالك ما يعززها . لكنهم لن يرتابوا فى حسن نواياك اذا أيدك شخص من ذوى المكانة والنفوذ ، وسينتهى الامر عند هذا الحد . ولن يفكر أحد فى اتهامك بعد ..

حدق هولز فى الدوق وقد انتعشت آماله فجأة .. وقال :

ـ لعل سموك لا تقصد ان تقول انك . انك ستفعل هذا لاجلى؟

ازدادت ابتسامة الدوق رقة وقال :

ـ لكن بلا ريب يا صديقى اذا كنت سأستخدمك فيما بعد ، وهو ما أرجوه ، فان هذا الاجرام هو تمهيد لازم ..

فوثب هولز على قدميه وهتف :

ـ كيف أعبر لك عن شكرى يا صاحب السمو ؟ .

فأشار له الدوق أن يعود الى مقعده . وقال له :

ـ سأريك بعد قليل كيف تفعل ؟ . هناك شروط معينة لابد أن أستوفيها . هناك مهمة معينة أريد أن تقوم بها ..

ـ ما عليك يا صاحب السمو الا ان تعين هذه المهمة ..

ـ آه ! .. (وجعل الدوق يتفرس فى وجه الكولونيل قليلا) . لقد قررت فى رسالتك انك مستعد للقيام بأى عمل ، وبأية خدمة .

ـ انى قلت هذا .. واكرره الان ..

ـ آه ! .. ان ورطتك تشابه ورطتى . كلانا فى مأزق حرج ، والقياس على الفارق ، وفى وسع كلينا أن يخدم الاخر .

ـ هل اصدق اذنى حقا ؟ .

ـ نعم .. والمسألة تتوقف عليك . أنا لا أدرى كم أبقت الاسفار والنوازل فى نفسك مما يسميه الناس التدقيق والنزاهة ..

فقال الكولونيل هولز فى شىء من الازدراء :

ـ لم تبق فى نفسى شىء من هذه الاعتبارات يا صاحب السمو .

ـ بديع . ومع ذلك فقد تجد هذه المهمة غير محببة الى ذوقك ..

ـ أنا أرتاب من هذا . والله يعلم انى لم اعد أكترث بشىء هذه الايام . لكنى سأصارحك اذا وجدت فى هذه المهمة مالا يرضينى .

ـ هو ذاك .. وهذا ما يجعلنى احذرك اولا ، فانه اذا عن لك أن ترفض ، فلتقل كلمة (لا) بغير جلبة ولا ضوضاء ، حتى تكفينى مؤونة هياج لا مبرر له فى سبيل الفضائل والمبادىء ..

حدق هولز فى الدوق لحظة وقد أزعجته لهجته . ثم ضحك قائلا :

ـ لم تبق فى نفسى فضيلة أهيج فى سبيلها ..

ـ هذا من حسن الحظ ..

وجلس الدوق فى مقعد مواجه للكولونيل . وقال له :

ـ هل سمعت من قبل عن سيلفيا فاركارسون ؟ ،
دهش الكولونيل للمرة الثانية . ثم اجاب بعد قليل وهو يفكر :

ـ سيلفيا فاركارسون ؟ . سمعت هذا الاسم .. آه .. نعم هي تلك السيدة التى كانت فى المقعد المقفل وانقذها سمو الدوق من اعتداء الغوغاء فى شارع بول يوم أن تقابلنا .. نعم .. نعم انى سمعت اسمها يتردد فى ذلك الحين ، واحسب انها ممثلة خليعة من ممثلات مسرح « الدوق » . لكن ما شأنها معنا ؟ .
ـ لها شأن خاص معنا ..
ثم نهض الدوق من مقعده واستطرد فى صوت أجش منفعل :

ـ انت فى شخصى رجلا يتمتع بسطوة كبيرة ونفوذ عظيم . لكن فى الحياة أشياء معينة اشتهيها دون أن تكون لى قدرة على نيلها . وسيلفيا فاركارسون واحد منها . فان هذه المرأة الخليعة تعذبنى بتصنعها الشرف ، وتظاهرها بالعفة والفضيلة . ومن هنا كانت حاجتى الى مساعدتك ..
سكت الدوق . فحدق فيه الكولونيل . ودب فى وجهه المتقع لون يسير . ثم تكلم اخر الامر ، فقال فى صوت بارد ساكن :

ـ ان سمو الدوق لم يقل ما فيه الكفاية ..
ـ عجبا ! .. وماذا يراد ان اقول أكثر من هذا ؟ . الا تفهم انى أنوى أن أضع حدا لهذا الموقف ؟ . وان أحطم غرور هذه الخليعة ؟ .
فضحك هولز ضحكة قصيرة وقال :
ـ أحسب اننى فهمت قصدك من هذه الناحية . لكن الذى لم افهمه هو دورى فى هذه المسألة . هل لسمو الدوق أن يبين ما يقصد ؟ .
ـ ما هذا السؤال يا رجل ؟ . انى أريد اختطافها ! .
جلس الاثنان يتبادلان النظر فى صمت وسكون . وقد خلا محيا الكولونيل من كافة الدلائل . حتى ان الدوق عجز عن تقدير شعوره ازاء هذا الاقتراح . ثم تقوست شفتا الكولونيل أخيرا وابتسم ابتسامة تشف عن الازدراء . وقال ساخرا :
ـ لكن فى مسألة كهذه ارى ان خبرة سمو الدوق الواسعة تكون اكثر عونا وأكبر نفعا له منى ..
لم يحفل الدوق بهذه السخرية لشدة لهفته واهتمامه .. وقال :
ـ ان خبرتى ستكون مرشدا لك فى العمل ..
فقال هولز :

ـ فهمت ..
ـ وسأخبرك بشكل أوضح كيف أحتاج اليك ، وكيف يمكنك خدمتي ..

وأنشأ الدوق يقص على الكولونيل حكاية البيت المؤثث بشارع (الفارس) وطلب اليه ان يستأجر باسمه . حتى اذا تم ذلك كان عليه أن يأخذ الاجراءات اللازمة لحمل الممثلة الى ذلك البيت فى مساء السبت القادم ، بعد انتهاء تمثيلها لآخر مرة فى مسرح الدوق ..

ثم أختتم بكنجهام حديثه قائلا :

ـ سنأخذ العدد اللازم من الرجال ، وسيسهل عليك أن تستدرجها وتأسرها وهى فى طريقها الى داخل المقعد المقفل الى بيتها . وسنتكلم فى هذا الموضوع بتفصيل أوفى اذا قبلت أن تؤدى هذه الخدمة ..

تورد وجه الكولونيل . واحس بغصة فى حلقة . ثم تغلب عليه الغضب أخيرا ونهض لمواجهة الدوق العابث الماجن الذى تجاسر على ابداء هذا الاقتراح أمامه .. وزمجر قائلا :

ـ يا الهى ! .. هل أصبحت تنقاد لآثامك كما ينقاد الاعمى وراء كلبه ؟ .

تراجع الدوق الى الخلف ازاء هذا الوعيد الفجائى . وسرعان ما عاد الى كبريائه السالفة . فقال :

ـ انى حذرتك يا سيدى وقلت لك انى لن أقبل منك بطولة وادعاء ! . انك سألتنى خدمة . فاريتك كيف يسعنى أن أخدمك

فقال هولز وقد كاد صوته يختنق غضبا :

ـ خدمة ؟ . هل هذه خدمة يؤديها رجل شريف ؟ .

ـ ربما لم تكن . لكن من يقف تحت حبل المشنقة لا يجدر به ان يكون كثير التدقيق ..

فذهب تورد الكولونيل . وعاد الخوف الى وجهه . فلما رأى الدوق تأثره بهذه الذكرى لم يتمالك أن ضحك قائلا :

ـ يظهر انك لا تدرك يا كولونيل انه لا ورد بلا شوك . انك تنفر من اسداء خدمة يسيرة الى، فى حين انى فى مقابلتها سأفتح امامك أبواب الحياة والمستقبل الزاهر . أنت جئت فى الوقت المناسب . فى ابان حاجتى اليك . وحاجتك الى . قم بهذه الخدمة كما أريدها . وانى اعدك بأنى لن اهملك ..

فاعترض الكولونيل فى تلعثم :

ـ لكن هذا .. هذا عمل القوادين ! . الاسافل !

فهز الدوق كتفيه وقال :
ـ اف لك ! . لم تجهد نفسك فى تعريفه وتحديده ؟ .
ثم غير نبرات صوته وأردف :
ـ انى أترك لك الخيار . أمامك الذهب فى كفة . والتراب فى الكفة الثانية . ولن أضغط عليك فى اختيار أيهما ..

كان الكولونيل هولز نهبا مقسما بين الخوف والشرف ، ورأى بعين الخيال حبل المشنقة يلتف حول عنقه. وهكذا حمله الخوف على القبول . لكن فضائله القديمة التى جعلته يحتفظ بشرفه مصونا من كل لوثة ، وقفت فى وجهه حائلا دون القبول والاذعان ؛ وتصور فى خياله حبيبته نانسى سلفستر كما رآها آخر مرة فى نافذة غرفتها ، وقدر مبلغ خجلها وارتياعها لو أتيح لها ان ترى شروعه فى القيام بهذا العمل الكريه الوضيع . وهو الذى ارتحل عنها فخورا رافع الرأس لكى يهزم الدنيا ويحملها لها . وكم من مرة فى ماضيه لاحت له هذه الصورة وانقذته من شرور كانت نفسه تزين له ارتكابها . ولذا قال وهو يتحول كانما يهم بالذهاب :

ـ سأذهب فى طريقى ..
فقال الدوق منذرا :
ـ وهل تعرف الى أين يفضى بك ؟ .
ـ لا اهتم اقل اهتمام ..
ـ كما تشاء ..

وانحنى الكولونيل صامتا واتجه الى الباب وهو يجر قدميه وقد انطفأ فى نفسه بريق الامل.. وفى هذه اللحظة استوقفه الدوق قائلا :
ـ هولز .. انت أحمق ..
ـ عرفت هذا من زمن طويل . انى كنت أحمق حينما انقذت حياتك . وأنت تجازينى كما يجدر أن يجازى كل أحمق ..
ـ بل أنت تجازى نفسك ، وبيدك ..
ورآه الدوق واقفا مترددا . فدنا منه ..

والواقع ان الدوق كان فى أشد الحاجة الى معاونته كما رأى القارىء .. وقد جاء الكولونيل فى الوقت المناسب . واذا لم يستطع ان ينتفع به ويستخدمه لنيل غرضه فلن يجد فرصة أخرى . ولذلك قرر الدوق أن يستعين بكل تأثير ممكن حتى يتغلب على تردده . فوضع يده مترددا على ذراع هولز .. لكن الكولونيل تراجع منكمشا . ولم يدر أن الدوق وهو يسعى لكى

يتخذ منه آلة لتنفيذ مآربه ، انما كان نفسه آلة مسخرة فى يد الاقدار تحركها لغاية مقررة مرسومة ..

راح الدوق يحتال عليه بمختلف التأثيرات . فأخذ يغريه تارة بألوان الوعود ، ويخوفه تارة اخرى بما ينتظره من مصير أسود ، فلم يسع الكولونيل الا أن يعيد النظر فى موقفه ..

أخذ الكولونيل يسائل نفسه .. هل كانت حياته نقية من كل وصمة ، وشرفه مصونا من أى لوثة حتى يترفع عن هذا الدنس الى حد تقديم عنقه لحبل الجلاد ؟ .

ثم ما هو الدنس ؟ . اليست هذه الفتاة أمرأة متهتكة خليعة من نساء المسرح ، اخذت تراوغ الدوق وتعبث به حتى تنال منه اخر الامر أكبر مغنم ؟ . وقد صور له الدوق انه سئم مناوراتها ومراوغتها وأراد أن يضع حدا لتلاعبها وعبثها . وليس من شأنه أن يتحقق مما اذا كان هذا التصوير ينافى الواقع أو يطابقه ..

ان هذه الفتاة ممثلة . ومعنى هذا انها متهتكة . ولو كانت سيدة من ربات الفضائل والعفاف لاختلف الامر وكان له شأن آخر ..

على انه رأى من ناحية أخرى ان هذا العمل هو نذالة يفضل الموت دونها . لكن أين النذالة هنا وموضوعها امرأة هذا وصفها ؟ والى من يسىء حقا اذا قام بهذا العمل ؟ . سيسىء الى نفسه .. الى كرامة الجندى . وهذا العمل الذى يراد منه لا يليق الا بقواد مأجور . فهو عمل شائن . لكن هل كان الشنق أقل شيئا ؟ . فهل يسمح لهم بوضع حبل المشنقة حول عنقه ودمغ اسمه بوصمة العار الابدى رفقا بامرأة متهتكة من نساء المسرح لا يعرف حتى من تكون ؟ .

رأى بكنجهام محقا حينما نعته بالحماقة . وفجأة استدار وواجه الدوق قائلا فى صوت أجش :

ــ يا سمو الدوق .. أنا تحت أمرك ..

الفصل السادس عشر

تمهيـــد

رافق الدوق بكنجهام الكولونيل هولز الى دار المحكـــمة فى اليوم التالى ، وقرر انه يؤيد صحة اقوال الكولونيل بشأن علاقاته مع تاكر ،واضاف الدوق الى ذلك انه على استعداد لكفالة اخلاص هذا المتهم الذى يعده صديقا له . ولم تكن المحكمة فى حاجة الى اكثر من هذا . فقدقبلت بالاجلال شهادة هذا النبيـــل العظيـم

الذى يظكر بثقة الملك ، بل أعربت عن أسفها لانخداعها بتلك التهم الخبيثة الباطلة التى كدرت صفوالكولونيل ، وخلقت بعض المتاعب لسمو الدوق . ولم تتكلف المحكمة عناء التحقق من سوابق الكولونيل ازاء هذه الاعتبارات ، ولو فعلت لاثارت مشكلة عويصة خطيرة فى سبيل تبرئته ..

ولما نجا الكولونيل من الخطر الداهم الذى كان يهدده اخبره الدوق بكنجهام بأنه نظرا لتعذر ايجاد المنصب اللائق به فى إنجلترا بسبب ماضيه وبنوته لراندال هولز الاكبر ، فسيعمل الدوق على تزويده بالتوصيات اللازمة لكى يتقدم الى اصدقائه العديدين ذوى النفوذ فى فرنسا ، حيث يتسنى لمن كانت لهمثل مواهبه ان يرتقى الى مكانة سامية ، ولو انتهز الكولونيل هذه الفرصة كما يجب لضمن مستقبله وانتهت ايام شقائه . وما كان هولز نفسه يرتاب فى هذه الحقيقة . ووجد فيها حافزا له على نبذ اسباب التردد من نفسه والاشفاق من العمل الذى عهد بهاليه ..

وعقب انتهاء اجراءات المحكمة قصد الكولونيل هولز الى صاحب البيت الكائن بشارع (الفارس) واستأجر لنه داره لمدة سنة . ولم يكتم الرجل رأيه فى الكولونيل باعتباره على حظ كبير من الجنون لاقدامه على استئجار بيت فى قلب لندن فى وقت يهجرها اهلها فرارا من الوباء الفاتك الذى كان يزداد انتشاراكل يوم ويذهب بمئات الارواح . على ان الكولونيل لم يكترث بهذا الكلام ، وترك فى البيت اثنين من الفرنسيين الذين وضعهم الدوق تحت تصرفه لمعاونته ..

ولم يكن امام الكولونيل بعد هذا الاالانتظار حتى يوم السبت .. على ان الكولونيل قصد فى هذا المساء وفى المساء التالى الى حيث يقع مسرح (الدوق) واخذ يراقب الانسة فاركارسون عن بعد حتى يعرف اطوارها ، فألفاها فى المرتين تغادر المسرح بعد الساعة السابعة بدقائق ، ثم تستقل مقعدها المقفل الذى كان ينتظرها ، وتعود الى بيتها ..

وفى مساء يوم الجمعة قصد الكولونيل ثانية الى المسرح وانتظر نصف ساعة حتى ظهر المقعد المقفل يحمله نفس الرجلين المنوطين به دنا الكولونيل من الرجلين لكى يستدرجهما فى الحديث ، وكان قد بدل فى زيه حتى صار له مظهر الجندى الافاق الذى يميل الى مصادقة اى انسان ، ولما كانا يرغبان فى ارجاء الوقت بالكلام فانهما لم يخيبا ظنه ، ووجدا فيه معينا على التسلية وطرد اسباب الملل ..

راح الكولونيل يتحدث عن الحرب والطاعون ، وانتقل الى الحديث عن المحاباة الفاشية فى البلاط حيث تغدق المناصب على الاذناب ويحرم منها جندى قديم مثله . وأدار دفة الحديث بلباقة فى هذه الناحية حتى وجد الرجلان فيه مادة طيبة للسخرية من غروره والتهكم منه . وانتهى به الحديث الى دعوتهما لتناول شىء من الشراب فى احدى الحانات المجاورة ، فقبلا عن طيب خاطر اذ وجدا فى ذلك فرصة اخرى لاستغفاله ماديا كان استغفلاه ادبيا .

ولما افترقوا أخيرا لكى يذهب الرجلان الى المسرح للعودة بالمثلة أعلن الكولونيل انه وجد فيهما صديقين من خير الاصدقاء ، وقرر انه سيعود عن قريب للقائهما مرة أخرى . وقابل الرجلان هذه التحية بمثلها ، ولما ابتعدا عنه ضحكا استخفافا وقد أطربهما أن يجدا فى هذا المخلوق مغفلا هو مضرب الامثال فى الغفلة والبله .

وفى مساء اليوم التالى ، وهو يوم السبت ، قابل الكولونيل الرجلين عند باب مسرح الدوق ، ودعاهما الى شرب كؤوس من النبيذ الاسبانى فى حانة الامس ، فأثارت هذه الدعوة حماسة الرجلين وسارعا الى تلبيتها ..

ولما وصلوا الى الحانة الصغيرة ذهب بهما الكولونيل الى ركن مظلم غير مطروق ، وامر صاحبة الحانة باحضار ثلاثة كؤوس من النبيذ الاسبانى المعتق . فشرب الرجلان بشراهة وجعل كلاهما يلعق شفتيه بلسانه ، ولما امر لهما بكأسين أخريين أمسكا عن التهكم منه ، ولما تكرر الطلب للمرة الثالثة جعلا ينظران اليه فى عجب . فقال الكولونيل :

ــ لم تنظران الى هكذا ؟ . ربما تظنان انه ليس معى نقود أدفع منها حساب هذه الطلبات ؟ ! .

استولى عليهما رعب فجائى . فقال لهما :

ــ يا لكما من شقيين !. هل تجسران على الشك فى رجل شريف ؟ . هل يطلب الانسان الشريف خمرا ويعجز عن دفع الحساب ؟ . ليطمئن عقلكما القذر ! .

أخرج الكولونيل يده من جيبه بقوة ودفعها أمام أنظارهما ، وبسط راحته وهو يقوم بهذه الحركة ، فتناثرت منها بعض القطع الذهبية وتدحرجت فوق الخوان القذر ومنه الى الارض ..

غاص الرجلان خلف القطع الذهبية فى لمح المبصر ، وزحفا على أيديهما وركبهما حول أرجل الخوان سعيا وراءها . ثم رفعا رأسيهما أخيرا ووضع كلاهما قطعتين أمام الكولونيل .. وقال أحدهما :

ـ يجدر برفعتك ان تحتاط فى المستقبل حينما يكون معك نقود ذهبية ..
وقال الثانى :
ـ كان يمكن أن تفقد منها قطعة أو قطعتين ..
فقال الكولونيل بتعقل واطمئنان :
ـ هذا جائز فى وسط غير هذا . لكنى اعرف الاخوان الامناء واعرف كيف اختار أصدقائى ..
وتناول قطع النقود واعادها الى جيبه ..
لم يتكلم الرجلان ، وأخفى أحدهما ابتسامة غالبته . ورأيا أنهما أزاء مغفل كبير فى وسعهما ان يتمتعا على حسابه ما سمحت لهما غفلته ..
على ان أحدهما عبس وهو يتجرع من كأسه وقال :
ـ لا أظن هذا النبيذ جيدا كالنبيذ الاول ..
فتناول الكولونيل كأسه وشرب منها جرعة وقال :
ـ أنا رجل خبير بالخمر . لكن هذا نبيذ جيد ، وهو كالاول تماما ..
فقال الرجل :
ـ ربما كان عقلي هو الذى صور لى هذا الوهم ..
وارتابت صاحبة الخان من نظراتهم فدنت منهم . لكن الكولونيل استدعاها الى جانبه ودس قطعة ذهبية فى يدها . وقال لها بسخاء :
ـ هذا حسابنا ..
ففرت المرأة فاها دهشة من هذا الكرم . لكنها حيته باحترام وانسحبت فى الحال وقد اعتقدت أن الظواهر خداعة حقا ..

واستأنف الكولونيل حديثه ، وبعد دقائق تثاقلا جفنا جاك ، (أحد الرجلين) . ووجد عناء فى ابقاء عينيه مفتوحتين . ولم يكن حظ رفيقه نات بأحسن من حظه . وما لبث جاك أن استسلم للخدر اللذيذ الذى استولى عليه ، فوضع ذراعيه فوق الطاولة وأسند رأسه فوقها ..
انزعج زميله نات . وحاول ان يوقظه قائلا :
ـ جاك ! . جاك ! . يجب أن نحمل السيدة الى البيت ..
فقال جاك وهو يستسلم للنوم :
ـ لتذهب الى جهنم ..
فتطلع نات الى الكولونيل ذاهلا . وبذل جهدا للكلام قائلا :
ـ شربنا كثيرا .. لم نتعود شرب النبيذ ..

وأبدى محاولة ضعيفة للنهوض . فعجز ، ثم استسلم أخيرا
وتوسد ذراعيه كرفيقه الذى كان يغط فى النوم . ونام بدوره ..
استغرق الرجلان فى النوم . ودفع الكولونيل
هولز مقعده الى الخلف ونهض وجعل يتأملهما . وخطر له أن
يستعيد منهما القطع الذهبية التى كان واثقا انهما أختلساها ..
لكنه رأى أخيرا ان هذه قسوة لا مبرر لها ..

سار الكولونيل مترنحا . ولما سمعت صاحبة الخان حركته
تقدمت الى ناحيته . فأمسكها باحدى ذراعيه ، ودس فى يدها
قطعة أخرى من النقود ، فكادت المرأة تذهل . غير انه اشار الى
النائمين وقال لها متعلثما :

ـ أصدقاء طيبون . هم أصدقائى . سكروا كثيرا . لم يتعودوا
شرب النبيذ . دعيهم ينامون بهدوء ..

فقالت المرأة وهى تضم راحتها على قطعة النقود :

ـ نعم يا صاحب الرفعة . يمكنهم ان يناموا بكل راحة ..

جعل هولز يتفرس فيها بامعان . وقال لها بلهجة المخمور :

ـ أنت طيبة . أنت امرأة طيبة . امرأة حسناء ! . دعيهم
ينامون بهدوء .. بارك الله فيك ..

حسبت المرأة انه سيتبع هذا الكلام بقبلة . غير انه خيب
ظنها .. فقد تركها وواصل مسيره مترنحا . ودار على عقبه
مرات حتى خرج أخيرا من الحانة ..

وبعد أن ابتعد عن الحانة بمسافة وقف فى مكانه مهتزا متمايلا
ونظر خلفه . ولما لم يجد أحدا يراقبه استأنف طريقه بخطوات
متزنة بعد أن زايله سكره المصطنع . والقى من يده قارورة صغيرة
تحطمت فوق الارض ، وكانت تحتوى على المخدر الذى دسه فى
النبيذ لضيفيه اثناء انهماكهما فى استرجاع النقود التى سقطت
على أرض الحانة ..

ودقت الساعة السابعة حينما مر امام الباب الخلفى لمسرح
(الدوق) فالقى المقعد المقفل لم يزل خاليا فى انتظار خروج الانسة
سيلفيا فاركارسون ، ورأى رجلين على مسافة من مكان المقعد
كان الناظر يحسبهما الخادمين المكلفين بحمله . وكان كلاهما
يرتدى ملابس مشابهة لملابس الرجلين الذين خدرهما الكولونيل فى
الحانة ، كما كانا يلبسان قبعتين عريضتين اسدلتا على جانب من
وجهيهما ، فكان منهما ستار يحجب ملامحهما الى حد ما ..

سار الكولونيل متسكعا حتى دنا من الرجلين . وكان الشارع
الضيق خلوا من المارة . وسألهما :

ـ كل شىء على ما يرام ؟ .

فأجاب أحدهما :

ــ ان الجمهور فارق المسرح منذ عشر دقائق ..

ــ ليذهب كل منكما فى مكانه اذن . انتما تعرفان ما يجب أن يقال . اذا ألقيت عليكما أسئلة ؟ .

أومأ كلاهما برأسه ايجابا . وأخذا يسيران الهوينا حتى وصلا قرب المقعد المقفل . وكل الظواهر تدل على انهما حاملاه . وكانت القصة التى أوصيا بسردها . هى أن جاك الم به مرض ، ويخشى أن يكون الطاعون . وان زميلـه نات بقى بجـانبه للاشراف على حالته ، وطلب منهما أن يخلفاه وزميله فى حمل المقعد ..

ولجأ الكولونيل الى مدخل أحد المنازل واختبأ فيه منتظـرا خروج الممثلة . وكان قد علم من جاك وصـاحبه انها سـتتأخر قليلا عن موعد خروجها المألوف بسبب حزم أدواتها عقب الحفلة النهائية التى تقرر اقفال المسرح بعدها ..

طال انتظار الكولونيل اكثر مما قدر . وارخى الظلام سدوله، ولم يستاء الكولونيل من هذا التأخير . فكلما تقدم الليل وتكاثف الظلام كان هذا أدعى الى نجاحه فى مهمته . وهكذا بقى فى مكانه منتظرا مع خادمى الدوق بكنجهام المتنكرين فى زى حاملى مقعـد الممثلة ..

وأخيرا ظهرت الممثلـة على باب المسرح فى منتصف السـاعة التاسعة . وكان يرافقها الممثل بيترتون ويتبعها بواب المسرح .. ووقفت قليلا تصدر تعليماتها الى البـواب بشـأن أدواتها . ثم صحبها بيترتون الى المقعد المقفل . وكان الرجلان قد أسرعا الى المقعد على أثر رؤيتها خارجة . فوقف أحـدهما أمامه ، والثانى خلفه ..

جمعت سيلفيا اطراف ردائها ودلفت الى داخل المقعـــد ، وانحنى بيترتون أمامها مودعا . ثم رفـع الرجـلان المقعـد على أكتافهما بواسطة الايدى الخشـبية المزدوجة ، وسـارا بها الى الامام ..

الفصل السابع عشر

اختطـــاف

واصل الرجلان سيرهما بالمقعد . وفيمـا هما ينعطفـان فى الشارع الضيق المؤدى الى ميدان سالسبورى ظهر أمامهما فجأة من خلال الظلام رجل ، هو الكولونيل هولز الذى سبق الموكب الى هذا المكان . وقال وهو يتقدم الى الامام:

ــ الى الخلف ! . لا يمكن المرور . يوجد شغب فى الشارع بخصوص منزل موبوء بالطاعون فتح عنوة . والوباء منتشر منه فى جميع النواحى . لا يمكنكم أن تمروا من هنا ..

توقف حاملا المقعد . وقال الامامي :

ــ فى اى طريق نذهب اذن ؟ .

فأجاب الرجل :

ــ الى اين تقصدون ؟ .

ــ الى ميدان سالسبورى ..

ــ ان طريقى فى هذه الوجهــة . يجب أن تذهبوا عن طريق شارع (فليب) كما سأفعل .. هيا اتبعونى ..

تقدم الرجلان فى الشارع الذى أشار اليه . واستأنف الرجلان السير فى الجهة التى أشار اليها . وكانت الانسة سيلفيا فاركارسون قد مالت الى الامام فى مقعدها وسمعت المحاولة السالفة الذكر . ولم تكن قد لاحظت عند ذهابها الى المسرح بيتا مقفلا فى الشارع الضيق الذى ظهر الرجل منه . لكنها لم تعجب من ذلك . فان المنازل الموبوءة تتزايد كل يوم . ولم تتمالك أن تنفست الصعداء اذ رأت أن اغلاق المسرح سيتيح لها الفرصة لمغادرة المدينة الموبوءة الى هواء الريف النقى ..

عادت سيلفيا فى مقعدها الى الخلف وهى تتنهد اعياء . ولما اجتاز الموكب شارع فليب رأت سيلفيا فجأة انهم يواصلون السير الى الامام فى اثر الرجل الطويل القامة الذى تطــوع لارشادهم ، بدل الانثناء الى اليمين . فمالت سيلفيا الى الامام ونادت الرجلين لكى تنبههما الى الغلطة. لكنهما لم يعيرا نداءها اهتماما. واستمرا فى سيرهما الى الامام ..

صاحت سيلفيا فى الرجلين . بيد أنهما واصلا التقدم وكأنهما اصيبا بالصمم . واتجه الموكب الى النهر . فرأت سيلفيا أخيرا انه يحتمل وجود طريق لم تكن تعرفه ، هو الذى يسلكه الرجلان ؟ ولذلك انتظرت صابرة ..

طال السير ، ولم يصل الموكب الى مناطق معروفة للفتــــاة، فتزايدت حيرتها ونادت فيهما قائلة :

ــ قفا ! .. أنتما تسيران فى طريق اخر ! .

ولما رأت أنهما لا يكترثان لندائها هتفت :

ــ اتركا المقعد فى الحال ! .

بيد انهما لم يطيعا ، بل اسرعا فى الســـير فانزعجت الفتاة ؟ ونادت وهى تمد يدها :

ـ نات ! .. نات ! ..

جاوبها سكون تام . فتسرب الشك الى نفسها . وكان الرجل الطويل القامة الذى تقدم الموكب قد تباطأ فى سيره حتى كاد المقعد يدركه ، فحاولت سيلفيا أن تنهض وأن تفتح باب المقعد . لكن لم يتحرك السقف ولا الباب . وهنا زال كل شك بقى فى نفسها . فأخذت تصرخ مستنجدة حتى دوت صرخاتها السكون السائد . وعند ذلك وقف الرجـل الطويل وهو يلعن ، وأمـرا الرجلين أن يضعا المقعد على الارض ..

فى هذه اللحظة لمع ضوء مصباح عند ناصية شارع مجاور . وبدا من خلال الضوء أشباح ثلاثة أو أربعـة رجـال استوقفهم صراخ الفتاة فخفوا لنجدتها ، وقد استلوا سيوفهم وتقدموا الى ناحية المقعد ..

أمر الكولونيل هولز الرجلين بحمل المقعد ومواصلة السير ، وتقدم مسرعا أمامهما . بينما جعلت سيلفيا تتابع صرخاتها وهى تضرب بقبضتها سقف المقعد وبابه . ولم تفتهـا رؤية القـادمين الذين ارسلتهم السماء لنجدتها فى هذا الوقت ..

كان القادمون الثلاثة من الشبان العائدين الى بيوتهم يتقدمهم فتى بمصباح ينير لهم الطريق . وغلا دم الشباب فى عروقهم فى هذه اللحظة وأثار حميتهم للدفاع عن فتاة فى ضيق ..

لكن الكولونيل هولز كان مستعدا للقائهم . فانه ما كاد اولهم يدنو منه وهو يلوح بسيفه آمرا بالوقوف حتى صمد الكولونيل له وقال بازدراء :

ـ قف انت يا احمق !.. ارجعوا كلكم ان كنتم تحبون الحياة!. اننا ذاهبون بهـذه السيدة المسـكينة الى بيتهـا . فهى مصابة بالطاعون ..

وقف الشبان فجـأة وكفوا عن تقـدمهم السريع . بل انهم تراجعوا الى الخلف خطوات . وقد تملكهم خوف فجائى . فقد كانوا مستبسلين امام اندادهم من الرجال . لكنهم جبنوا امـام الطاعون الفاتك ..

ولمـا سمعت سيلفيا هذه الـكلمات ورات تأثـيرها فى هؤلاء المنقذين مالت فى المقعد الى الامام . وصاحت رعبا :

ـ هو كاذب ! .. هو كاذب ! .. لست مصابة بالطاعون ! .. اقسم انى غير مصابة ! .. لا تصدقوه يا سادة ، انقذونى من هؤلاء الاشقياء ! . انقذونى بحق الشهامة ! . لا تتركونى والا هلكت ! . وقفوا يحـدقون متـأثرين بهـذا التوسـل ، على انهم كانوا

مستسلمين للتردد . فخاطبهم هولز قائلا فى كآبة :
ـ هى مختلة الشعور مسكينة ! .. أنا زوجها يا سادة ! ..
وهى تحسبنى عدوا . وقد علمت أن هذه الظواهر مألوفة فيمن يصابون بهذا الداء المخيف ، ومن واجبى محافظة على صحتكم أن أقرر لكم انى أخشى أن أكون أنا نفسى قد أصبت بالعدوى ؛ فأرجوكم اذن الا تعترضونى ، وان تقفوا جانبا حتى نواصل سيرنا الى البيت قبل أن تخور قواى ..

وكانت سيلفيا فى هذه الاثناء تؤكد كذب هذه الدعاوى وتتوسل الى الشبان أن يتدخلوا لانقاذها ..

واذا كان الشبان يرتابون فانهم لم يجرؤوا على التثبيت من الحقيقة ، وفوق هذا فان لهجة الفتاة الجنونية أيدت لهم أقوال الرجل فى شأن اختلال شعورها ، ووقفوا مكانهم لحظة مترددين ، وفجأة طغى الخوف والجزع على أحدهم . فهتف :
ـ لنبتعد !.. لنبتعد !..

ودار على عقبيه وابتعد مسرعا ، وما هى الا لحظة حتى اقتدى به زميلاه وابتعد الجميع للنجاة بحياتهم من خطر الوباء ..

عادت سيلفيا فى المقعد الى الخلف منهوكة القوى وقد أيقنت من هلاكها . على انه ما كاد أحد الرجلين يفتح باب المقعد بأمر الرجل الطويل القامة حتى وثبت سيلفيا الى الامام وهمت بالفرار ، لكن الرجل الثانى امسك بها ، بينما لف زميله منديلا كبيرا حول رأسها . ثم قيد الاثنان يديها خلف ظهرها وأعاداها الى المقعد وأغلقا بابه ..

جلست سيلفيا عاجزة عن الحركة ، تكاد أنفاسها تختنق بتأثير المنديل ، واحتجب الطريق عن نظرها ، . وكل ما كانت تعلمه فى هذه اللحظة هو أن المقعد يتحرك بها ..

انعطف المقعد فى عدة شوارع ، ولما وصل أخيرا الى شارع (الفارس) وقف الرجال امام بيت فخم . واستقر المقعد على الارض . ورفع أحد الرجلين سقفه وفتح بابه ، وامتدت يدان الى داخل المقعد لحملها . فحاولت سيلفيا أن تقاوم لاخر مرة فى جهد المستميت ، لكن الرجل تغلب عليها . وأحست بنفسها ترفع بذراعين قويين ..

حملها الكولونيل هولز الى داخل البيت ، فاجتاز بهوا رحبا وقف فيه رجلان صامتان هما خادما الدوق بكنجهام ، ودلف بها الى غرفة مربعة فاخرة الاثاث ، تتوسطها مائدة عليها عشاء مجهز ، ويضيئها شمعدان كبير موضوع فوق المائدة . وللغرفة نافذة كبيرة

مطلة على الشارع محكمة الاغلاق ، وتحت هذه النافذة أقيم سرير من خشب البلوط المنقوش ، مفروش بوسائد من المخمل القرمزى

حمل الكولونيل الانسة سيلفيا الى هذا السرير ووضعها فوقه . ثم أخذ يفك قيود يديها ..

انهمك الكولونيل هولز فى هذه المهمة شاحب اللون ، مطبق الشفتين .. وقد سال العرق فوق جبينه بتأثير الجهد الذى بذله .. ولم يكن الكولونيل قد فكر فى هذا العمل الذى قام به لانهماكه حتى الان فى اتمامه .. على أنه لم يلبث فجأة حينما انحنى فوق هذا الجسد الرقيق النحيل ، ونفذ الى أنفه شذى العطر الذى كانت تتعطر به ، لم يلبث أن تذكر انوثتها وضعفها ، واشتد تأثره من هذا العمل واحس باشمئزاز شديد يستولى عليه .

ابتعد هولز عنها لكى يغلق الباب .. وطرح قبعته وعباءته وهو يتقدم وجعل يجفف العرق الذى سال بغزارة فوق وجهه .

وفيما هو يفعل ذلك نهضت الفتاة على قدميها بعد ان صارت طليقة اليدين .. وعالجت نزع المنديل عن وجهها .. فسقط فوق كتفيها أخيرا .. ووقفت فى مكانها منتصبة القامة .. لامعة العينين ، تتنفس بجهد ، وخاطبت خاطفها بلهجة الغضب :

ـ دعنى ارحل يا سيدى فى الحال !. والا دفعت ثمن هذا الاجرام غاليا !.

أغلق هولز الباب والتفت لمواجهتها بينما استطردت قائلة :

ـ اذا لم تتركنى أرحل فى الحال .. فسيكون ..

وكفت فجأة عن اتمام جملتها .. ومالت الى الامام وقد استولى عليها ذهول شديد طغى على غضبها وخوفها وقالت أخيرا فى صوت أجش :

ـ من أنت .؟ ما .. ما اسمك ؟

حدق هولز بدوره ، وعجب مما حملها على القاء هذا السؤال .. وكانت واقفة فى الظلام . بينما سقط ضوء الشمعدان على وجهه وكشف ملامحه وفيما كان يفكر فى اختلاق اسم يجيب به عن سؤالها وفرت عليه هذا العناء قائلة فى صوت مروع :

ـ انت راندال هولز !.

تقدم خطوة الى الامام جازعا لاهث الانفاس متقلص السحنة .. بينما تابعت كلامها بنفس اللهجة :

ـ راندال هولز !. انت !.. انت من دون الناس !.. تعمل هذا العمل !.

زال ذهولها وانتابهـــا رعب متزايد ... ثم حجبت وجهها براحتيها .
واقتدى بها هولز وحجب وجهه بيديه . وتلاشت من امام عينيه صورة الغرفة بمعداتها الشائنة . وبرزت من الماضى صورة حديقة ازهرت فيها أشجار الكرز، وفى تلك الحديقة فتاةمشاكسة جميلة تتأرجح فوق أرجوحة وهى تغرد بصـوت عـذب رخيم كتغريد البلابل . والفى نفسه وهو فتى فى سن العشرين يسارع اليها ماخوذا بغنائها . ثم رأى نفسه يغادر القرية حاملا معـه قفازها الذى لم يزل يحتفظ به تذكارا منها ، حيث قرر ان يغزو الدنيا لاجلها ويهزمها ويعود بها اليها .
راى سيلفيا فاركارسون المثلة فى مسرح (الدوق) . رآها كما كانت فى تلك الايام البعيدة الخالية ، وقت ان كانت تدعى نانسى سلفستر ..
كيف يصدق ان تلك الفتاة الصغيرة قد استحالت حتى أصبحت ممثلة ذائعة الصيت يتردد اسمها على كل لسان ... وصارت تعرف باسم سليفيا فاركارسون ؟.
جعل هولز يترنح الى الخلف حتى استقر ظهره على الباب المغلق .. ووقف فى مكانه زائغ العينين مشدوها مسلوب العقل رعبا من هذا الموقف الذى ضمهما .. ولم يتمالك ان هتف :
ـ رباه !. نانسى !. حبيبتى نانسى !.

الفصل الثامن عشر

حديث

تقدم هولز الى الامام مترنحا .. وجثا على ركبته امامها.
وهتف فى صوت مختنق :
ـ نانسى !. نانسى !. انا لم اعرف .. أنا لم احلم .
بددت هذه الكلمات الشك الذى كان يغالبها .. وحققت ظنونها . فقالت فى صوت أجش رنان :
ـ لم تعرف !. اذن فالمسألة كما تصورت !. وقد ارتكبت هذا العمل لحساب شخص اخر !. انك تسفلت حتى اصبحت تقوم بدور القواد المأجور !. وانت راندال هولز !..
صدر منه أنين موجع ينبىء بما يعانى من الالم والعذاب .. وجعل يزحف على ركبتيه حتى دنا منها . وقال
ـ نانسى !. نانسى !. لاتصدرى حكمك قبل ان تسمعى .. قبل ان ..

لكنها قاطعته قائلة :
ـ اسمع !. الم تخبرني بكل شيء .. هل تحسب انى لا اعرف من هو الوغد الذى استخدمك للقيام بهذا العمل الوضيع ؟. لم تكن تعرف أن التى اختطفتها هى أنا .. انا التى أحببتك من قبل .. حينما كنت نظيفا شريفا !.
اواه . يا نانسى ..!.. رباه .
ـ لكنى لم أحبك فى حياتى بقدر ما امقتك الان بعد ان استحلت ذلك المخلوق القذر ، وقد أردت من قبل أن تهزم الدنيا لاجلى !. لم تعرف ان التى استؤجرت لاختطافها هى أنا ! وقد بلغ منك انعدام الحياء والشرف ، الى حد المجاهرة بهذا الجهل تبريرا لعملك !. لا بأس ها أنت ذا قد عرفت .. ولعل فى هذا العرفان عقابا لك .. أرجو اذا بقيت فى نفسك ذرة من الحياء أن تلهب نفسك وتحرق ضميرك ، أن بقى لك ضمير . قم يا رجل ! هل الركوع على الارض يغير من دنسك ويخفف من وضاعتك ؟.
نهض على قدميه فورا . لا امتثالا لامرها . ولكن ادراكا لحاجته الى العمل العاجل .. وطرح الان عن نفسه كل اسباب التأثر .. وقال فى تجلد فجائى :
ـ ان ما فعلته فى وسعى ان انقضه . هل نقف هنا نقضى الوقت فى الكلام ، وكل دقيقة تمر تضاعف الخطر عليك ؟. تعالى .. ما دمت جئت بك الى هنا ، فمن هنا سأخرجك فورا ، مادام امامنا وقت لذلك .
تراجعت منكمشة امام اليد التى مدت لها .. ولمعت عيناها غضبا واحتقارا وقالت :
ـ تخرجنى من هنا ؟. أنت ؟ وهل اترك نفسى لك ؟.
لكنه لم يتأثر باحتقارها فى هذا الظرف ، وقال لها بشراسة :
ـ هل تبقين اذن وتتركين نفسك لبكنجهام ؟ تعالى كما قلت لك !.
ـ معك ؟. أبدا !. ابدا !.
ضم يديه متوسلا وقال :
ـ الا تدركين أنه لا وقت أمامنا ؟ وانك اذا بقيت هنا هلكت؟ اذهبى وحدك اذا شئت !. عودى الى بيتك فورا .. لكن ما دمت ستعودين سيرا ، وقد يتبعونك ، فاسمحى لى على الاقل ان اتبعك حتى افعل ما فى طاقتى لضمان سلامتك .. انى أتوسل اليك !.
فقالت فى صوت هو مزيج من الضحك والبكاء :
ـ هل أثق بك ؟ انت ؟ بعد هذا ؟

ـ نعم .. بعد هذا . وقد اكون وضيعا كما تصوريتنى .
ولا شك انى كذلك .. لكن لا يمكن ان اكون وضيعا نحوك . وقد لا يجدى ان احتج بانى لم أكن أعرف ان التى توليت اختطافها هى أنت . لكن عليك أن تعتقدى انى على استعداد للدفاع عنك الان . الان بعد ان عرفت !. يجب أن تصدقينى . هل يمكن أن ترتابى بى فى شىء كهذا ؟. ما الذى يحملنى على حثك على الذهاب اذا كنت غير صادق فى نيتى ؟ تعالى ..

امسك بمعصمها !.. وحاول ان يجذبها الى الامام ، ولكنها قاومته ، فجعل يتوسل اليها بجنون قائلا :

ـ استحلفك بالله !.. قد يصل بكنجهام فى أى لحظة !..

اذعنت له هذه المرة .. وتطلعت فى وجهه المتقلص .. وسألته :

ـ هل .. هل أثق بك فى هذا ؟.. هل توصلنى الى بيتى سالمة ؟.. هل تقسم ؟..

فقال وهو يكاد ينتحب :

ـ انى اشهد الله على ذلك ..

انتهى عنادها .. بل انها أبدت تلهفا .. وقالت لاهثة :

ـ لنسرع !.. لنسرع اذن !..

جذب قبعته وعباءته .. وسار بها الى الباب ممسكا بمعصمها ..

وفى هذه الحلظة ، فتح الباب من الخارج ، وظهر امامهما الدوق بكنجهام منتصب القامة مورد الوجه ، ممسكا قبعته باحدى يديه ، واضعا الثانية على مقبض سيفه ..

تراجع الاثنان امامه .. وتخلى هولز عن معصم الفتاة وقد ادرك انه سيحتاج الى استخدام يديه ..

كان الدوق مكسوا بالحرير الفاخر .. ووقف فى مكانه يحدق فيهما مأخوذا بمنظرهما الغريب .. وجعل يردد نظره بين وجه سيلفيا المتقع ووجه الكولونيل المتصلب ، ثم تقدم خطوات وانحنى أمامها ، ولما اعتدل التفت الى الكولونيل قائلا وهو يشير بيده الى المائدة والدولاب الجانبى :

ـ أحسب ان كل شىء معد ..

تبع الكولونيل اشارته . ووقف لحظة كأنما يفكر فى معدات العشاء .. وانتهز هذه الفرصة فجعل يفكر بسرعة ..

كان يعلم ان خدم الدوق الفرنسيين الاربعة واقفون خارج الغرفة على استعداد لاخماد انفاسه لاول اشارة تصدر لهم من

الدوق ولم يكن هذا أول مأزق وقف فيه هولز فى أثناء حياته الحافلة بالمغامرات . لكن كانت توجد هذه المرة امرأة تعوق حركاته وتثير جزعه ورأى وجوب الحذر والتروى حتى لا يقضى عليه فتهلك من بعده .

أيقظه الدوق من تأملاته قائلا بصوت يشف عن التبرم :

ــ هل تقف مفكرا طول الليل ؟

التفت هولز اليه وأجاب بهدوء :

ــ كل شىء تام . فى متناول سموكم .

ــ يمكنك ان تخرج اذن .

انحنى هولز ممتثلا . ولم يجسر على التطلع الى نانسى . لكنه سمعها تلهث .. فايقن انها جزعت مما عدته صورة جديدة من صور ضعته ونذالته ..

سار الكولونيل متباطئا الى ناحية الباب ، يتبعه الدوق بعينيه عاجبا من هيئته التى لم يفهمها . ولما وصل الكولونيل الى الباب المفتوح وضع يده على حافته والتفت الى الدوق قائلا :

ــ احسب ان سمو الدوق لن يحتاج الى هذه الليلة ؟

فكر الدوق قليلا . والقى هولز نظرة على نانسى .. فرآها واقفة متسعة الحدقتين متقلصة الوجه مستندة الى المائدة حتى لا تسقط ، واضعة يدها على صدرها كانما تحبس العاطفةالثائرة التى كانت تضطرم فيه .

أجاب الدوق أخيرا بتؤدة :

ــ لا .. لكن يحسن ان تنتظر قريبا مع فرانسوا والباقين .

فقال هولز :

ــ لا بأس ..

وتحول لكى يذهب ..

لاحظ هولز ان المفتاح موضوع فى الباب من الخارج . فانحنى واخرجه من القفل . وقال للدوق :

ــ ربما كان سمو الدوق يفضل وضع المفتاح من الداخل .

فهز الدوق كتفيه بغير اكتراث .. بينما وضع هولز المفتاح فى القفل من الداخل .. ثم أغلق الباب بسرعة وأدار المفتاح فى القفل بهدوء ، ثم انتزعه ودسه فى جيبه قبل ان يفيق الدوق من تأثير الدهشة التى استولت عليه لشذوذ هذا التصرف .

تقدم الدوق خطوة الى ناحية الكولونيل ، وقال بحدة :

ــ ما هذا ؟.

وفى نفس اللحظة صدرت صرخة خافتة من نانسى التى ادركت فجأة مغزى هذا العمل ، وانتعشت آمالها من جديد فاخرجتها من وهدة اليأس التى اطبقت عليها .

استند هولز بكتفيه الى الباب وبدت على وجهه أمارات العزم والصلابة .. ثم القى عباءته وقبعته ثانية . وأجاب الدوق قائلا :

— أريد يا سمو الدوق أن اتحدث معك حديثا خاصا ... بعيدا عن تطفل خدمك .

لم تبد على الدوق دلائل الخوف والانزعاج .. بل وقف منتصب القامة موفور الكبرياء . وقال ببرود :

— تكلم يا سيدى !. اسمعنا تفسير هذه الوقاحة .. حتى نضع حدا لها .

فاجاب هولز بنفس الهدوء :

— لك ما تشاء .. ان هذه السيدة يا صاحب السمو هى صديقة لى . صديقة قديمة .. ولم اعرف هذا حتى .. حتى حملتها الى هنا .. ولما عرفت ذلك أردت اخراجها من هنا ثانية وكنت على وشك اتمام هذا العمل ، وقت ان جئت سموك .. وأنا الان اسألك ان تعدنى بشرفك الا تفعل ما يحول دون رحيلنا لا من ناحية سموك . ولا من ناحية خدمك .

وقف الدوق بكنجهام يتأمل الكولونيل طويلا دون ان يتحرك من مكانه حيث كان فى منتصف المسافة بين هولز والفتاة ، موليا ظهره اليها .. ولم يبد عليه من دلائل الانفعال سوى تورد يسير فى وجنتيه لكنه ابتسم ابتسامة غير سارة .. وقال وهو يضحك ضحكة قصيرة :

— لكن ما ابسط هذا !. وما أبدع هذا الموقف المسرحى ..! تقول صديقة قديمة لك ؟. اذن فليقف العالم مكتوف اليدين لذلك !.

ثم استطرد فى صوت متصلب :

— واذا رفضت منحك هذا الوعد ؟.. فماذا يكون .؟

فاجاب هولز :

— سيكون هذا من سوء حظ سموكم .

فقال بكنجهام فى دهشة يسيرة :

— هل تهددنى ؟.

— لك ان تفهم ذلك .

فتغيرت هيئة الدوق . وزايلته كبرياؤه .. ورن صـوته قائلا

ـ يا الهى .! كفى وقاحة يا رجل !. افتح هذا البـاب . واذهب فى الحال ، والا ناديت رجالى لتأديبك ! .

فقال هولز فى صوت هادىء :

ـ انى اغلقت الباب حتى لا يضطر سمو الدوق الى اتخاذ هذه الاجراءات غير اللائقة .. وأرجو سموكم ان تلاحظوا ان الباب قوى متين . وان قفله لا يقل عنه قوة ومتانة .. ولك أن تدعو خدمك . لكنك قبل وصولهم اليك ستكون فى قاع جهنم

ضحك بكنجهام .. وفى نفس اللحظة انتزع سيفه من غمده بسرعة البرق .. ووثب الى الامام .

كانت هذه الحركة فجائية .. وقد قصد بها الدوق ان يباغت خصمه ويشل مقاومته .. لكن الكولونيل هولز كان خبيرا بامثال هذه المواقف .. وقد توقع هذا الهجوم من جانب الدوق ... ولذلك ما كاد بكنجهام ينتزع سيفه ويهجم الى الامام ، حتى انتزع هولز سيفه فى نفس اللحظة ووقف موقف الاستعداد .

امتزجت صرخة نانسى الفجائية بصليل السيفين .. والفى الدوق سيف غريمه مسددا الى وجهه على اثر هجومه المفاجىء فاضطر للتراجع بسرعة وقد تلاحقت انفاسه قليلا .. ووقف كلاهما صامتا بضع لحظات ، يتبادلان النظر . ثم قال هـولز برزانة :

ـ يا سمو الدوق .. هذا موقف كفتك فيه مرجوحة .. وخير لك أن تعمل برأيى .

فضحك الدوق ساخرا وقال :

ـ هل تحسب انك تخيفنى بهذه الكلمات ايها الجنـدى الصاخب المهوش ؟. ان كفتك انت هى المرجوحة . أفتح الباب واخرج فى الحال والا مزقت امعاءك .

فقال هولز وقد كشر عن أنيابه :

ـ لم يخطر ببالى عندما انقذت حياتك فى تلك الليلة فى موقعه (ورشستر) انى سأضطر يوما الى انتزاعها .

فقال الدوق وهو يطبق عليه :

ـ هل تحسب انك تحرك عاطفتى بهذه الذكرى ؟

ـ ابدا .. لكنى ساحركك بشكل آخر ايها الخليع المستهتر

ثم التحم السيفان مرة ثانية ، واشتبك الاثنان فى قتـال مميت .

الفصل التاسع عشر

المعركة

انقض كلاهما على صاحبه وهو واثق من القضاء عليه .. فقد كان السيف هو حرفة الكولونيل هولز ومناط خبرته وبراعته وكان الدوق بكنجهام رغم نعومته من أقدر رجال السيف في انجلترا ولذلك أطبق على غريمه الكولونيل بشدة وعنف وهو يعتقد أنه سيتخلص منه في ظرف دقائق .. وكان ازدراؤه لصاحبه سببا في تهاونه وعدم التحوط كما يجب ..

ومن حسن حظ الدوق ان الكولونيل لم يفكر في قتله .. فقد قدر النتائج .. ورأى انه اذا قضى عليه فسيقع في أيدى رجاله الاربعة .. ويعرض نانسى للخطر .. ولذلك حصر كل اهتمامه في التمكن من الدوق ووضعه تحت رحمته حتى يضطره الى أن يعد بتركه يخرج مع الفتاة دون محاولة لصدهما .. وهذا هو السبب في ان الكولونيل تغافل عن الفرص التى سنحت له لقتل الدوق أثناء حملته عليه بشدة .. واكتفى بأن قرر أن يشل ذراعه ويعجزه عن الهجوم ..

على انهما ما كادا يلتحمان قليلا حتى رأى كلاهما من مقدرة صاحبه وتمكنه من فنون القتال ما جعله يمسك عن الاستهتار به والتهاون في مواجهته .. وأخذا يتقاتلان بحذر وعناية ..

وجلست نانسى سلفستر في مقعد في أقصى الغرفة مضعضعة الحواس لاهثة الانفاس تكاد تختنق جزعا واضطرابا .. وكانت وحدها شاهدة هذه المعركة الفريدة .. ورأت الدوق أول الامر موليا ظهره اليها .. بينما واجهها الكولونيل .. فرأت في عينيه ووجهه من دلائل التصميم والعزم الراسخ ، وآنست من رشاقة جسمه وخفة حركاته وبراعة ضرباته ، ما جعلها تتغلب على اضطرابها الى حد ما ، وأعاد اليها شيئا من الطمأنينة والأمل .

وفجأة حدث تطور في مجال القتال .. فان الدوق وثب بخفة الى اليسار ، قاصدا أن ينال الكولونيل في جانبه .. لكن هولز غير مكانه بسرعة البرق وتلافى هذه الضربة ..

وكانت نتيجة هذه الحركة أن نانسى صارت تنظر اليهما الآن من جانب . وفي هذه اللحظة فقط تذكرت انها أضاعت فرصة ثمينة لتوجيه ضربة لحسابها في سبيل استرداد حريتها .. فقد كان يمكنها أن تنتزع مدية من فوق المائدة وتغمدها بين كتفى

الدوق وقت أن كان موليا ظهره اليها .. وراحت تعنف نفسها لاضاعة الفرصة الفريدة من يدها ..

ولا يبعد ان شعور الدوق بالخطر من وجود احد خلف ظهره هو الذى حمله على تغيير موقفه .. وأخذ الآن يكرر هذه العملية عدة مرات مضطرا هولز الى التحرك معه لمتابعة مجال الضرب .. حتى وقف بكنجهام اخيرا متجها بظهره الى البـــــاب ، مستقبلا كلا من هولز والفتاة ..

وفى هذه الاثناء نفذ صليل السيفين مقترنا بحركات الاقـدام السريعة الى آذان الخدم الواقفين خارج الغرفة .. فانهال الطرق العنيف على الباب مصحوبا بالصياح والنداء .. وكان الدوق قد رأى حتى الآن من صلابة عود خصمه وقوة شكيمته ما جـعله يغير رأيه فيه ، وأدرك أن منازلته لا تخلو من الخطـر .. ولذلك وجد فى هذه الاصوات مشددا لعزمه ومشجعا لهمته. ورن صوته فجأة بهذه الكلمات :

ـ الى يا فرنسوا .. الى يا أنطوان ..!

فجاء صوت فرانسوا من خلال البـاب قائلا فى نبرات تشف عن الجزع :

ـ مولاى !..

فصاح بكنجهام :

ـ اقتحموا البـــاب ..

وعلى اثر ذلك انهالت على الباب ضربات قوية .. ثم سكتت الضربات وحاول الخدم أن يزلزلوه بأكتافهم .. لكن الباب كان من خشب البلوط المتين .. وما كانت هذه المحاولات اليسيرة تجدى فى اقتحامه .. ولذلك كف الخدم عن هذه الطريقة وتراجعوا عنه فتبين انهم ذهبوا لاحضار الادوات اللازمة لتحطيمه ..

صمم الكولونيل هولز حينما رأى هذا التطور ان يقتل الدوق قبل اقتحام خدمه للباب .. والا ضاع كل شيء .. وقـــد تكون نتيجة مقتل الدوق القضاء على هولز نفسه اما بأيدى خدم بكنجهام أو بمنطوق القانون .. لكن اذا تم هذا فان نانسى ستتخلص على الاقل من مضطهدها ..

وما كاد الكولونيل ينتهى الى هذا الرأى حتى شرع فى تنفيذه فورا .. وانقلب من موقف الدفاع واضعـاف قوى الدوق ، الى موقف الهجوم والقضاء عليه ..

توالت ضربات الكولونيل بعنف وشدة حتى كاد الدوق يعجز عن متابعتها وردها .. وأخذ يتخلى عن موقفه حتى تحت وابل

هذه الضربات .. لكنه حرص على الا يستند بظهره الى الباب كى لا يسمره الكولونيل فى مكانه ومن ثم يقضى عليه ..

وكان الكولونيل هولز حتى هذه اللحظة يبارز الدوق وفاقا لأصول المبارزة الفنية .. لكنه رأى بعد أن صمم على قتل الدوق وجوب التوسل بالحيلة للوصول الى هذه الغاية .. وتذكر فى هذه اللحظة خدعة كان قد تلقاها عن أحد أساتذة السيف الايطاليين الذى خدم معه فى الجيش الهولندى.. فقرر أن يستعين بها الآن.

تحرك الكولونيل الى اليسار .. وصوب ضربة عالية بطرف السيف موجهة الى عنق الدوق .. وكان الغرض من هذه الحركة ارغام بكنجهام على الدوران حتى يتقى الضربة .. وكانت الضربة فى ذاتها موهومة مصطنعة .. فان هولز لم يقابل سيف خصمه الذى مده لاتقاء الضربة الموجهة الى عنقه .. بل هبط بسيفه وبجسده فى نفس الوقت حتى تمدد على الارض ، رافعا جسمه على يده اليسرى .. وسدد هولز طرف سيفه بسرعة البرق بضربة عالية ، موجهة الى قلب الدوق . وكادت فى الواقع تخترقه وتقضى عليه ، لولا انه فى اقل من لمح البصر تلقاها بيده اليسرى، فشقت كمه .. ومزقت اللحم فوق المرفق ..

ولولا هذا الجرح لقضى على هولز .. فان هذه الخدعة التى استعان بها اما أن تنجح فى القضاء على خصمه أو تعرضه لضربة قاضية منه .. وكان فى وضعه الآنف الذكر معرضا لهذه الضربة. لكن الجرح الذى أصاب الدوق وما اقترن به من الذهول الفجائى فوت عليه هذه الفرصة . ولما أهوى الدوق على جسد الكولونيل المدد بسيفه لم يجده فى مكانه .. فقد راغ هولز فى لمح البصر ونهض على قدميه ..

استوى الاثنان على أقدامهما وهما يبتسمان ابتسامة مخيفة وامسكا عن الالتحام مقدار ثانية واحدة بعد نجاتهما معا من موت محقق . وفى هذه اللحظة انهالت على الباب ضربات عنيفة متلاحقة فانقض هولز على الدوق بضربات أشد عنفا وأفتك وقعا .. فقد استخلص من ضربات الخدم انهم استحضروا فأسا واخذوا يحطمون بها قفل الباب ..

أدرك هولز انه لم يبق أمامه وقت . وفهم بكنجهام ان سلامته أصبحت معلقة على اكتساب الوقت وافساد هجوم خصمه .. وأفلح الدوق مرتين فى اتقاء ضربات هولز بيده اليسرى التى كان الدم ينزف منها بغزارة ..

على انه بينما يكرر هذه العملية انتهز هولز الفرصة واطبق على الدوق حتى التحم الاثنان صدرا لصدر .. وامسك هولز مقبض سيف بكنجهام بيده اليسرى ، فشل حركته ، على انه قبل أن يحرك سيفه ويغمده فى صدر الدوق تمكن هو أيضا من امساك مقبض سيف الكولونيل بيده اليسرى المخضبة بالدماء .. فحاول هولز أن يتخلص من قبضته .. لكن الدوق ثابر على هذه القبضة باستماتة ، فقد علم أنه لو تخلى عنها لكان فى هذا هلاكه المحقق .

وهكذا أخذ الاثنان يترنحان ويتجاذبان ويتدافعان فى هذا الالتحام الهائل .. بينما كانت الضربات تزداد عنفا .. وتهالكت نانسى فى مقعدها مشدوهة تتبع هذا القتال الدموى بعينين زائغتين وقلب شديد الخفق ..

ثم وصل المتقاتلان اخيرا الى السرير .. فهوى الدوق فوقه جالسا .. لكنه ما زال ممسكا بمقبض سيف هولز الذى دفع ركبته فى بطن بكنجهام لكى يعلوه ويتمكن منه ..

واخيرا اخذت أصابع الدوق تتخلى عن قبضتها بتأثير الجهد العنيف الذى بذله هولز .. ثم انهالت على الباب ضربة فاصلة فنثرت شظاياه حول موضع القفل . ثم انفتح الباب بعنف واندفع خدم بكنجهام الى الداخل لانقاذ سيدهم ..

وفى نفس اللحظة خلص هولز يده بحركة عنيفة من قبضة الدوق .. ودفع عنه سيف بكنجهام وانثنى بسرعة حوله لمواجهة الخدم .. وتمكن لحظة من صدهم عنه .. لكن احدهم أهوى بهراوته على حد السيف فحطمه ، واطبقوا جميعا عليه فأصاب انطوان بضربة من مقبض السيف الذى بقى فى يده ألقته صريعا على الارض ، لكنه تلقى ضربة غادرة على رأسه ألقته مترنحا فوق المائدة ، ثم تخاذلت ساقاه وهوى على الارض غائبا عن الصواب .

ورفع أحد الخدم هراوته لكى ينثر مخه بضربة قاضية .. لكن الدوق استوقفه آمرا :

ـ لا ضرورة لهذا ..

كان الدوق ممتقع الوجه يتنفس بجهد من تأثير هذه الملحمة العنيفة لكنه فيما عدا هذا كان متمالكا نفسه ..

وهتف فرنسوا وهو يشير الى الدم الذى يخضب كمه :

ـ ذراعك يا مولاى ..

ـ هذا مجرد خدش ..

ثم أشار الى هولز الممدد على الارض الذى كان الدم ينزف من رأسه واستطرد :

ـ هات حبلا يا فرانسوا وقيده ..
فسارع فرانسوا لتنفيذ هـــذا الامر وخرج من الغرفة .. بينما استطرد الدوق :
ـ ولتحملوا انتم انطوان الى الخارج .. ثم عودوا الى هـــذا الغازى ، فقد احتاج اليه فيما بعد ..
امتثل الخدم وحملوا زميلهم انطوان .. بينـــا التفت الدوق بكنجهام الى نانسى وهو يبتسم ابتسامة غريبة ..

الفصـــل العشرون

الظـــافر

كانت نانسى قد مالت برأسها فوق ظهر المقعد اعياء واستولى عليها ذهول تام . لكنها ما كادت تسمع صوت الدوق حتى فتحت عينيها وتطلعت اليه .. فقال لها :
ـ يا عزيزتى سيلفيا .. انا شديد الألم لتعريضك لهـــذا .. لهذا المشهد غير اللائق .. ولا حاجة بى الى القول بأنه لم يحدث من تدبيرى ..
فأجابته متهكمة :
ـ نعم يا سيدى .. فى وسعى أن اصدق هذا ...
تفرس فيها لحظة وهـــو يعجب من انتعاشها الفجـــائى .. ثم قال متنهدا :
ـ آه يا سيلفيا .. ستغفرين لى هذه الاجراءات التى دفعنى اليها حبى .. وأرجو الا تحسبينى فظا غليظا .. ولا توجهى الى لوما ما .. بل اللوم كله موجه الى عاطفة الحب الفـــلابة التى تضطرم فى نفسى ..
وجلست فى مكانها رافعة الراس .. تخفى خوفها خلف قناع من الغضب والازدراء .. ثم قالت له فجأة باحتقار :
ـ الحب ..! هل تنعت هذا العنف حبا ؟..
فأجاب بحرارة واخلاص :
ـ ليس العنف .. بل هو الدافع الذى يحفزنى اليه ، والذى يحملنى على تحطيم الدنيا بأسرها اذا وقفت بينى وبينك ..
فأنا اريدك يا سيلفيا اكثر من اى شىء فى الحياة .. وما دفعنى الى هذا التخبط سوى شـــدة حبى وعميق اخلاصى .. وأقسم لك بكل مقدس انى لا اتردد فى جعلك دوقة اذا كان هذا فى مقدورى
نهضت الفتاة وهى تتحامل على نفســها .. وواجهته قائلة بازدراء :

ـ وهل هناك شيء مقدس لمن كان مثلك ؟.. سيدى .. ان اضطهادك لى قد جعلك مبغوضا كريها فى نظرى .. ومهما فعلت فلن تغير من شعورى نحوك وما قلت هذا الكلام الا أملا بأن تردك الى الصواب بقية من الرجولة أو مسكة من الكرامة .. حتى تكف عن اضطهادى وتعذيبى ..

والآن يا سيدى .. أرجو أن تأمر رجالك باحضار المقعد الذى جئت فيه لكى أعود ادراجى .. واذا أبقيتنى أكثر من هذا القدر فلتثق بأنك ستحاسب حسابا عسيرا عن هذا العمل ..

لم يكن الازدراء والنفور الباديان فى كلماتها الا ليزيد النار فى صدر الدوق ضراما .. فقال ساخرا :

ـ هل أتركك ترحلين بهذه السرعة ؟.. كيف يخطر لك هذا الرأى يا سيلفيا ؟.. هل بذلت كل هذه الجهود لوضعك فى القفص أيتها العصفورة الجميلة ، لكى أتخلى عنك وأدعك تطيرين من يدى ؟

فقالت بشراسة وعنف :

ـ أما ان تدعنى أخرج فى الحال .. والا جعلت لندن كلها تعرف عار عملك البشع !.. انك اختطفتنى .. وأنت تعرف عقوبة هذه الجريمة .. وسأعرف كيف أجعلك تدفع الثمن .. اقسم انى سأتسبب فى اعدامك شنقا .. ولو كانت دوقياتك لا حصر لها ان الاعداء لا ينقصونك .. وأنا لست مجردة من الاصدقاء ..

فقال ساخرا :

ـ أعداء !؟.. أصدقاء !؟.. هذا واحد من أصدقائك صريع فوق الارض .. ولن يكون باقى أصدقائك بأشد منه مراسا ..

ـ ان خدمك لن ينفعوك فى انقاذك من باقى أصدقائى ..

لذعته هذه الاهانة .. فاصطبغ وجهه بحمرة قانية .. لكنه قال فى نعومة خطرة :

ـ بل لقد احتاج حتى الى الخدم فى التغلب على اصدقائك .. كفى يا طفلتى .. كونى عاقلة .. وقدرى موقفك ..

فأجابت :

ـ انى أقدره تماما ..

ـ اسمحى لى أن أفند كلامك .. فأنت تقولين انك ستتهميننى باختطافك ، وتقررين ان عقوبة هذه التهمة هى الاعدام .. لكن أين شهودك ؟.. ان كلامك وحده بغير هؤلاء الشهود لاينهض دليلا على التهمة .. وهو كلام .. ممثلة !.. ثم هذا البيت .. انه ليس بيتى .. بل هو مستأجر باسم الشقى هولز الذى جاء بك الى هنا بالقوة .. فاذا أردت كبشا للفداء .. فربما كان هذا أفضل

من سواه .. ومهما يكن من شيء .. فان عنقه معرض لحبل الجلاد بسبب جرائم أخرى ..

ثم ماذا بعد ذلك ؟.. كيف جئت الى هنا .. فى بيت هـذا الرجل ؟.. انى جئت لانقاذك طبعا ، وبقيت لملاطفتك وتخفيف جزعك .. وستجد قصتى سندا لها فى وقائع الموضوع وسيقسم خدمى على صحتها .. فيرى النـاس من هذا انك ما اتهمتنى الا ظلما وعدوانا وسعيا وراء مطامع خبيثة .. وانك قابلت الخير بالشر ، وأردت استغلال شهامتى .. هل تبتسمين ؟.. لعلك ترين ان الشهرة التى الصقها الجمهور الفـاجر بشخصى تكفى لتكذيب قصتى !.. لكنى لا ارى رأيك .. ومهـما يكن فانا مستعد للقيام بهذه المجازفة .. بل بمجازفات أخطر منها لأجلك يا عـزيزتى ..

فقالت بازدراء :

ــ قد تكون بارعا فى فنون الكذب .. كمـا انت بارع فى فنون الشر الاخرى ، لكن الكذب لن يجديك اذا تجاسرت على استبقائى الآن ..

فقال وهو يدنو منها ملتهب العينين :

ــ اذا تجاسرت على استبقائك ..! يا لك من طفلة !..

تراجعت أمامه رعبا .. لكنها غالبت ضعفها وتصلبت أطرافها ووقفت أمامه رافعة الرأس عظمة وجلالا.. وبسطت أمامه ذراعها قائلة :

ــ قف مكانك يا سيدى .. قف مكانك .. ودعنى أذهب ..

تراجع الدوق قليلا لا طوعا لأمرها ، ولكن لكى يتمعن فى جمالها فقد بدت الآن فى عينيه أروع فتنة وسحرا .. وما لبث أن وثب لامتلاكها وهو يصيح صيحة قصيرة ..

راغت منه الى الخلف جزعا من هجومه الفجائى .. فانقلب المقعد الذى كانت جالسة فيه ..

ويظهر ان صوت سقوط المقعد نفذ الى سمع هولز المغمى عليه فانه تحرك حركة يسيرة .. وصدر منه أنين خافت ..

على ان الفتاة لم تنج من قبضة الدوق .. فانه أطبق عليهـا والتف ساعداه حول جسدها وذراعيها .. وضمها اليه حتى كاد يهصرها .. غير مكترث بالألم الشديد فى ذراعه الذى انكسب منه الدم غزيرا بسبب هذا العنف ..

وقفت بين ذراعيه مشلولة الحركة .. فقالت لاهثة :

ــ يا جبان .. يا وحش .. يا نذل ..

لكنه أقفل فمها بالقبلات وأخذ يقول :
ــ سميني ما شئت .. فأنت بين يدى .. ولن تنزعك منى قوى انجلترا كلها ، فافهمى هـــذا يا طفلة .. وسترين انى لم أستعبدك الا لكى أكون عبدا لك ..

لم تجبه بكلمة .. وانتابها مرة ثانية ذلك الاعياء الشديدالذى جعلها تجلس فى المقعد منهوكة القوى .. وأخذت تئن بصوت خافت وكانت فريسة عزلاء فى هذه القبضة الحديدية التى التفت حولها كأفعى خبيثة .. وراح بكنجهام يقبل عينيها وفمها وعنقها الذى كان المنديل ما يزال ملتفا حوله .. ولما كان هذا المنديل يعوقه فقد مد يده وانتزعه بحركة عنيفة .. فانكشف جيدها الجميل وصدرها المرمرى ..

أحنى رأسه فوق هذا الجيد كالأفعى الخبيثة .. لكن فمه الملتهب لم يصل اليه ، فقد تصلبت حركاته ووقف رأسه عن الانحناء ..

سمع أصوات خدمه عائدين الى الغرفة .. لكن لم تكن عودتهم هى سبب تصلبه وجحوظ عينيه رعبا ، وامتقاع وجهه وارتعاده من قمة رأسه الى اخمص قدميه ..

وقف لحظة مشلول الحركات .. ثم ارتخت ذراعاه رويدا عن ذلك الجسد الجميل ، وارتد عن الفتاة متباطئا منحنيا الى الامام وجعل يحدق تحديقا متواصلا وقد تدلى فكه وارتسمت على وجهه أبلغ آيات الرعب والهلع ..

وفجأة رفع يده اليمنى وأشار باصبع مرتجفة الى عنقها .. وقال بصوت أجش :
ــ الاعراض .. الاعراض !..
وما كاد الخدم يسمعون هذه الكلمة حتى وقفوا فى مدخل الغرفة وسمروا فى أمكنتهم كأنما استحالوا جمادا فجأة ..

وأفاق الكولونيل هولز من اغمائه .. ورفع رأسه المخضب بالدم وأداره حوله ، فرأى يد الدوق المرتعشة المشيرة الى عنق الفتاة ، وسمعه يردد كلمته السالفة بنبرات متهدجة وصوت راعش :
ــ الاعراض !..
وجعل الدوق يتراجع الى الخلف خطوة خطوة وهو يلهث جزعا .. ثم استدار فجأة الى رجاله وأمرهم فى صوت داو :
ــ الى الوراء .. الى الوراء .. ابتعدوا .. اخرجوا من هنا ،

هى مصابة .. وباه ! هى مصابة بالطاعون .. والاعراض ظاهرة عليها ..!
وقف الخدم لحظة يحدقون كسيدهم .. ورفعوا رءوسهم ليلقوا نظرة على الآنسة فاركارسون ، فاذا هى مستندة الى الجدار فى شبه اغماء واعياء ، واذا بقعة حمراء مدموغة على عنقها الجميل هى أعراض وباء الطاعون ..
وما كاد الدوق يصل اليهم حتى تحولوا عنه فى فزع فجائى فقد خشوا ان يكون هو نفسه أصيب بالطاعون. وسرعان ما فروا وهم يصرخون صرخات جنونية .. وغادروا الغرفة والدار كلها دون أن يعبأوا بأوامر الدوق الذى اسرع فى أثرهم يستوقفهم ويناديهم ..

الفصل الحادى والعشرون

تحت الصليب الأحمر

اغلق الباب الخارجى بصوت داو ، وتراكض الرجال مذعورين فى الشارع .. فكان لوقع أقدامهم دوى مسموع ، ثم تلاشت أصواتهم فى صميم الليل ..
وبقى الكولونيل هولز والمرأة التى التمسها السنين الطوال ثم كف عن البحث عنها بعد أن أعياه السعى .. بقى كلاهما فى هذه الغرفة التى جاءت بهما الاقدار اليها فى ظروف حافلة بأسباب الرعب والفزع ..
وما كان التقاؤهما الآن الا ليزيد الهوة بينهما اتساعا .. ويفصلهما الى الأبد .. هذا فضلا عن انها كانت الآن امرأة مدموغة بطابع الموت ..

فهل كان فى الدنيا مخلوق أشد منه نحسا ؟..
كان صوت اغلاق الباب عاملا جديدا لتنبيهه وايقاظه نهائيا من اغمائه ، فنهض على ركبتيه فى جهد اليم وجعل يتطلع حوله فى أرجاء الغرفة مذهولا زائغ الحواس .. وأزاح خصلات شعره عن جبينه وتطلع الى يده الملطخة بالدماء ، فعادت حقائق الموقف الى ذاكرته شيئا فشيئا ، وتذكر أخيرا أين هو وكيف جاء الى هذا المكان .. وما لبث أن نهض على قدميه ووقف لحظة مترنحا متمايلا .. وجعل يتطلع حوله جامد العينين كالثمل المخمور .

رأى نانسى واقفة امام مرآه مستطيلة فى الغرفة تتطلع فيها بوجه ممتقع وعينين زائغتين رعبا . وتذكر فى هذه اللحظة هيئة

بكنجهام وهو منكمش امامها يشير بيده ويفوه بتلك الكلمات المروعة ففهم كل شيء .. وأدرك ان نانسي قد نجت من قبضة بكنجهام في آخر لحظة لكي تقع فريسة لعدو أشد فتكا وهولا ..

أدركت نانسي هذه الحقيقة وهي تتطلع في المرآة الى علامة الطاعون ، وسواء كان ما أحست به في هذه اللحظة مرجعه الى اثر هذه الحقيقة المروعة في نفسها ، أو كان مرده الى تفاعل المرض في كيانها ، فقد ألفت صورتها تتمدد وتتقلص في المرآة.. وأحست بالغرفة تهتز وتتمايل حولها .. والارض تميد تحت قدميها.. ثم ترنحت الى الخلف .. وادركت وهي عاجزة عن اسعاف نفسها انها تسقط .. وفي هذه اللحظة شعرت بمن يتلقاها ويسندها .

رفعت راسها ، ورات راندال هولز الذي وثب بحركة غريزية لنجدتها وهو ممتقع الوجه ، مخضبة بالدماء .. فتطلعت اليه طويلا بعينين متبلدتين ثم قالت في صوت جامد :

ــ لا تلمسني .. ألم تسمع ؟.. أنا مصابة بالطاعون .
فأجاب هولز :
ــ نعم .. سمعت ..
فحذرته قائلة :
ــ ستصاب بالعدوى ..
فقال هولز :
ــ محتمل .. لكن لا أهمية لهذا ..

رفعها هولز بين ساعديه رغم ضعفه في غير عناء.. فقد كانت خفيفة البنيان .. واستسلمت له في ضعف واعياء ، فحملها الى السرير ومددها فوقه برفق وسوى الوسائد حولها ..

ثم مر حول الفراش الى النافذة التي تعلوه ، ففتح مصراعيها لكي ينفذ منها هواء الليل الرطيب المنعش الى هذا الجو الخانق.. ولما تم ذلك عاد الى مكانه ووقف قرب السرير ينظر الى نانسي معقود اللسان تفيض جوارحه ألما .

أنعشها الهواء قليلا .. ورد اليها بعض حواسها المذهوبة .. فرفعت عينيها وتطلعت الى الوجه الممتقع والعينين المفعمتين بالألم والعذاب .. وقالت أخيرا في صوت متبلد :
ــ لم تبقى ؟.. اذهب .. اذهب في طريقك يا سيدي ودعني أموت .. هذا كل ما بقي لي كما أرى .. بل اني سأجد الموت أخف وقعا بغير وجودك ..
تراجع الى الخلف كأنما لطمته .. وحاول أن يجيب ، لكنه

أطبق شفتيه وغاص ذقنه فى صدره ، ثم تحول عنها ، وسار الى الباب يجر قدميه ، وأغلقه خلفه برفق ..

تمددت فى مكانها وقد طغى عليها فجأة رعب عظيم . وأرهفت أذنيها ، فسمعته يسير فى المشى ، ثم نفذ الى سمعها صوت اغلاق الباب الخارجى ، فرأت انه كان عند أمرها ، وأنه ذهب حقا ..

جلست منزعجة .. محتبسة الانفاس ، وراحت تنصت الى وقع خطواته وهو يسير مسرعا فى الشـــارع ، بل انه لم يلبث أن أخذ يركض ركضا ..

تلاشى صوته أخيرا .. فاشتدت مخاوفها .. وامتلأت نفسها رعبا من فكرة الموت وحيدة مهجورة ، فى هذا البيت الخاوى .. رغم الكلمات القوية التى وجهتها اليه ..

حاولت النهوض لكى تتبعه ، وتلتمس رفقة اى مخلوق يواسيها ويخفف من آلامها ، لكن أطرافها خانتها ، وما كادت تنهض علـى قدميها حتى هوت منهوكة خائرة القوى ، وانطرحت على وجههـا فوق الفراش تنتحب بصوت عال وألم بالغ ، ولم يرحمها من هذا التفجع سوى غيبوبة رحيمة استولت عليها أخيرا ..

وفى هذه الاثناء كان هولز يسير مسرعا فى شوارع مقفرة من المـارة رغم بكرة الوقت .. فقـــد الف اهل لندن فى تلك الايام الموبوءة ان يأووا الى بيوتهم فى وقت مبكر ، كما أن أوامر عمدة لندن كانت ترغم الحانات والمحال العامة على اغلاق أبوابها عند الســاعة التاســعة ..

سار هولز بغير عباءة وقبعة يجرر غمد سيفه الخاوى خلفــه حتى وصل أخـــيرا الى شارع كارتر .. فشاهد مصباحا يبرز فجأة من خلال الظلام .. ولمح الرجل الذى يحمله .. فاذا هـو يسير متوكئا على عصا حمراء .. وعند ذلك اندفـــع هولز الى ناحيته وهو يتنفس الصعداء فجاءه صوت الرجل من خلال الظلام قائلا :

ـ ابتعد يا سيدى .. ابتعد .. احترس من العدوى ..!

لكن هولز استمر فى تقدمه اليه بغير مبالاة .. حتى استوقفه الرجل أخيرا مادا عصاه .. وصاح فيه بحدة :

ـ هل جننت يا سيدى ؟.. انا مفتش البيوت الموبوءة ..

فقال هولز لاهثا :

ـ هذا ما كنت ارجو .. أنا فى حاجة الى طبيب بسرعــة .. لكى يعالج شخصا أصيب بالطاعون ..!

ظهرت على المفتش دلائل الاهتمام فجأة .. وقال :

ـ أين ..؟

ـ قريبا .. فى شارع الفارس .

ـ اذن فان الطبيب (بيميش) قريب من هنا .. تعال ..

* * *

وهكذا استيقظت نانسى من غيبوبتها القصيرة على اصوات فى الدار .. ففتحت عينيها وشاهدت الكولونيل هولز يدخل الغرفة وقد جاء فى أثره رجلان احدهما متوسط العمر ، والثانى شاب عريض البنيان ممتلىء الوجه .. وكلاهما يرتدى ملابس سوداء ويحمل عصا حمراء طبقا لمقتضيات القانون ..

كان الشاب هو المفتش الذى قابله هولز ، ولم يتجاوز مدخل الغرفة .. بل وقف فى مكانه مدنيا من انفه منديلا تفوح منه رائحة نفاذه .. بينما تقدم رفيقه ، وهو الطبيب (بيميش). واخذيفحص المريضة بسرعة فحص الخبير المتمرن .

جس الطبيب نبض الفتاة .. وفحص البقعة الحمراء بعناية ثم رفع اولا احدى ذراعيها ..ورفع الذراع الثانية،بينما حمل هولز الشمعدان بأمر الطبيب لكى يتمكن من فحص أبطيها .. وما لبث الطبيب أن قال حينما رأى ورما تحت الابط الأيمن :

ـ هذا تطور سريع .. ان هذه الظاهرة لا تحدث عادة قبل اليوم الثالث من الاصابة ..

وجعل يحس الورم باصبعه .. فأحست الفتاة بألم نارى يسرى فى كيانها ..

وأخيرا ترك الطبيب ذراعها .. وجعل يتأملها لحظة وهو مقوس الشفتين مستسلم للتفكير .. فقال له الكولونيل هولز بصوت جامد النبرات :

ـ هل معنى هذا .. هل معنى هذا ان حالتها خطيرة لا أمل فيها ؟..

فتطلع الطبيب اليه وأجابه :

ـ ان حالتها ليست أبعث على اليأس من حالات غيرها .. وكل شىء يتوقف على سرعة مكافحة المرض ..

لمعت عينا الكولونيل كأنه يرحب بمكافحة المرض ومدافعته عن الفتاة كما دافع بكنجهام عنها ، فأشفق الطبيب أن يعلل نفسه بآمال زائفة .. فاستدرك :

ـ ان الكثير يتوقف على هذا .. لكن أكثر منه يتوقف فى الواقع على عناية الله ورحمته .. ولو تسنى تركيز الصديد فى الورم ، فان الشفاء ممكن ، وليس فى وسعى أن أقول أكثر من هذا

ولكي يتحقق هذا التركيز ، لابد من بذل جهود مضنية ، وعمل شاق متواصل ..

فقال هولز :

ـ ان هذا ميسور ممكن ..

فأومأ الطبيب ايجابا ، وقال :

ـ ان الحصول على الممرضات مسألة عسيرة .. وسأبذل جهدى لامدادك بممرضة .. وحتى يتم هذا لابد لك من الاعتماد على نفسك ..

ـ أنا مستعد ..

ـ ومهما يكن ، فان القانون يحظر مغادرتك لهذا البيت قبل حصولك على شهادة بالصحة .. وهذا لا يكون الا بعد مضى شهر من شفائها أو من ...

وأمسك الطبيب عن التفوه بالكلمة الرهيبة .. ثم اردفه بسرعة :

ـ هذه اجراءات السير جون لورنس الحازمه لمنع انتشار المرض ..

فقال هولز :

ـ انى أعرف هذا ، وأقدر موقفى ..

ـ لا باس اذن .. والآن يا صديقى .. ليس أمامك وقت لكى تضيعه .. ان السرعة فى استخدام العلاج هى كل شئ .. يجب وضعها فى سرير افضل ، وموالاتها بالدفء حتى يسيل منها أكبر عرق ممكن واذا اردت انقاذ حياتها ، فعليك أن تعمل فورا ..

ـ اخبرنى اذن يا سيدى ماذا يجب ان أفعل ..

ـ سأخبرك .. وسأترك لك كل ماتحتاج اليه فى هذا الشأن .

أخرج الطبيب من جيبه ربطة كبيرة وضعها على المائدة وحلها ، وجعل يشرح للكولونيل كيفية استخدام المراهم والأشربة التى بها .. واختتم حديثه قائلا :

ـ اذا فعلت ذلك هذه الليلة ، قطعت مرحلة كبيرة .. وساعود مبكرا فى الصباح ، وسنستعرض بعد ذلك الاجراءات الواجبه اتخاذها ..

ثم التفت الى المفتش قائلا :

ـ هل سمعت يا سيدى ؟..

فأومأ الرجل ايجابا وقال :

ـ انى أمرت رجل البوليس باستدعاء ملاحظ .. وسيكون هنا بعد قليل .. وسيغلق الباب بعد خروجنا ..

فقال الطبيب للكولونيل :
— لم يبق اذن الا نقل السيدة الى سرير آخر .. ثم استأذنك الى الغـــد ..

حمل هولز الفتاة الى الغرفة العليا .. ثم تركها وحدها بناء على طلبها لكى تخلع ملابسها .. لكن هذه العملية أجهدتها اجهادا شديدا وضاعفت آلامها .. ولمـا عاد اليها هولز والطبيب كانت ممددة على الفراش فى شبه اغماء ..

ترك الطبيب الأدوية قرب السرير.. وكرر تعليماته للكولونيل وودعه أخيرا .. فرافقه هولز حتى الباب الخارجى .. حيث رأى فى ضوء المصباح الذى كان يحمله الملاحظ ، المفتش يخط عبـارة (ليرحمنا الله) تحت الصليب الاحمر الذى رسمه فوق الباب ..

سار الطبيب والمفتش معا بعد أن ودعا هولز . وأغلق الملاحظ الباب لكى يمنع غير المرخص لهم من الدخول أو الخروج . وسمع هولز صوت المفتاح يتحرك فى القفل من الخارج . وأدرك أنه مقضى عليه بالسجن فى هذا البيت الموبوء أسابيع كاملة ، الا اذا حرره الموت قبل ذلك ..

ارتقى هولز السلم مسرعا غير عابىء بآلام جرح رأسه لـكى يقوم بواجبه . فألفى نانسى ممددة فى شبه خدر أبقى لها حواسها وادراكها ، ولكن سلبها كل قدرة على الحركة أو الـكلام وسرعان ما خلع الكولونيل سترته وعكف على القيام بمهمته متبعـا أوامر الطبيب . بينما راحت نانسى تراقبه بعينين محمومتين. وانتابتها الغيبوبة أخيرا بتأثير العمليات التى تولاهـا هولز .. ثم استولت عليها حمى مصحوبة بهذيان دامت أياما بعد ذلك ، وكان يتخللها فترات نوم مضطرب متقطع ..

الفصل الثانى والعشرون

أزمة المـــــرض

أمضت نانسى خمسة أيام وهى بين الحياة والموت .. وكانت هذه الفترة الحافلة بالألم والعذاب فى نظر هولز بمثابة خمسة أعوام

ونجح الطبيب فى اليوم التالى فى احضار ممرضة .. وكانت امرأة قديرة طيبة القلب فى الاربعين من عمرها ، تدعى مدام داللوز على انه لو وكل اليها وحدها العناية بالمريضة واسعافها بالعـلاج لقضت نحبها بسرعة .. وانما الفضل كل الفضل فى نجاة الفتـاة راجع الى ما بذله الكولونيل هولز من الجهود الشاقة المضنيـــة وما أبداه من التفانى فى خدمتها وتمريضها ..

والواقع ان هولز لم يكف لحظة عن السهر على نانسى .. ولم يفكر فى النوم أو الراحة.. وكان يتناول طعامه اليسير تحت الحاح الممرضة ، قرب سرير الفتاة التى يحبها حب العبادة ..

وكانت الممرضة تلح عليه فى وجوب نيل قسط من الراحة فى أثناء الساعات القليلة التى كانت تقوم فيها بالاشراف على نانسى لكن عبثا حاولت .. كما ان هولز صم اذنيه عن سماع نصائح الطبيب فى ضرورة استعمال بعض الادوية والمطهرات حتى يكتسب المناعة ضد المرض .. ولما رأى الطبيب اعراضه عن العمل بهذه التوصيات قال له :

ـ اذا استمرت بك الحال على هذا النحو ياصديقى، فستقتل نفسك ..

فقال هولز باسما :

ـ اذا نجت فانى اكون اشتريت حياتها بثمن بخس .. واذا ماتت فلا يهمنى بعد ذلك ما يكون ..

كان الطبيب يعتقد ان ما يجمع بين هولز والمريضة هو صلة الزوجية ... فتأثر من هذا التفانى الذى عده مضرب الأمثال فى الوفاء .. على ان هذا لم يمنعه من محاولة رد الكولونيل عن عناده .. فجادله قائلا :

ـ ولكن اذا عاشت وقضى عليك انت بالهلاك ؟..

وشد ما كان ذهوله حينما قال له هولز فى غضب فجائى :

ـ لا تضايقنى أكثر من هذا ..

وبعد هذه المناسبة لم يعترضه الطبيب وتركه يفعل مايتراءى له .. ومهما يكن فقد كان الطبيب يشارك الرأى العام الذى يرى ان أقوى مناعة ضد هذا المرض هو عدم الخوف من عدواه ..

على ان هولز رغم أخذه بنصائح الطبيب كان يكثر من التدخين قرب نافذة غرفته التى كان يتركها مفتوحة ليلا ونهارا فى حر يوليو الخانق .. وكانت هذه العوامل مضافة الى وجود النار موقدة باستمرار فى الغرفة بأمر الطبيب .. سببا فى تطهير الهواء وتنظيفه ، وربما كان فيها بعض المناعة التى كان هولز لايعبأ بها ..

وكانت نتيجة سهر الكولونيل المتواصل وعنايته المستمرة ان الورم تحت ابط المريضة قد بلغ منتهاه ، واخذت تسيل منه السموم القاتلة التى كانت شرايين الفتاة معبأة بها ..

وقال الطبيب فى فرح وذهول :

ـ سيدى .. ان آلامك أتت ثمارها .. وأحدثت معجزة ..

فهتف هولز وقد تملكه نشوة الأمل :
ـ تعنى انها ستعيش ؟..
توقف الطبيب لحظة .. ولم يشأ أن يندفع فى تفاؤله وقال :

ـ لا يمكن أن أعدك بهذا .. لكن مرحلة الخطر مرت . واعتقد أننا قد نستطيع انقاذها بمعونة الله والعناية التامة المستمرة .
ـ لا تشك لحظة واحدة فى توفر هذه العناية .. اخبرنى ماذا أفعـــل ؟..
فأخبره الطبيب بما يجب.. وعكف هولز على العمل بارشاده بهمة لا تعرف الكلل .. وعزيمة لا يتسرب اليها خور ولا فتور ..
وفى أثناء ذلك كان الطاعون يزداد انتشارا فى لنـــدن ، كما علم هولز من الطبيب .. واخذ يفتك بأهلها فتكا ذريعا حاصـــدا .. حتى لقد هلك بسببه فى اسبوع واحد الف نسمة .. وحتى خيف اذا استمر فى انتشاره المـــاحق ان يحصد سكان المدينة ويبيدهم عن آخرهم ..
وبغض النظر عن المعلومات التى نقلها الطبيب للكولونيل ، كان فى مقدوره أن يتحقق من أثر الطاعون وهو فى مكانه رهين هذا البيت فقد كان يرى من نافذة غرفته اقفار شارع (الفارس) وهو معدود من الشــوارع الرئيسية فى لندن .. كما رأى ثلاثة منازل فى الجانب المواجه مغلقة الابواب يعلوها الشعار الاحمر المروع .. وقد تلاشى دبيب الحركة والنشاط المـــألوف فى مدينة كبيرة كلندن .. وكان دليلا على تقلص الحياة عن المدينة الموبوءة ..

وكان رنين الاجراس المؤذنة برحيل الراحلين الى العالم الآخر يدوى بين حين وآخر معكرا صفو السكون .. والى جانب هـــذه النذر كانت (عربة الموتى) تخترق الشوارع بعد حلول الظـــلام وقبيل طلوع النهار يسبقها صوت مروع يقول هذه الكلمات :
ـ اخرجوا موتاكم ..!
وأطل هولز برأسه من النافذة .. فرأى شبح العربة الرهيب يخترق الشارع.. وقد جذبها اليه هذه البيوت المقفلة كما تجتذب الطيور الجريحة الى فرائسها ووقفت العربة أمام الدار عند رؤية الملاحظ .. ودوى صوت قائدها المشئوم ينعق بالجملة الكريهة :
ـ اخرجوا موتاكم ..!
لـــكن الملاحظ قال كلمة صرفت العربة المروعة فى طريقها .. ولم يتمالك هولز أن التفت الى فراش المـــريضة المحمومة وهـــو يتساءل هل تضطره الأقدار فى المرة التاليـــة للتخلى عن محبوبته وتركها لأحضان تلك العربة البغيضة ..

وفى صباح اليوم السادس جاء الطبيب كعادته .. فقابله هولز على رأس السلم وهو يرتعد انفعالا .. وقال له هامسا :
ــ هى نائمة .. نوما هادئا ساكنا ..
دلف الاثنان الى غرفة المريضة بخفة وسكون .. ووقف هولز عند طرف السرير وهو بين اليأس والرجاء .. لكن الطبيب رأى بنظرة ان الحمى قد زايلتها نهائيا .. ومد يده يجس نبضها ..
وماكاد الطبيب يلمس يد الفتاة حتى تحركت وتنهدت وفتحت عينيها ، واستيقظت أخيرا متمالكة لهدوئها وتعقلها .. وتطلعت اليه أولا بنظرة شاردة .. ثم بدت فى عينيها دلائل الحيرة .. لكن الطبيب تكلم بلهجة ردت اليها عقلها وساعدتها على ادراك حالتها فقـــال :
ــ زال الخطر .. وستشفى الآن برعاية الله وبفضل عنايتك المتواصلة .. والواقع ان حالتك هى التى تقلقنى أكثر من حالتها فاتركها الآن تحت اشراف مدام داللوز ، واذهب لكى تنال نصيبك من الراحة ، والا فلست مسئولا عن حياتك ..

كان الطبيب يوجه هذا الـكلام الى هولز ، ولمـا التفت لالقاء نظرة على الفتاة وألفاها تنظر اليه ، هتف :
ــ انظر .. انها استيقظت ؟..
فردد هولز كلمات الطبيب بصوت أجش غير طبيعى :
ــ زال الخطر .. تقول زال الخطر .. هـــل أنا فى اليقظـة يا سيدى الطبيب الرحيم ؟..
ألست نائما أحلم بهذا الأمل ؟..
ــ أنت مستيقظ يا رجل .. وأكرر قولى ان الخطر قد انتهى فاذهب الآن واسترح ..

عجبت الفتاة من يكون هذا الذى يخاطب الطبيب بذلك الصوت الأجش . فأدارت رأســها ببطء ، ووقــع نظرها على شبح غائر الوجنتين والعينين ممتقع الوجه ، نامى اللحية ، متشبث باحدى قوائم السرير كأنمــا يستمد العــون على الوقوف .. ولمـا قابل نظراتها تراجع خطوة وتخلى عن قبضته .. ثم استدار فى مكانه ، ووضع يده على جبينه .. وغمغم :
ــ ليس بى شىء يا حضرة الطبيب .. عن قريب سوف ..
وسكت فجأة عن اتمام جملته .. وترنح فى مكانه .. فغـالب نفسه لحظة .. غـير انه هوى الى الامام .. وسقط على الارض ممـــددا ..
فأسرعت مدام داللوز اليه منزعجة . فحملت رأسه ووضعته

فى حجرها بينما هرع الطبيب اليه بدوره . وقد ساورتهما فى هذه اللحظة فكرة واحدة . وحاولت نانسى بجهد أن ترفع نفسها لكى ترى ما يحدث على الارض .

مزق الطبيب الملابس عن صدر الكولونيل . غير أنه رأى على الاثر حقيقة ما حدث .

والحقيقة ان توكيد الطبيب بزوال الخطر عن المريضة احدث رد فعل فى نفس الكولونيل ، وبين له انها لم تعد فى حاجة الى جهوده المتواصلة وسهره المستمر . وسرعان ما اقتضته الطبيعة حقوقها التى أنكرها طوال اشتداد الداء على الفتاة فاستسلم للراحة .

قال الطبيب وهو يكاد يضحك سرورا :

ــ هو نائم . وهذا كل ما حدث . ساعدينى يا مدام داللوز فى نقله الى ذلك المقعد . وهو لا يحتاج الى أكثر من هذا فى الوقت الحالى . لا تخافى أن يستيقظ . فانه لن يفتح عينيه قبل أن يدور عقربا الساعة دورة كاملة على الاقل .

ارقداه فوق مقعد مستطيل بالغرفة . وعاد الطبيب الى جانب الفتاة التى تمددت فى سريرها ثانية . غير انها جعلت تحدق فى شخص هولز الذى تمدد ساكنا كالجماد على مدى النظر منها . وقالت للطبيب فى عجب :

ــ نائم ؟. هل هذا نوم ؟

ــ ان الكولونيل يا سيدتى لم يغمض جفنيه اسبوعا كاملا ، وأرجو ألا تقلقى بشأنه . ان النوم هو كل ما يحتاج اليه فى الوقت الحالى ولذلك أرجو ان تستريحى . ولا تنهكى قواك المحدودة .

فتفرست فى الطبيب وسألته :

ــ أنا مصابة بالطاعون .. أليس كذلك ؟

ــ بل قولى يا سيدتى انك كنت مصابة به .. اما الآن فقد شفيت منه . ولم يبق عليك من آثاره سوى الضعف الذى بك فى الوقت الحالى وقد استرددت عافيتك فيمكنك ان تذهبى حيث شئت بغير خوف من عدوى الداء .. ان الطاعون لن يصيبك مرة ثانية . ولك أن تشكرى الله الذى من عليك بهذه الرحمة ، ثم زوجك ..

فنظرت الى الطبيب عابسة ، متحيرة .. وقالت :

ــ زوجى ؟..

ــ زوجك يا سيدتى . وهو زوج لا يوجد واحد مثله فى الالف لا بل فى عشرة آلاف .. انى رأيت كثيرين من الازواج فى الايام الاخيرة .. وكلامى هذا عن خبرة بكل اسف !.. ان الجزع من الوباء يطغى على جميع المشاعر .. وقد رأيت هذه الحقيقة تتكرر

فى مناسبات كثيرة . لكن الكولونيل هولز ليس واحدا من هؤلاء.، ووفاؤه الزوجي جدير بأن يجعل منه بطلا . وسر نجاته من الطاعون عائد الى انعدام خوفه منــــه .. ان الحظ يحالف البواســل يا سيدتى .

ــ لكن .. هو ليس زوجى !

فقال الطبيب مشدوها :

ــ ليس زوجك !. لكن من يكون اذن ؟. وهو الذى قدم لاجلك كل شيء . حتى حياته ؟

ترددت نانسى .. ولم تدر كيف تصور العلاقه بينهما ... ثم أجابت اخيرا :

ــ كان صديقا لى من قبل .

فقال الطبيب فى ذهول :

ــ من قبل ؟.. ومتى اصبح من غير أصدقائك . وهو الذى بقى معك فى هذا البيت الموبوء وقد كان له ان يولى منه فرارا ؟.. والذى أنكر على نفسه النوم والراحة وكل شيء آخر حتى يكون قريبــا منك على استعداد للقيام برعايتك ؟.. والذى كافح الموت لأجلك ، وأنقذك من برائنه ، مستهدفا للاصابة بالوباء ألف مرة فى سبيلك ؟.

فقالت نانسى :

ــ هل فعل كل هذا لأجلى ؟..

فسرد عليها الطبيب تفاصيل البطولة والتضحية التى صدرت من هولز .. فلما فرغ من قصته تمددت نانسى مستسلمة للصمت والتفكير ، بينما قال الطبيب باسما :

ــ من الجائز انه كان صديقا لك من قبل كما قلت .. لكنى لا أحسب انه كان فى وقت من الاوقات أكثر منه الآن اســتحقاقا لصداقتك ، انى لأبتهل الى الله ان يهبنى مثل هذا الصديق فى وقت شدتى !..

لم تجب بكلمة .. واخذت تحدق فى السقف تحديقا متواصلا دون أن يبدو على محياها شيء مما يجيش فى نفسها ..

ولم يشأ الطبيب رغم تشوقه أن يلقى عليها اسئلة أخــرى لكي يعرف حقيقة الصلة بين الكولونيل هولز وبينها ..

الفصل الثالث والعشرين

كبــرياء ..

عاد الطبيب فى مساء ذلك اليوم برفقة أحد مفتشى الصحة الذى أوفد للتحقق رسميا من صحة تقرير الطبيب عن شفاء المريضة ،

تمهيدا لاصدار قراره باعادة فتح الدار بعد مضي ثمانيـة وعشرين يوما ، بشرط الا تظهر فى أثنائها اصابات جديدة لأحد من سـكان الدار ..

وكان الكولونيل قد نهض من نوم دام احدى عشرة ساعة .. ووقف متبلدا بينما أخذ المفتش يتحقق من حالة المريضة ومن مدام داللوز ومن الكولونيل نفسه ، وكانت نانسى فى هذه الاثناء ، تتفرس فى وجهه الممتقع ، اما هو فلم يلق نظرة واحدة الى ناحيتها ..

ولما غادر المفتش والطبيب غرفة نانسى جر هولز نفسـه فى أثرهما وتبعهما الى الطابق السفلى حيث بقى به بعد انصرافهما .

رأى هولز انه قضى عليه بالسجن ثمانية وعشرين يوما فى هذا البيت . فقصد بعد قليل الى الغرفة المشئومة التى حدثت فيهـا المأساة السالفة الذكر .. حيث ألفى معدات الوليمة الشائنة ما تزال فيها على حالها وقد دب اليها الفساد وامتلأ جو الغرفة بروائحهـا الكريهة . فأسرع بفتح النافذة وانهمك فى التخلص من هذه الآثار . وأمضي وقتا طويلا فى هذه المهمة وقرر أن يجعل مقره فى هـذه الغرفة .

ثم جلس فوق السرير وجعل يدخن وقتا طويلا وهو شـارد الفكر لا يستقر على حال . وكان هذا شأنه فى الايام التالية .

لم ير للحياة قيمة فى نظره . وتمنى أن يدركه الموت فيخلصه من وجوده الذى استحال فى نظره كالعدم .. بل تمنى أن يصيبه الطاعون الذى حل ضيفا كريها على الدار ، فيضع حـدا لحياته ، وكان يتحسس صدره كل يوم ويجس ابطيه متلهفا لرؤية الاعراض التى أصبح يرجوها ويتوق اليها .

لكن سخرية الاقدار التى تعقبته طوال حياته لاحقته وفوتت عليه حتى أمله فى الموت .. وكان يتنقل فى أرجاء هذا البيت الموبوء دون أن يصاب بأقل مكروه . وكأنه يتمتع بمناعة تامة .

بقى هولز على هذه الحـال ثلاثة أيام . وكانت مدام داللوز تزوره صباح كل يوم لابلاغه عن حالة المريضـة التى كانت تتماثل تدريجيا للشفاء وقد أيد الطبيب هذه الحقيقة حينما زاره مرتين .. وفى المرة الثانية بقى يتحـدث بعض الوقت مع هـولز على مجريات الامور فى الخارج .

علم الكولونيل أن هويتهول قد أقفرت من جميع أفراد البلاط فيما عدا الدوق البيمارل الذى صمم على البقاء للقيام بواجبـه كنائب للملك لاتخاذ ما يراه ضروريا للتخفيف من أهوال الكارثة التى حلت بالمدينة ..

ولما استفسر الكولونيل الطبيب عن أنباء بكنجهام وهو يرجو فى اعماق نفسه أن يكون ذهب فريسة للوباء ، أجابه الطبيب :

ـ انه ذهب كغيره .. غادر لندن منذ اسبوع وقصد الى يورك حيث يتولى واجبات منصبه كنائب لاميرال الاسطول بعد أن استيقظ ضميره آخر الامر .. وقد حفزه على الذهاب اصابة أحد خدمه الفرنسيين بالطاعون .. ولا ريب انه سيكون بمأمن من الاصابة فى يورك

فقال هولز فى الم :

ـ خادم واحد !. واحد فقط !. ان الشيطان يسهر على أعوانه !. وقد كفر خادم تعس عن آثام سيده .. لا بأس .. لكن فى السماء الها عادلا .

تركه الطبيب وهو يعجب من شذوذه .. وقصد الى غرفة المريضة وقد خطر له خاطر فجائى ، وبقى وحده نحو خمس دقائق مختليا بالآنسة سلفستر التى قررت له وللمرضة ان هذا هو اسمها .

وما كاد يمضى وقت على انصراف الطبيب من الدار حتى أبلغت الممرضة الكولونيل هولز الآنسة سلفستر ترغب فى التحدث اليه

شحب لون الكولونيل وسرت فى جسده رعدة حينما علم بهذه الدعوة .. وهم برفضها .. غير انه أعلن قبوله أخيرا .

قصد الى غرفة الفتاة فألفاها جالسة فى مقعد قرب النافذة ، وكانت شاحبة اللون بادية الهزال .. غير أنها ما زالت بجمالها وملاحتها .

تطلعت اليه الفتاة شاردة الفكر حال دخوله .. ثم نظرت من النافذة .. فأغلق هولز الباب وتقدم بضع خطوات . وقال لها :

ـ انك أرسلت فى طلبى ولولا ذلك لما تجاسرت على التطفل ووقف كالخادم ينتظر أوامر سيده .

سرى فى محياها تورد يسير .. ثم قالت فى لهجة متكلفة :

ـ انى أستدعيتك يا سيدى لكى أعبر لك عن شكرى الجزيل لما بذلت نحوى من العناية ، التى لولاها لذهبت حياتى .

وتطلعت اليه فجأة .. غير أنه تحول عنها بنظره وتطلع من النافذة وقال فى صوت هو أقرب الى الخشونة :

ـ ليس لك أن تشكرينى .. فقد فعلت ما فعلت لكى أزيل الشر الذى أوجدته ..

ـ كان هذا حينما حاولت انقاذى من قبضة الرجل الشرير الذى ألقيتنى تحت رحمته .. مخاطرا فى هذا بحياتك .. لكنى

أعنى الطاعون فأنا لم أصب به بسببك .. وكنت مصابة به في الواقع حينما جئت بى الى هنا .
فقال هولز : لا يهم . كان الواجب يحتم علي اصلاح ما فعلت .
ـ لكنك لم تكن مكلفا بأن تجازف بحياتك لانقاذى من براثن المرض .
ـ ليس لحياتى يا سيدتى قيمة كبيرة .. انها حالة ضالة لا قيمة لها .. ما فعلت هو أقل ما كان بوسعى أن أفعله .
فقالت برقة :
ـ ربما .. لكنك فعلت أكثر مما استطعت . وأكثر مما كنت مدينا لى به ..
ـ لا أظن .. لكن الموضوع لا يستحق هذا الاهتمام .
كان هولز يشعر بأن هذه الكلمات لم توجه اليه الا سترا للمظاهر . وانها تخفي وراءها احتقارا بليغا لشخصه .. ووقف أمام الفتاة مدركا هوانه وذلته . ولذلك أراد أن يقصر أمد المقابلة وان ينصرف بأقرب وقت ..
لكنها سبقته . وقالت له :
ـ ان الدين الذى وفيته نحوى هو دين مضاعف .
فقال بمرارة :
ـ يسرنى أن أسمع منك هذا ، لو كان بوسعى أن أصدقك .
ـ ولم لا تصدقنى ؟. لم لا أكون مخلصة فى التعبير عن شكرى لك ..
ـ آه .. انى أصدق اخلاصك .. فأنت تودين شكرى .. وهذا طبيعى .. لكنك تحتقريننى .. ولا يمكن أن يمحو شكرك احتقارك فليس هذا بمستطاع .
فقالت برقة :
ـ هل أنت على يقين من هذا ؟.
ـ يقين ؟. وكيف لا يمكن أن أكون كذلك ؟. ألست أمقت وأحتقر نفسى ؟. ألست عارفا عارى ، حتى أعلل نفسى بأن شيئا منه يفوتك ؟.
ـ لا تقل هذا !. لا تقل هذا !.
وحجبت وجهها براحتيها .. لكنه رأى فى هذه المحاولة توكيدا لظنونه .. فهتف :
ـ هل يكفى أن يغمض الانسان عينيه عن حقيقة ظاهرة ؟. انى أمضيت سنوات طويلة باحثا عنك يا نانسى .. ثم وجدتك أخيرا فى ظروف كنت فيها ملطخا بوصمة العار والشناعة حتى انى لم أحتمل

نظرتك الي .. اني كنت فى حضيض العار والهوان وقت أن جمعتنا الاقدار فى سخرية قاسية .. وكنت محقة فى مقتك لى وتحقيرك اياى فى تلك الليلة المروعة .

وأنت الآن تنظرين الي مشفقة راثية لانى رجل كريه ممقوت .. وتلقين فى وجهى من باب الرثاء والاحسان ، كلمات شكر لست أستأهلها ، لانى فعلت ما فعلت تكفيرا لذلتى واساءتى .

فهل هناك ما يقال بعد ذلك ؟.

لو لم يكن هذا البيت مغلقا ،ولو لم اكن اسيرابين جدرانه ، لرحلت فى الحال وقت أن أعلن الي الطبيب نبأ نجاتك من الخطر ، باذلا جهدى ألا تلقينى أبدا فى طريقك حتى لا أسيء اليك بمرآى الكريه الممقوت أو أضطرك لشكرى عن خدمات تلقيتها من يدين ملوثتين تحتقرين صاحبهما .

فقالت بكآبة :

ــ هل تحسب ان هذا يلخص الموقف كله ؟. اما أنا فلا .. وبقى هناك كلام كثير يقال :

فقال مبتهلا بحرارة :

ــ امسكى عن هذا الكلام ، من باب الاحسان الذى يدفعك الى شكرى ..

ثم استطرد فى لهجة حازمة :

ــ اذا كانت لديك أوامر لتنفيذها يا سيدتى ، فسأكون فى أسفل الدار حتى يعاد فتحها ، وعند ذلك يذهب كلانا فى طريقه .

وانحنى أمامها . وتحول عنها .

فهتفت حينما وصل الى الباب :

ــ راندال !.. راندال !.. ألا تشرح لى كيف .. كيف وصلت الى .. الى الموقف الذى رأيتك فيه ؟. ألا تخبرنى بكل شيء . حتى أحكم بنفسى ؟.

وقف فى مكانه ممتقع الوجه مرتعدا . يغالب كبرياءه . وقال :

ــ احكمى علي يا سيدتى بمنطوق الادلة التى أمامك . وهى تكفي لوفائى نصيبى من الحق والعدالة . ولن يغير ماضى حياتى من الحقيقة الواقعة التى عرفتها عني . أنا رجل شقى !. أنا رمز العار والشناعة !.. وقد عرفت هذا فى . أنت التى كان يمكن أن أبقى فى نظرك الى الابد مثال الشرف الكامل !. أواه ! رحمة بى يا ربى ؟. الا ترين ؟.. الا ترين ؟..

اغرورقت عيناها بالدموع فجأة . وقالت :

ــ أرى انك قد تكون صارما فى الحكم على نفسك . دعنى أحكم

بنفسي يا راندال .. ألا ترى انى أريد أن أصفح عنك ؟. هل ترى صفحي زهيدا فى عينيك ؟.

فأجاب :

ـ بل هو كل شيء . لكن لن أصدق . أبدا . فما الذى يدفعك الى الصفح ؟..

هو رغبتك فى اسداء الشكر الي لما فعلت فى سبيل انقاذ حياتك . هو رثاؤك لما اتسمت به حياتى من العار والشناعة . لكن سيبقى ماثلا خلف هذا الشكر وهذا الصفح،احتقارك لعارى. انا أعرف هذا . ولو تجاهلته لكنت من البلهاء ..

وكف عن الكلام وهو يبتسم ابتسامة تشف عن الالم .. وهو يهز كتفيه ..

لكنها لم تر شيئا .. فقد حولت نظرها عنه وتطلعت من النافذة ..

خرج هولز وأغلق الباب خلفه برفق . فلم تستوقفه . اذ لم تدر ماذا تقول لكى تغير آراءه السوداء المتشائمة .

هبط هولز السلم وذهب الى غرفته فى خطوات متثاقلة فقد تحققت ظنونه أكثر من قبل . ورأى انهما ما اجتمعا الا لكى يفترقا الى الابد . فان ذكرى هذا العمل البغيض الذى قام به ستظل لاصقة بهما مدى الحياة . ومهما فعل فلن يغير شيئا من الحقيقة الواقعة . وهى انه كان قوادا لحساب بكنجهام .

وهكذا استسلم هولز لكبريائه التى اثارها فى نفسه شعوره بالعار والهوان .. ولم يكن له نجاة من هذا الموقف الا بالموت . لكن حتى الموت عز عليه .. وأبى أن يخلصه من كربه وضيقه .

الفصل الرابع والعشرون

الهرب ..

مرت الاسابيع تباعا . ودنا يوم الافراج عن سكان الدار .. لكن مرور الايام لم يبدل شيئا من حال هولز . فانه لم يسع مرة واحدة لمقابلة نانسى . ولم ترسل هى مرة فى طلبه .

على أنها استدعته أخيرا بلسان المرضة حينما بقى على موعد الافراج ثلاثة أيام فقط .. فارتاع هولز من هذه الدعوة وقرر للمرضة انه تعب من الحر فى يومه ، ورجاها أن تبلغها انه سيزورها فى صباح اليوم التالى .

لكنه قرر ألا تتم هذه الزيارة .. ولكى يتحقق ذلك لم يكن أمامه بد من مغادرة البيت قبل انتهاء المدة القانونية .. فصمم على اتخاذ

هذه الخطوة رغم خطورة النتائج التى تترتب عليها فيمـــا يختص بشخصه ..

وقد دفعه الى هذا القرار ، يقينه بأنه اذا وقف امامها مرة ثانية فان حبه لها سيطغى عليه . وسيحمله على الافضاء لها بالحقيقــة كاملة ، ملتمسا صفحها عن زلته فتشفق عليـــه رثاء لحاله ووفاء لدينها له ، وهكذا تقضى على نفسها بالنـزول الى الحضيض الذى يتمرغ فيه . وتشاطره مستقبله المجهول المظلم .

اعتزم هولز اذن ان يدفع عن نفسه وعنها هذا الموقف وما يترتب عليه .. ورأى فيه الوسيلة الوحيدة للتكفير عن زلته .. وأيقن انها اذا استعرضت هذا العمل فستدرك قيمته الحقيقية .. وقد يدفعها هذا الادراك الى محو ما تولد فى نفسها من ازدراء له . والى الصفح عنه صفحا مجردا عن الاشفاق والرثاء .

ثم خطرت له فكرة .. فتناول قلما وورقا وجلس يســـطر رسالة لها . فافتتحها بهذه الفاتحة الفجائية :

« سألتنى أن أشرح لك كيف هويت الى حضيض العـار الذى رأيتنى اتمرغ فيه . وقد أمسكت عن ذلك حتى لا أثير فى نفســك مظهرا آخر من مظاهر الرحمــة والرثاء .. أما الآن وأنا أوشك أن أغيب من حياتك الى الابد .. ولن يبقى أمل فى لقائنا ثانية .. أرانى مدفوعا الى أن أقص عليك كل شىء .. حتى أذهب حاملا معى أملا يشد من عزمى بأنك ستحفظين عنى ذكرى قوامها رثاء خـــلو من المقت والاستبشاع .

« ان قصة النحس الذى لازمنى تبدأ من يوم ان قصدت الى قرية (تشارموث) منذ أعوام بعيدة ، وكنت اذ ذاك شابا مفعم النفس آمالا ، مستقبلا حياة كلها الشرف والمجد .. وقد ذهبت اليهــــا لكى أطلبك ، واضعا تحت قدميك ما نلته من اليسير ، واعدا اياك بما ينتظرنى من مجد مؤثل كبير » .

استمر هولز يسرد قصته على صفحات الورق .. واستغرق فيها وقتا طويلا .. وفرغ منهـا فى منتصف الليل . ثم أخـرج من جيب سترته الداخلى قفازا علاه القدم .. وسطر فى ختام رسالته هذه الجملة :

« هذا قفاز خلعته على منذ عهد طويل .. وقد حملته فخورا طوال حياتى .. وكان بمثابة عاصم لى من كثير من المغريات التى كانت تهدد شرفى اما الآن وقد فشل فى هذه الغـاية بسبب نذالتى وضعتى ، فقد لا تحبين أن أستبقيه معى »

استغرقت رسالته ثلاثين صفحة .. ولم يلق عليها نظرة ثانية .. بل وضع القفاز بينها .. ثم طواها حوله ولفها بشريط حريرى .. وجعل فوقها ختما من الشمع بصمة بابهامه .. وكتب فوق الربطة هذه الكلمات :

« الى الآنسة نانسى سلفستر »

ثم وضعها فوق المائدة على مرمى النظر من أول داخل للغرفة.

واخرج هولز كيس نقوده الذى كان مملوءا مما استولى عليه من بكنجهام .. فأفرغ نصف ما به وجعل منه ربطتين احداهما باسم مدام داللوز والثانية باسم الطبيب (بيميش) .

وسار على أطراف أصابعه الى النافذة واطل منها .. فرأى الملاحظ مستندا الى جدار المدخل مستسلما للنوم .. اذ لم ير ضرورة لليقظة بعد أن بقى على موعد الافراج عن أصحاب البيت ثلاثة أيام فقط .. ولم يخطر له أن أحدا من أهل البيت يجازف بالخروج منه ازاء قصر المدة الباقية .

اطمأن هولز .. وارتد الى داخل الغرفة .. فحمل غمد سيفه الفارغ فوق منكبه .. ودس فيه سيف بكنجهام الذى بقى بالغرفة. ولبس قبعته وعباءته .. وأطفأ الشموع الباقية .. وقصد ثانية الى النافذة .

تدلى من النافذة ، فلم تعل قدماه عن الارض بأكثر من ثلاث أقدام .. وفى اللحظة التالية هبط الى الارض دون أن يحدث صوتا عاليا ..

والواقع ان الملاحظ استيقظ حينما سمع وقع خطوات تبتعد مسرعة فى الشارع .. لكنه لم يقرنها بأحد من أهل المنزل .. وسرعان ما عاد الى نومه الهادىء اللذيذ .

على ان هذه الاصوات الخافتة التى احدثها هولز فى ابتعاده عن البيت ترامت الى نانسى التى جفا النوم عينيها وجلست ساهرة مسهدة فى النافذة العليا ..

ففتحت النافذة ورأت شبحه يختفى فى الظلام .. وكادت فى هذه اللحظة تصيح ، لكنها امسكت حتى لا توقظ الملاحظ النائم وتحمله على مطاردة هولز وتعريضه للمؤاخذة الجسيمة ، ولولا خوفها من ذلك لصاحت لكى تحول دون ابتعاده ..

ثم أوقدت شمعة بأصابع مرتعشة وهبطت الى غرفة هولز لكى تتحقق من ذهابه وهى ترجو أن يكون ما رأته وهما وأن تكون قد خدعتها عيناها ، فلما دخلت الغرفة لامت نفسها بمرارة وودت لو أنها قامت بهذه الخطوة قبل الآن ..

وفى صباح اليوم التالى فتحت مدام داللوز باب الغرفة بحثا عنها .. فألفتها جالسة الى جانب النافذة شاحبة اللون ، ناضبة الدمع ، ترتسم على محياها أبلغ آيات الالم والشقاء ، ورأت بجانبها شمعة ذوت حتى آخرها ، وصحائف كثيرة متناثرة على الارض ، هى رسالة الوداع التى سطرها هولز ..

أحدثت هذه الرسالة أكثر مما كان يطمع فيه هولز .. فقد أزالت من نفسها كل أثر للازدراء ، بل انها بعثت فى صدرها شعور الرحمة ، وأحيت حبها القديم له ، مقترنا باليأس ، اذ فقدته ثانية وذهب عنها الى غير عودة ، ووضع نفسه بذهابه على هذا النحو موضع الخارجين على القانون ..

الفصل الخامس والعشرون

بيت منهوب

اوفدت مدام داللوز الملاحظ فى الحال لاستدعاء الطبيب (بيميش) لاسعاف الفتاة .. فلما جاء بعد قليل أخبرته بذهاب الكولونيل وانتكاس الآنسة سلفستر ..

أسرع الطبيب قلقا حال وصوله الى غرفة نانسى التى أصعدته مدام داللوز اليها .. فألفاها فريسة للحزن الشديد ، وقال لها وهو يتناول يديها :

ـ هذا مريع يا عزيزتى .. ما الذى دفع ذلك المسكين الى هذا العمل الخاطىء ؟

فهتفت الفتاة :

ـ لابد من البحث عنه !. ارجو ان تأمر بالبحث عنه !

فتنهد الطبيب مكتئبا وقال :

ـ ان واجبى يحتم علي الابلاغ عن هربه .. وسيتبع هذا البحث عنه . واذا وجد فسيكون موقفه عسيرا . فان العقوبات التى يفرضها القانون فى هذا الشأن صارمة .

وهكذا اشتد الكرب عليها حتى اشرفت على الجنون .ولم تدر ماذا ترغب وماذا تفضل . فاذا لم تتخذ اجراءات للبحث عنه وايجاده فلن تراه ثانية . ومن ناحية أخرى اذا وجد فسيتعرض لصرامة القانون وقد لا تراه كذلك مرة ثانية .

أشفق الطبيب عليها .. واستخلص من الظواهر التى رآها قصة شخصين فرقت بينهما عوامل الكبرياء وتوشك أن تحطم حياتهما على صخورها .. وود أن يبذل كل ما فى وسعه للتخفيف من ألم الفتاة ومواساتها ، لو انها منحته ثقتها . وأفضت اليه بخفايا

قصتها . لكن نانسى رأت انها لن تفعل ذلك دون أن تكشـــف عن العمل البشع الذى جاء بها الى هذه الدار ، وتفضح الجريمة التى ارتكبها هولز .. ولذلك أمسكت عن الكلام وطوت القصـــة بين ضلوعها ونبذت هذه الفرصة التى أتاحها لها الطبيب لكى يشاطرها آلامها ويخفف من لوعتها .

ولم يزرها الطبيب بعد ذلك الا فى صباح يوم الافراج عنها .. فقد جاء برفقـــة المفتش الذى زودها ومدام داللوز بشـــهادتين تثبتان براءتهما من المرض .. وأخبرها الطبيب انه لم يعثر عـلى هولز . فلم تدر هل تفرح أو تحزن من هذا النبأ .

وجيء لها برجلين لنقلها فى المقعد المقفل الذى بقى فى الدار .. وتطوع الملاحظ أن يكون أحدهمـــا .. وسألها الطبيب لفـــرط اهتمامه بأمرها :

ــ ولكن الى أين تذهبين ؟.

ــ الى بيتى . الى مسكنى الخاص ؟.

فقال الطبيب . مذهولا :

ــ بيتك ؟. لكن .. لكن هذا البيت ؟.

فقالت وهى تبتسم ابتسامة فاترة :

ــ هذا البيت ليس بيتى .. انى جئت الى هنا . بالصدفة .. حينما أصبت بالمرض .

زاده هذا الجواب قلقا وجزعا .. فقد كان يعرف ان الوباء قد ترك بيوتا كثيرة مفتوحة على مصاريعها نهبـــا لكل غاد ورائح .. وأشفق أن يكون بيتها واحدا منها . ولذا سألها :

ــ وأين تقيمين ؟.

أخبرته بما يريد .. وقررت له أنها ستقصد الى الريف بعد ذهابها الى بيتها .. وقد تعود الى لندن بعد نهاية الوباء .. وقـد لا تعود . على انها كانت تضمر فى نفسها نية أخرى .

زاده هذا الجواب قلقا عليها وجزعا لحالها .. فقد كان يعـرف أن مغادرة لندن فى هذه الايام لا تتوفر الا لمن كان قوى النفوذ موفور المال .. وقد صد هذان العاملان تدفق السكان من لندن .. فان أكثر الضواحي والبلدان المجاورة للندن أوصدت أبوابها عن قبول الهاربين من المدينة الكبيرة خوفا من الوباء الذى يحملونه فى أعقابهم .. بل انهم استعانوا فى صد الهاربين بحد السلاح . وقد اضطر عمدة لندن حقنا للدماء ، ورغبة فى عدم تسرب الطاعون الى بقـاع أخرى فى انجلترا .. اضطر الى ايقاف منح شهادات الصحة التى لا يستطيع أحد بدونها ان يغادر لندن .. وقضى على من بقوا فى لندن

الذين كان الطاعون يفتك فيهم بمعدل الف فى الاسبوع الواحد . ان ينبذوا كل أمل فى مغادرتها حتى يتقلص عنها ظل الوباء الذريع .

استعرض الطبيب موقف الفتاة على ضوء هذه الظروف . فرأى ان حاجتها الى مساعدته لم تنته بعد . ولذا قال لها فجأة :

ـ تعالى .. سأرافقك الى بيتك . واطمئن على استقرارك فيه . هذا اذا أذنت لى بذلك .

فقالت وهى تبسط له يدها :

ـ بل انى أكون مدينة لك بأقصى درجات الفضل يا صديقى الكريم ..

ودعت نانسى مدام داللوز بعد أن أعربت لها عن عميق شكرها لما أبدت نحوها من العناية والاخلاص .. ومنحتها بعض حليها الثمينة .. ثم قبلتها واستقلت المقعد المقفل وقد انهمرت الدموع من أعينهما معا .

حمل الرجلان المقعد وسارا فى الشوارع المقفرة التى يخيم عليها الخراب والسكون ، يتبعهما خلف المقعد الطبيب بيميش سائرا على قدميه ..

وجلست نانسى فى داخل المقعد باكية العين غير ناظرة الى مظاهر الاقفار والوحشة التى كانت تمر بها . اذ كان فكرها منصرفا الى استعراض رسالة الوداع التى سطرها لها هولز .

ولما وصل الموكب أخيرا الى بيتها فى ميدان سالسيبورى تحقق ما كان يخشاه الطبيب (بيميش) فقد كان باب البيت مفتوحا . وبعض نوافذه محطمة الزجاج . وما كادت نانسى تغادر المقعد حتى راعها هذا المشهد . واشتد جزعها حينما أجالت نظرها فى أرجاء الميدان .. فاذا كثير من بيوته مغلقة . يعلوها الشعار الاحمر المروع . ويقوم عليها ملاحظون مخيفو الهيئة . فلم تتمالك ان سألت الطبيب :

ـ ما معنى هذا ؟

فهز الطبيب رأسه وقال فى لهجة الحزن :

ـ الا يمكنك أن تعرفى ؟. ان الطاعون .. والخوف من الطاعون هما سبب هذا الذى حدث فى غيابك .. لندخل .

دخلا الدهليز المظلم .. وأخذا يرتقيان السلم الذى تكدس التراب فوق حاجزه . ونادت الآنسة سلفستر مرات أثناء صعودهما .. لكن لم يجبها غير رجع الصدى .

كان مسكن نانسى فى الطابق الاول .. وما كادا يصلان اليه حتى رأيا بابه مفتوحا .. وشاهدا غرفة الجلوس تغمرها أشعة

الشمس . وقد تناثر الاثاث فى أرجائها وفتحت أدراجها وتحطمت مراياها مما يدل على أن أيدى اللصوص امتدت اليها وسطت منها على ما خف حمله وغلا ثمنه . وتركت ما عجزت عن نقله .

وقف الطبيب والفتاة صامتين فى مدخل الشقة ، يتأملان هذه الكارثة المروعة .. ثم أسرعت نانسى الى درج كانت تحفظ فيه كل نقودها . فألفته خاويا .

التفتت الى الطبيب شاحبة اللون جزعا .. وحاولت أن تتكلم .. فخانها صوتها .. وامتلأت عيناها بالدموع .. فقد قاست أهوالا كثيرة .. حتى اذا أتت بيتها ألفته على هذه الحال .

خف الطبيب لنجدتها .. فقدم لها مقعدا كان سليما ، وألح عليها بالجلوس .. فأطاعته .. وجعلت تنظر حولها فى يأس الى حطام بيتها .

وقالت أخيرا :

ـ ما العمل ؟. الى أين أذهب ؟. خير لى أن أبتعد فى الحال عن هذا المكان اللعين .. ان لى عمة عجوزا تقيم فى قرية (تشارموث). وسأذهب اليها .

وقررت للطبيب فوق ذلك انها تملك مبلغا آخر أودعته عند صاحب مصرف قرب (تشيرنج كروس) ، وانها ستقصد اليه لاسترداد وديعتها ومتى فعلت فلن يبقى ما يوجب عليها البقاء فى لندن

ونهضت على الفور لتنفيذ غايتها . غير أن الطبيب ردها بلطف وبين لها صعوبة الموقف

قال الطبيب ان كافة الدلائل تشير الى ان صاحب المصرف المذكور قد أوقف معاملاته المالية بالنظر الى الفزع السائد من انتشار الوباء . وحتى اذا استطاع أن يلبى حاجتها فان الرحلة التى تفكر فيها هى لون من المستحيل . لانها ستحصل على شهادة بالصحة فى غير عناء . لكن لن تجد أحدا يؤويها حينما يعلم من اين هى قادمة . ستضطر بعد مرحلة واحدة أن تعود ادراجها الى لندن .

استولى عليها اليأس حينما أدركت انه قد كتب عليها السجن فى هذه المدينة المرعبة التى رفعت عنها رحمة الله وهجرها أهلها ، وأصبح لا يقيم فيها سوى التاعسين والموبوئين . واستسلمت لحظات للحيرة والذهول . ثم قالت أخيرا فى لهفة وجنون :

ـ ماذا يبقى اذن ؟ ماذا أفعل ؟. كيف أعيش ؟. أواه يا ربى !. ليتنى مت بالطاعون !. ان أسوأ ما فعله راندال هو انقاذ حياتى !».

فقال الطبيب مواسيا :

ـ صه !. صه !. لست بغير نصير !. أنا معك لخدمتك يا عزيزتي . أنا صديقك ..

فقالت له :

ـ اصفح عما بدر مني .

فقال وهو يربت على كتفها :

ـ انى أقدر شعورك . لكن لا بد لك من التجلد والشجاعة . ما دمنا نتمتع بالصحة والقوة فلا شيء فى الحياة مستعصيا . أنا كبير السن يا عزيزتي . وأعرف هذه الشئون . لنستعرض الآن موقفك .

ـ ان موقفي عسير . من يستطيع مساعدتى ؟

ـ أنا . وتلك نيتى ..

ـ ولكن كيف ؟.

ـ بطرق كثيرة . ولكن سأبين لك أولا كيف يمكنك أن تساعدى نفسك ..

فقالت وهى تتطلع إليه فى حيرة : أساعد نفسى ؟

فقال الطبيب :

ـ اننا اذ نقدم يد المساعدة الى غيرنا انما نساعد أنفسنا . والسعادة الحقيقية هى العمل لاجل الغير . هى فى الراحة التى نحسها والسرور الذى يساورنا حينما نتم هذا العمل .

ـ نعم .. نعم .. لكن كيف يكون فى مقدورى ان أفعل هذا ؟

ـ تستطيعين هذا بطرق كثيرة ياعزيزتى . وسأرشدك الى واحدة منها .. ان عناية الله قد هيأت لك أخا كريما أنقذك من المرض . فتوفرت لك بذلك مناعة تامة تمكنك من التنقل بلا أقل خوف بين المصابين بالوباء . وقد أصبح من العسير تدبير العدد الوافر من الممرضات ولا سيما ازاء انتشار الطاعون هذا الانتشار المروع . وكثيرات من هؤلاء الممرضات النبيلات المضحيات بحياتهن ليست لهن المناعة التى تمت لك ، ومنهن من يقضين نحبهن باستمرار واأسفاه .

وكف الطبيب عن الكلام وجعل ينظر اليها من خلال منظاره .. فتطلعت اليه بذهول .. وقالت :

ـ لعلك تقترح ان ...

وأمسكت عن اتمام جملتها مرتاعة من هذا المقترح الذى يشير اليه الطبيب فقال لها :

ـ فى وسعك أن تقومى بهذه المهمة اذا رأيت انها دين فى عنقك

نحو الله واخوانك فى الانسانية . لما نلت من الشفاء . وفى وسعك أن تؤديها كذلك ، اذ بسعيك للتخفيف من آلام الغير انما تخففين من آلامك . وسواء كان هذا أو ذاك ، فان قيامك بهذا العمل يعد نبلا عظيما ، ولن يعدم المثوبة والجزاء .

نهضت الفتاة بتؤدة وهى مستغرقة فى التأمل والتفكير . ثم ضحكت ضحكة ، تشف عن الرثاء لنفسها .. وقالت :

— واذا لم أفعل هذا . فهل يوجد ما أفعله غير هذا ؟..

فأجابها على الفور :

— لا .. لا .. ليس فى نيتى أن أدفعك الى عمل ضد رغبتك .. واذا رأيت ان هذا العمل ممقوت فى نظرك ، فلا يخطر لك انى لذلك أتخلى عنك .. ثقى انى لن أتركك وحدك بلا نصير .

فنظرت اليه وهى تبتسم ابتسامة يسيرة وصارحته قائلة :

— هو ممقوت طبعا .. وكيف يمكن ان يكون غير هذا ؟. انى عشت حياة كلها الدعة منذ نعومة أظفارى . فاذا قمت اذن بهذا العمل فأغلب الظن ان الله سيتقبله قبولا أحسن .. وهو دين فى عنقى كما قررت أنت .

ثم مدت يدها وتناولت ذراعه قائلة :

— انا مستعدة يا صديقى للبدء فى مباشرة مهمتى .

الفصل السادس والعشرون

عـــربة الموتى

سار الكولونيل هولز هائما على وجهه لا يدرى اين يقصد . ولا يحفل الى اى مكان تجره قدماه . وكل همه ان يبتعد عن الدار الكائنة فى شارع الفارس.

وفيما هو يتخبط فى ظلام لندن وقف فجأة أمام باب صغير رأى نورا ضئيلا وأصواتا مختلطة صادرة منه . فأدرك انها حانة تجاسر صاحبها على انتهاك حرمة القانون ولم يعبأ باغلاقها عند الساعة التاسعة مستهدفا بذلك للعقاب الصارم .

وقف هولز مترددا بين الدخول ومواصلة السير .. وفجأة فتح باب الحانة وخرج منها رجلان ثملان دهشا حينما شاهدا الكولونيل واقفا على هذه الحال . لكنهما تقدما اليه فى عبث السكارى وجذباه من ذراعيه الى داخل الحانة القذرة وهو يقاوم مقاومة ضعيفة .

وقف هولز فى مدخل الحانة مغمضا عينيه قليلا ازاء النور المنبعث من المصابيح الزيتية المعلقة فى سقفها المظلم المنخفض بينما

راح صاحبها يسب السكيرين ويلعنهما لتركهما البـاب مفتوحا وتعريضه للعقاب .. وأسرع لاغلاقه .

ولمـا ألفت عينا الكولونيل الضوء أجال نظره فيما حوله ، فرأى خليطا من حثالة الرجال والنساء جالسين حول موائد قذرة يعاقرون الشراب ويقامرون . وقد استعانوا بهذه الوسيلة على أزجاء الوقت بعد أن حيل بينهم وبين مغادرة العاصمة الموبوءة .

القى عليهم هولز نظرة تشف عن الاشمئزاز . بينما جاوبوه بنظرات مستفسرة متسائلة .. ولزموا الصمت الا واحدا منهم كان يغنيهم بعض القطع الرقيقة المتداولة فى مثل هذه الاوساط ..

وقال الكولونيل أخيرا :

ـ يا الهى .! لولا انه قيل لى ان البلاط انتقل الى سالسبورى لحسبت نفسى فى هويتهول ..!

أثارت هذه التورية عاصفة من الضحك بينهم . وصفقوا طربا لخفة روحه وحضور بديهته . وأفســحوا له مكانا بينهم حول احدى الموائد . فلبى الدعوة . وجلس يشرب وقتا طويلا حتى بزغت خيوط الفجر . وتفرق رواد الحانة منصرفين الى جحورهم

نام هولز فى الحانة الى الظهر . ثم تناول افطارا رخيصا . وخرج منها هائما فى الشوارع على غير وجهة معينة . فراعه ما رآه حوله من مظاهر الوحشة والخراب . اذ كانت الطرقات مقفرة الا من بعض الضالين الشاردين من امثاله . والمتاجر والحوانيت موصدة الابواب كسادا .. والصلبان الحمراء تعلو بيوتا لاحصر لها

كان يهيم فى الشوارع نهارا . وفى الليل يأوى الى تلك الحانة القذرة حيث ينضم الى روادها من الدهماء والصعاليك الذين جمعت بينه وبينهم رابطة البؤس ووحدة الشقاء . فلم يكن لهم سلوى الا فى معاقرة الخمر لنسيان ماهم فيه من حطة وتعاسة .

وهكذا استقر به الحظ السىء الذى لاحقه طوال حياته ، فى هذه البؤرة أخيرا .. ولزم هذا الجحر حتى يخلصه الموت من عذابه .

ثم جاءت النهاية المنشودة .. اذ سكر ذات ليلة حتى الثمل ، وخرج من الحانة مطرودا وراح يتخبط فى الظلام ويتطاوح وقد فقد كل وعى وادراك .

وفيما كان يسير فى أحد الازقة المظلمة عثر بجسم هوى فوقه .. ولمـا أعوزته القوة للنهوض أو الحركة استسلم للنوم حيث سقط .

مضى نصف ساعة .. وأوشك الفجر أن يبزغ .. وفى هذه اللحظة رن صوت عجلات مركبة عتيقة صحبها النداء المروع

ـ اخرجوا موتاكم !.

ثم وقفت المركبة عند مدخل الحارة المظلمة التى سقط فيها هولز . وتقدم رجل حاملا مصباحا رفعه امامه لينير له زوايا هذا المكان المظلم فرأى جسمين ممددين على الارض .. احدهماجسم الكولونيل هولز . والثانى جسم الرجل الذى تعثر فيه الكولونيل وهوى فوقه .

نادى الرجل نداء خاصا وتقدم فى الحارة .. وجاء فى أثره صاحبه يجذب عنان الجواد الذى يجر (عربة الموتى) .

تقدم قائد المركبة وأدار الجثة التى سقط هولز بسببها .. ثم فعل هذا بجسد الكولونيل .. وكان وجهه متقلصا كوجه صاحب الجثة . ولا يكاد يتنفس . فلم يلق الرجلان عليه أكثرمن نظرة واحدة . وعادا الى صاحب الجثة الهامدة .

ركع الرجلان على الارض وأخذا فى تفتيش ملابس الميت .. فقال أحدهما بعد قليل :

ـ لايوجد شىء يذكر يالارى ..

فقال لارى متبرما :

ـ نعم !.. هم فقراء ملاعين !.. لنحمله فى العربة يانسكون..

نهض الرجلان .. وحمل كلاهما خطافا رفعا به الجثة وقذفا بها داخل العربة ، وقال نكسون وهو يتجه الى جسد هولز :

ـ لنبحث فى حالة الثانى !..

ركع نكسون فوق هولز .. وأدنى زميله العربة قليلا ،وسرعان ماهتف الاول :

ـ هذا أفضل !..

انحنى زميله فوق كتفه .. وغمغم راضيا :

ـ هو من الاعيان !.. فى داهية !..

وأخذت أصابعهما القذرة تفتش جيوب هولز واحدا واحدا.. وضحكا ضحكة خبيثة حينما عثرا على بعض النقود الذهبية الباقية معه ..

جرداه بعد ذلك من عباءته وقبعته وحذائه وسيفه .. وجعلا منها ربطة القاها أحدهما فى سلة مدلاة خلف العربة ، وفجأة قال نكسون وهو منهمك فى نزع سترة هولز :

ـ هو دافىء يالارى !..

دنا منه لارى وهو يسب سبابا وضيعا .. وقال باحتقار :

ـ سيبرد قبل أن نصل الى المدافن ..

وضحك ضحكة مخيفة وهو يتناول سترة هولز ..
وفى اللحظة التالية حملاه بالخطافين وألقياه فوق الجثث المكدسة فى العربة البشعة ..
ارتدت العربة من الحارة .. وواصلت طريقها الى المدافن فى (الدجيت) .. وكانت تقف بين وقت وآخر لنقل بعض الجثث اما باشارة من أحد الملاحظين ، أو بما كان الرجلان يصادفانه فى الطريق كما رأينا ..
وفيما كانت العربة تدنو من المدافن وقد بزغت خيوط الفجر الشاحبة تبدد حجب الظلام .. اذ استيقظ هولز من سكرته ..
استيقظ مختنقا وراح يشهق تلهفا للهواء . وأخذ يدفع عنه جثة القيت فوق وجهه . وكلما استنشق الهواء الفاسد حوله زاد اختناقا . فاستولى عليه رعب نشط حواسه من وطأة السكر. فبذل جهدا شديدا حتى استطاع أخيرا أن يخلص رأسه .

راى نجوم السماء الشاحبة فوقه . وتسنى له أن يستنشق الهواء بغير جهد . لكن الجثة التى كانت فوق صدره أثقلته . فمد يده . ولما أحس بأنه ممسك بذراع بشرية هزها بعنف . فلم يسمع جوابا . فهتف غاضبا :
ـ قم ياسكران !. قم عنى !. هل تحسبنى فراشا حتى تنام فوقى ؟. قم . والا ..
وكف عن الكلام فجأة . اذ رأى مصباحا يصوب الى وجهه.. فقد وقفت العربة حينما سمع الرجلان صوته . وتسلقا عجلاتها وأطلا على الجثث من فوق الحاجز .
كانت سحنتا الرجلين كسحن الابالسة . وما كاد هولز يراهما حتى ذهب عنه سكره . وبذل جهدا حتى جلس فى مكانه . وجعل يدير نظره حوله فى حيرة واضطراب . محاولا أن يعرف أين هو. قال أحدهما :
ـ قلت لك يالارى انه كان دافئا !.
ـ طيب .. وبعد ؟.
ـ لنخرجه من العربة بالطبع !.
ـ دعه مكانه . اذا لم يمت حتى الان فسيموت قريبا .
ـ وما رأيك فى مفتش الصحة يامغفل ؟ سيرى انه سكير نام فى الشارع . وماذا يقول لنا عند ذلك؟. تعال . ساعدنى . لنخرجه من العربة ..
لكن هولز لم يكن فى حاجة الى هذه المساعدة . فان الكلمات التى سمعها ، وما رآه حوله من الجثث المخيفة ، جعلته يدرك حقيقة الموقف .

انتابه ذعر شديد أطار سكره ، ونفخ فيه قوة جديدة .. فانتزع نفسه من بين الجثث . ونهض على قدميه .. ثم رفع احدى ساقيه فوق حاجز المركبة . واتبعها بالثانية . وألقى بنفسه . فسقط ممددا على الارض .

ولما نهض على قدميه كانت المركبة قد واصلت سيرها وابتعدت عنه .. وأخذت ضحكات الرجلين المخيفة تتردد بين جوانب الشارع الساكن ..
ركض هولز مبتعدا عن العربة الجهنمية .. ولم يكف عن الركض حتى تلاشى صوت عجلاتها وصدى ضحكات صاحبيها من أذنيه . فوقف فى مكانه يستعرض حالته . فاذا هو بغير سترة ولا عباءة ولا حذاء ولا قبعة .. ولم يكترث فى هذه اللحظة كثيرا بضياع سيفه ونقوده القليلة وكل ماكان يعنيه الان هو شعوره بالبرد والدوار .. واحس برأسه تكاد تتصدع وحواسه تفشاها سحابة .. على انه كان متمالكا قواه العقلية .. واستطاع أن يفكر وأن يتصور ماحدث له كأنما كان مستيقظا ..

سار بخطوات آلية على غير هدى كأنه تحت كابوس .وانتشر ضوء النهار وبدأت طلائع أشعة الشمس تكسو وجه الافق بلون وردى شاحب ..
ثم كف عن السير اخيرا بعد أن خارت قواه وشل تفكيره .. وتهالك فى مدخل بيت مهجور .. حيث استولى عليه النوم .

ولما أفاق ألفى أشعة الشمس تغمر وجهه .. ورأى رجلا مرتديا ملابس سوداء ممسكا بيده عصا حمراء يطل عليه بوجهه، وقال له الرجل حينما رآه استيقظ :
ــ ما الذى يؤلمك ؟.
حدق فيه هولز ساخطا . وأجاب :
ــ منظرك !. ولا شىء سواه .
وبذل جهده للنهوض من رقدته ..

على انه ماكاد يستوى على قدميه حتى داهمه دوار شديد . وترنح ثم تخاذلت ساقاه . وهوى على الارض ثانية .
بقى فى مكانه يفكر فى حالته . وفجأة خطرت له فكرة . فمزق صدر قميصه وصاح بجنون :
ــ انا كذبت عليك !.
ولما رفع رأسه صدرت منه ضحكة داوية . وهتف :
ــ كذبت !. بى شىء آخر !. انظر !.

وكشف عن صدره حتى يتسنى للرجل أن يرى مارآه هو .
وكان هذا آخر مايذكره ..
فقد اينعت زهرة الطاعون فوق صدره أثناء نومه .

فصـــل السـابع والعشرون

فى المســتشفى

سقط هولز فريسة للحمى . ولم يرحمه من ويلاتها سوى غيوبته المتصلة . ثم استيقظ أخيرا لكي يموت . كما تصور .

الفى نفسه ممددا فوق فراش من قش ، قرب نافذة لمحمنها بعض أوراق الشجر . وفوق رأسه عوارض سقف تبدو منه صفحة السماء ..

أدار رأسه الى اليمين . فرأى فراشا من القش فى غرفة مستطيلة فوقه مرضى مثله . وكان بعضهم ساكنا كالموتى . وبعضهم يتقلب متوجعا متململا . وكان بينهم مصاب يقاوم حراسه مقاومة عنيفة .

لم يكن هذا المشهد مما يسر مثله . فأدار رأسه وتطلع الى السقف واستولى عليه هدوء تام .

أدرك موقفه ادراكا تاما . وفهم أنه مصاب بالطاعون . وانه قد منح هذه اليقظة لكي يشكر الله على ان حياته التعسة قداشرفت أخيرا على نهايتها .

كان التفكير فى هذه النهاية القريبة كافيا لازالة شعوره بالعار . هذا الشعور الذى كان يلاحقه لو انه بقى على قيد الحياة . ولم يتمالك ان اغرورقت عيناه بالدموع شكرا لله على هذه النتيجة التى ستطهره من كل دنس . وترفع عنه مقت ناسى واحتقارها .

سمع وقع خطوات خفيفة قربه . وأحس بشخص ينحنى فوقه . فأدار رأسه مرة ثانية وتطلع . وسرعان ما انتابه خوف عظيم حتى خيل اليه أن قلبه قد كف عن الحركة وهمس لنفسه :
ــ انى أحلم من جديد !.
وقفت بجانبه فتاة فى رداء المرضـات . وتنـاولت يده . وهمست فى أذنه بصوت عذب موسيقى :
ــ لا ياراندال . انك استيقظت أخيرا . والحمد لله .
ثم رأى عينيها مغروقتين بالدمع . فقال فى حيرة :
ــ أين أنا ، اذن ؟.
فأجابته :

ـ فى مستشفى الحميات .
ـ هذا . مفهوم . أعرف انى مصاب بالطاعون . أتذكر انى أصبت به لـكن انت !؟. كيف جئت الى هنـا . فى مستشفى الحميات ؟.
ـ لم يكن أمامى مكان آخر أذهب اليه بعد . بعد أن غادرت البيت الكائن بشارع (الفارس) .
وسردت نانسى فى ايجاز ماتم منذ خروجها من ذلك البيت . ثم استطردت :
ـ وهكذا جاء بى الطبيب بيميش الى هنا . حيث أعنى بمرضى الطاعون .
فقال فى ذهول تام : وهل عنيت بى ؟. انت ؟.
فأجابته : الم تعن أنت بى ؟. فتنهد . .وابتسم راضيا .. وقال :
ـ ان الله كان بى رحيما . .انا الآثم المذنب.. كل ما تمنيته الان آن أسمعك الى جانبى ـ بعد أن عرفت شقاوتى والاغراء الذى استهدفت له ، تواسيننى بكلمة ـ وتصفحين عنى .. حتى أموت موتا هينا .
ـ تموت .؟ لم تتكلم عن الموت ؟.
ـ لأنه آت ، رحمة من الله بى .. أن جل مااستحقه هو أن أموت بالطاعون .. انى سعيت خلفه وكان يفر منى .. على أنى تعثرت فيه بالصدفة .. وهكذا كان شأنى أبدا فى الحياة .. كلما اشتهيت شيئا وتابعته ، أفلت منى .. فاذا أمسكت عن المتابعة ، عاد الى وأخذنى على غرة .. انى كنت فى حياتى دائما سـخرية الحظ .. حتى فى موتى ..
وأرادت أن تستوقفه .. غير أنه أسرع بالكلام .. قائلا :
ـ اصغى الى لحظة ، كى لاأذهب قبل أن أضيف شيئا الى الرسالة التى تركتها لك .. أقسم لك انى لم أكن أعرف انك أنت التى تقرر أن أختطفها .. والا لذهبت الى الجلاد قبل أن أرضى بأداء مهمة الدوق هل تصدقيننى ؟.
ـ لا داعى لهذا التوكيد ياراندال .. أنا لم أشك لحظة فى هذه الحقيقة ..
فتطلع اليها مبتهلا .. وقال :
ـ أنا لا أكاد أطمع فى أن تصفحى عنى .
ـ بل انى صفحت منذ زمن طويل ياراندال . انى وهبتك صفحى وشكرى حينما علمت مافعلتـه لاجلى ، وكيف جازفت

بحياتك لاصلاح ماحدث .. انى أصفح عنك صفحا حرا . تاما ، شاملا ياعزيزى راندال .

ـ اذن فأنا راض قانع ..ماذا يهم اذا كانت آمالى فى الحياة والمجد الكاذب قد ضاعت ، مادمت وصلت الى هذه النتيجة التى يتضاءل ازاء كل شيء ؟.

فقالت معاتبة وقد تندت عيناها بالدموع :

ـ أنت تتكلم كأنك ستموت .. لكنك ستشفى .

ـ ما أغنانى عن هذا الوهم ، مذ كنت أموت سعيدا ..

وجاء الطبيب فى هذه اللحظة وفحص حالة المريض .. وأيد أقوال نانسى فى أنه نجا من الخطر ..

والواقع ان نانسى قد أوفته الجميل مضاعفا .. وردت له كل مافعله لاجلها أثناء مرضها ، وبفضل عنايتها نجا هولز من الموت.

وما كاد يمضى أسبوع حتى نهض على قدميه ، وقرر الطبيب انه برىء تماما من المرض ، لكن كان لابد أن يمضى المدة التى ينص عليها القانون فى المنزل الصحى ، ضمانا لعدم نقل العدوى الى سواه ، ولذلك تقرر أن ينقل الى مخيم النقاهة .

وفى يوم الوداع . وقف يشكرها بحرارة .. لكنها كانت تنتظر منه أكثر من هذا .. فقالت وهى تغالب تهدج صوتها : وماذاتنوى أن تفعل ؟.. الى أين تذهب متى .. متى انتهى الشهر ؟..

فابتسم وهز كتفيه هزة يسيرة وأجاب : أنا لم أفكر فى هذا بعد ، وقد أذهب الى فرنسا ، حيث يوجد دائما عمل للجندى ..

غضت نظرها .. وصمتت طويلا ، ثم قالت أخيرا : هل تذكر ذلك اليوم الذى تكلمنا فيه معا ، فى الدار الكائنة بشارع الفارس ، عقب شفائى من المرض ؟.. فى ذلك اليوم أعربت لك عن شكرى لانقاذ حياتى ، لكنك أبيت قبول هذا الشكر ، كما أبيت قبول الصفح ، وقد دفعك الى ذلك اعتقادك بأنى فعلت ذلك مدفوعة بعامل الاعتراف بالجميل فحسب ..

فأجاب هولز : هذا هو الواقع ..ولايمكن ان يكون غير هذا..

ـ هل أنت واثق مما تقول ؟

ـ تمام الثقة .

ـ لكنك تنسى شيئا .. فأنا لم أعد مدينة لك بشيء . وكما انقذت حياتى ، فكذلك أنقذت أنا حياتك .. وبعد أن تساوينا ، منحتك صفحى حرا تاما شاملا .. واذن فان اساءتك لم تكن موجهة الى حقا .

فقاطعها بخشونة : بل كانت موجهة اليك ، والى شرفي .. وقد جعل منى ذلك العمل شخصا غير جدير بالاحترام .
ـ وحتى برغم ذلك ، فانى منحتك صفحى كاملا منذ أن وقفت على الظروف القاسية التى أحاطت بك .
سرى فى وجهه تورد يسير ، وأحنى رأسه ، وقال :
ـ بارك الله فيك . ان هذه الكلمات تبث فى نفسى قوة لمواجهة ماينتظرنى . وسأحتفظ دائما بذكراها . وذكرى نبلك .
فهتفت : لكنك مازلت لاتصدقنى ! وترى أنه مايزال فى نفسى آثار .. نفور واستياء .
ـ لا .. لا يانانسى انى أصدقك .
ـ ومع ذلك فأنت تصر على الذهاب !
ـ وهل أمامى أن أفعل غير ذلك ؟. أنت تعرفين جميع الحقائق ويمكنك أن تدركى أنه لم يبق لى مجال فى انجلترا .
أحنت رأسها .. ولم تجرؤ على أن تبوح بما فى نفسها .. ثم أخرجت من صدرها قفازا يعلوه القدم .. وتطلعت اليه بعينين فيهما آثار الدمع ، وقالت : هذا شىء يخصك على الاقل .. فخذه ياراندال . خذه ، مادام هو كل مايسعنى أن أمنحك اياه .

فتناول القفاز بعد تردد ، واستبقى يدها فى يده ، وقال برقة :
ـ سأحتفظ به كتعويذة تصون شرفى ..
ثم لثم يدها وقال : الوداع يانانسى . وأدعو الله أن يشملك برعايته .
وأراد أن يتخلى عن يدها . لكنها تشبثت بيده ، وهتفت فى حزن وعتاب : راندال !. هل تفكر حقا فى فراقى ثانية ؟.

امتقع وجهه وارتعدت أطرافه ، وقال فى لهجة مؤثرة :
ـ وهل يسعنى أن أفعل غير هذا ؟.
ـ هذا سؤال من الافضل أن تجيب عنه بنفسك ..
فاستخلص يده من يدها . وهتف : أواه !. لم تمتحنينى هكذا يانانسى ؟. الله يعلم أنك لاتستطيعين الاحتياج الى . وهل فى وسعى أن أقدم لك شيئا ، وأنا المفلس فى المال والشرف ؟.

فقالت : وهل تحب المرأة الرجل لما تنتظر منه ؟. هل هذا درس تعلمته من حياة الجندية المأجورة ؟ ان الحظ قد جمع بيننا بعد طول فراق ، فى ظروف قاسية ثم تباعدنا من جديد ، فذهبت عنى مدفوعا بدوافع الاحساس بالعار والكرامة الجريحة ، وفى نيتك أن يكون فراقنا الى الابد . لكننا تلاقينا مرة ثانية . فهل تطمع أن تحدث هذه المعجزة مرة ثالثة ؟.

نظر اليها فى ثبات ، وقال : اني كنت فى حياتى ضحية الحظ السيء . لكن ليس معنى هذا أن احاول اشراكك فى نحسى .. ان أمامك المستقبل الزاهر . أمامك فنك . أمامك الحياة الحافلة بأسباب المسرات متى انقشعت غيوم هذا الوباء . أما أنا فلا أملك شيئا أقدمه لك .. وليس لى من الدنيا سوى هذه الملابس الزهيدة التى تكسونى .. ولو كان الحال غير ذلك .. لكن لم تعذب خواطرنا بالتفكير فيما هو غير كائن لكن لابد من مواجهة الامر الواقع . الوداع يانانسى .

وفجأة دار على عقبيه وابتعد عنها . فبقيت فى مكانها ذاهلة . ثم بسطت يدها نحوه وهتفت تناديه ، ولكنه كان قد جاوزها بمسافة كبيرة .

الفصل الثامن والعشرون

مداعبات الحظ

غادر هولز مخيم النقاهة بعدتمام الشهر ومنح شهادةالصحة ، واستقر عزمه على مغادرة انجلترا والذهاب الى فرنسا بغير ابطاء .

ولم يكن يملك مالا . فقرر أن ينضم الى احدى السفن بصفة بحار ويمم شطر ميناء وانبج لهذا الغرض .

وفيما هو فى الطريق اذ مر بشارع (وود) حيث يوجد فندق (القيثارة) الذى أقام فيه بعض الوقت . فتذكر صاحبه الطيب القلب بانكس الذى حذره فى الماضى من رجال العدالة عندما كانوا يتعقبونه . وتذكر انه ترك عنده بعض الملابس الجيدة التى قد يستطيع الانتفاع بثمنها فى محنته الحالية . فرأى أن يزوره لعله يحقق عنده هذا الامل .

دخل قاعة الفندق العامة . فاذا بها خاوية الا من صاحب الفندق ، وما كاد يراه حتى هتف : الكولونيل هولز ؟ ! هذا انت حقا يا سيدى . ام هذا شبحك ؟ ان الاشباح قد صارت الان اكثر من الاحياء ..

فقال الكولونيل : احسب اننا كلينا من الاشباح يا بانكس .

ـ ربما .. لكنى أحمد الله انه لا يزال لك حلق على الاقل .. هل لك فى كأس من النبيذ يا كولونيل ؟ .

ـ كنت أود هذا من كل قلبى .. لكنى لا أملك نقودا بكل أسف ..

ـ نقودا ! .. اجلس يا كولونيل ودعك من هذا الكلام ..

جاء بانكس بالنبيذ . وملأ للكولونيل كأسا ولنفسه اخرى .. وقال بعد أن احتسى كلاهما كأسه : يسرنى أن أراك على قيد الحياة يا كولونيل . انى خشيت عليك كثيرا . لكنى ارى انك لم تنج فقط من الطاعون ، بل من هؤلاء الاشخاص الملعونين الذين جاءوا للبحث عنك . لعلك سمعت أن دانفرس قد أعتقل ، ثم تمكن من الافلات لحسن حظه . لكن حدثنى عن نفسك يا كولونيل ..

ـ ان قصتى يسيرة .. أنا لم أكن من حسن الحظ كما تصورت .. فقد مرضت بالطاعون ..

فقال بانكس وهو يتأمله باحترام :

ـ وقد نجوت منه ! . أنت رجل سعيد الطالع يا سيدى ! .

فقال الكولونيل : هذا مالا أعلمه عن نفسى ..

فقال صاحب الفندق باستياء : ان الذين ينجون من الطاعون قليلون . واصابتك به تكسبك مناعة ..

ـ لكنى مفلس برغم مناعتى . وهذا ما جاء بى الى هنا . انى جئت لكى أرى ان كان يمكن أن أسترد ملابسى التى تركتها عندك ، حتى احيلها الى بضعة شلنات ..

فقال بانكس يطمئنه : نعم .. نعم .. هى باقية عندى . وهى رهن اشارتك . لكن ماذا تنوى أن تفعل يا كولونيل ؟ .

فأخبره هولز بعزمه على السفر الى فرنسا كأجير على ظهر احدى السفن .. فتأمله بانكس لحظة ثم قال :

ـ لا توجد مواصلات بحرية مع فرنسا ، بل ان السفن الموجودة نادرة ، فان الطاعون أفسد كل شيء ، والموجود من السفن لا يسمح له بدخول أو مغادرة موانى لندن بسبب الخوف من نقل عدوى الطاعون ..

جزع الكولونيل . ورأى أن نحسه قد بلغ الذروة .. فقال بكآبة :

ـ سأضطر الى الذهاب اذن الى ميناء « بورتسموث » .

ـ لن تذهب أبدا .. فان بورتسموث لن تقبل دخولك ما دمت قادما من لندن . وكذلك الشأن فى باقى المدن الاخرى ..

ـ لكن معى شهادة صحية ..

ـ ستضطر الى اعتمادها من أحد الوزراء قبل أن تفتح لك بورتسموث أبوابها ..

تطلع هولز أمامه شارد الذهن . ثم ضحك ضحكة مرة وقال :

لست أدرى ماذا بقى لى .. لعلك لا تحتاج الى خادم في هذه الايام ؟ .

فأخلد صاحب الفندق الى التفكير لحظة . ثم قال :

ـ قلت انك تتمتع بالمناعة الصحية . ألم تر اعلان الدوق البيمارل الذى يطلب فيه الاشخاص الاصحاء ؟ .

ـ يطلب الاشخاص الاصحاء ؟ . ولأى غرض ؟ .

ـ لم يذكر السبب فى الاعلان . وربما وجدت الجواب في هويتهول . لكن يظهر انه توجد أعمال يريد سموه أن يعهد بها الى الرجال الاصحاء . وما دام موقفك كما ذكرت ، فقد يحسن بك أن تبحث هذا الموضوع .. وقد تجد فيه فائدة لك ..

فقال هولز : هذا جائز . والظاهر انه يحتاج الى كناسين ، أو سائقى عربات الموتى ، او امثالهم ..

لا .. لا .. أعتقد ان المسألة تتصل بشأن أفضل من هذا .

فنهض هولز قائلا : مهما يكن . فان الكبرياء لا يملأ البطن الخاوية ..

فقال بانكس وهو يتأمل ملابسه العتيقة : أصبت .. لكن اذا كنت تفكر في زيارة هويتهول ، فأفضل لك أن ترتدى تلك الملابس النظيفة الباقية عندى ..

وهكذا خرج الكولونيل هولز من فندق « القيثارة » شخصا اخر غير الذى دخله . ولما رآه حجاب قصر الدوق البيمارل دهشوا لندرة الملابس الانيقة فى تلك الايام . وسارعوا لابلاغ الدوق بقدومه .. فلما دخل عليه بادره البيماركبهذه الجملةالتى أثارت دهشته :

ـ اذن فقد جئت اخيرا يا راندال ! . انك تباطأت كثيرا في الرد على رسالتى . وقد اعتقدت منذ مدة أن الطاعون قد ذهب بك ..

فقال هولز في دهشة وهو يصافح الدوق : رسالتك ؟ .

ـ نعم رسالتى .. هل تلقيتها ؟ . الرسالة التى بعثت بها منذ شهر في « فندق بول » ؟ .

فقال هولز : لا .. لم أتلق رسالة ما ..

فقال البيمارل وهو ينظر اليه غير مصدق :

ـ لكن .. ان صاحبة الفندق احتفظت بها لتسليمها اليك .. وقد قررت كما أذكر انك متغيب وستعود بعد يوم أو يومين ..

ـ تقول منذ شهر ؟ . لكنى غادرت فندق « بول » منذ شهرين ؟ .

ـ ماذا تقول ؟ . انتظر . سأستجوب رسولي في هذا الشأن .
فاستوقفه هولز قائلا وهو يبتسم ابتسامة مغتصبة :
ـ لا .. لا .. لا حاجة الى ذلك . احسب انى فهمت . ان مدام كوين اندفعت وراء حقدها . ولا ريب ان رسولك إفهمها انه قادم من عندك ، فلما رأت تلك المرأة اللعينة ان الموضوع قد يكون فيه فائدة لاجلى . فعلت ما من شأنه أن يحول دون مواصلة البحث عنى ..
فقال الدوق وقد احتقن وجهه :
ـ ماذا تقول ؟ . هل تتهمها بحجز رسالة حكومية ؟ . اقسم انها اذا كانت على قيد الحياة ، فستسجن جزاء هذا العمل ..

فقال هولز وهو يتناول ذراع الدوق : دعنا منها الان ، وحدثنى عن هذه الرسالة . لعلك لا تقصد أن تقول انك وجدت منصبا لى اخر الامر ؟ .
ـ يظهر انك متشكك يا راندال ؟ .. هل ترتاب في صدق اهتمامى بك ؟ .
ـ آه .. لست أرتاب في هذا .. وانما في سنوح الفرصة لمساعدة من كان فى مثل ظروفى ..
ـ نعم .. نعم .. لكن بكنجهام مهد السبيل لذلك حينما تعهد بكفالتك أمام رجال القانون ، انى سمعت بهذه القصة . ثم سنحت الفرصة فى صدد منصب بومباى الذى كنت قد اخترته لك من قبل ..
خيل للكولونيل انه يحلم . فقال : منصب بومباى ؟ . لكنى احسب أن بكنجهام طالب به لاحد أصدقائه ..

ـ نعم . لكنه قضى نحبه بالطاعون في الطريق . ومن حسن الحظ انه انتهى الى هذا المصير ! . فانه لم يكن يليق أدنى لياقة لهذا المنصب . وقد كتبت لك في الحال طالبا حضورك ، وانتظرت أسبوعين، ولما لم أتلق ردا انتهيت الى انك مت بالطاعون أو لم تعد فى حاجة الى منصب ، وشرعت في تعيين شخص اخر فيه ..
هوى هولز الى قرارة اليأس وزفر زفرة الموجع .. فقال البيمارل :
ـ لكننا لم نصل الى النهاية . فانى لم أكد اعين ذلك الشخص فى هذا المنصب ، حتى مرض كذلك بالطاعون وتوفي منذ اسبوع .. وقد وجدت رجلا اخر لائقا للمنصب ، وكنت أنوى اسناده اليه غدا .. لكنك اذا كنت لا تخاف من اقتران الطاعون بهذا المنصب فهو رهن طلبك ، وأنا مستعد لاسناده اليك في الحال ..

فقال هولز وقد فغر فاه : تعنى .. تعنى أن .. انى سأنال هذا المنصب بعد كل ذلك ؟ .

ــ هذا ما قلته .. ان مرسوم التعيين ..

وكف البيمارل عن اتمام جملته .. وتطلع اليه قائلا :

ــ ماذا بك يا رجل ؟ . أنت ممتقع كالشبح ! . هل أنت مريض ؟ .

وأسرع الدوق باخراج منديل تفوح منه رائحة نفاذه .. ففهم هولز أن الدوق اعتقد أن الطاعون المقترن بالمنصب قد سطا اخيرا على زائره الذى أزمع اسناده اليه . فلم يتمالك أن ضحك عاليا وقال :

ــ لا حاجة الى التحوط منى يا سمو الدوق!.انى اكتسبت مناعة من الطاعون . وقد غادرت مخيم النقاهة صباح اليوم .

فقال البيمارل مشدوها : ماذا ؟ تعنى انك أصبت بالطاعون ؟

ــ هذا هو سبب وجودى هنا . فانى رجل صحيح ذو مناعة .. وقد جئت تلبية لاعلانك عن الرجال الاصحاء .

جعل الدوق يتفرس فيه مذهولا .. ثم قال اخيرا بعد ان تجلت له الحقيقة : اذن فهذا سر حضورك ؟

ــ لولا هذا السبب لما جئت فى الواقع .

فقال الدوق وهو يعجب من طرافة هذا الموقف :

ــ يا الهى ! ما أعجب أفاعيل الحظ !.

فقال هولز وقد أدرك اخيرا كيف دارت عجلة الحظ دورة مفاجئة بدلت حياته : الحظ !. يكاد يظهر لى أن الحظ حالفنى أخيرا وان كان تركنى حتى وصلت الى أقصى درجات النحس .. ولولا اعلانك .. ولولا مدام كوين .. للازمنى النحس من جديد بشأن هذا المنصب .. فقد شاء الحظ أن يبقى هذا المنصب فى انتظارى مدة .. دون أن أعلم .. وقد أسدت الى مدام كوين خدمة من حيث أرادت أن تسىء الى .. فلو انها أخبرت رسولك بالحقيقة ، وقررت له انى اختفيت عنها وانها لاتعرف مكانى ، لما انتظرت حضورى مدة الاسبوعين التى أشرت اليها ولاختلف كل شىء .

فقال البيمارل : ربما كان ماتقول . لكن مايهم هو انك جئت اخيرا ، وان المنصب رهن اشارتك اذا كنت راغبا فيه . ولا خوف عليك من الطاعون الذى اقترن به ، مادمت اكتسبت المناعة ..هو منصب هام كما قررت لك ، واذا اضطلعت بأعبائه كما هواعتقادى فيك فسيكون فاتحة لما هو خير منه . مارأيك ؟

هتف هولز ، مورد الوجه ، لامع العينين ؟
ــ رأيك ؟.. انى أشكرك من أعماق قلبى ..
ــ اذن فقد قبلته .. بديع .. لانى أعتقد انك أصلح رجل لهذا المنصب ..
ثم نهض البيمارل الى طاولة الكتابة ، وتناول وثيقة عليها ختم كبير ، وسطر فيها قليلا ، وناولها الى هولز قائلا :
ــ اليك مرسوم التعيين .. متى تستعد للرحيل ؟..
فقال هولز فورا : بعد شهر ..
بوغت البيمارل بهذا الجواب .. وقال عابسا :
ــ شهر !.. ماهذا الكلام .. يمكنك أن تستعد فى خلال اسبوع .
ــ فى وسعى أن أستعد فى يوم .. لكنى أنوى أن ..
فقاطعه البيمارل قائلا : ألا تقدر الوقت الطويل الذى ضاع حتى الان ؟.. ان هذا المنصب ظل خاليا مدة أربعة أشهر ..
ــ وهذا معناه انه يوجد نائب كفء يقوم بالعمل .. فدعه اذن يستمر فى العمل وقتا آخر .. وأعدك انى متى وصلت الى مقر الوظيفة فسأعوض مافات ، وبوسعك أن تدرك انى قد أصحب معى رفيقا لايمكنه أن يستعد فى أقل من شهر ..
ثم استطرد هولز فى جرأة عجيبة وقد اعتقد أن الحظ سيواليه أخيرا الى النهاية : انك قررت أننى أصلح رجل لهذا المنصب .. ففى وسع الحكومة اذن أن تنتظر شهرا ، أو فلتسند هذا المنصب لمن لايليق له ولا يضطلع به على الوجه المنشود ..
فابتسم البيمارل وقال : انت حافل بالمفاجآت اليوم يا سيد راندال .. وهذه المفاجأة تحيرنى منك ..
ــ هل أتولى التفسير ؟
ــ اذن يكون تعطفا منك ..
سرد هولز قصته كاملة على الدوق الذى أنصت له متلطفا . فلما فرغ منها تنهد الدوق والتفت جانبا دون أن يجيب ، وأخذ يقلب صحائف كراسة أمامه . وقال أخيرا بعد فحصها : لابأس ، أن السفينة (الفتاة الانجليزية) تجهز لهذه الرحلة فى ميناء بورتسموث ، وستكون متأهبة للرحيل فى ظرف أسبوعين . لكن أسباب التأخير شائعة فى هذا الوقت ، وأغلب الظن انها لن تتم استعدادها قبل ثلاثة أسابيع . وسأتخذ مايلزم لكى لايتم ذلك قبل شهر .
بسط الكولونيل يديه للدوق وقد أفعمت نفسه ، امتنانا ، وهتف :

ـ ما أنبلك من صديق !.

فشد الدوق على يديه بحرارة وقال له : أنت مثل أبيك ؛ رحمه الله .. اذهب الان . وأتمنى لك التوفيق . ولن أسألك أن تقابل الدوقة فى الوقت الحالى مادمت مشغولا . ولك أن تقبل يديها قبل ابحارك .. اخرج !..

فاستأذن هولز . على أنه ماكاد يصل الى الباب حتى وقف فجأة ، وقال مستاء :

ـ أنا لاأملك شلنا واحدا . مع انى أحمل مرسوما ملكيا فى جيبى ، وقد أسند الى منصب كبير .

فأخرج البيمارل فى الحال كيسا أحصى منه عشرين جنيها ، وقدمها الى الكولونيل دون أن يبدو على وجهه الان شىء من الاستياء .. فقال هولز : هذا قرض بالطبع .

لكن الدوق صحح عبارته بسرعة : لا. لا. هذه دفعة على الحساب . لا تفكر فى امرها . فان خزانة الدولة ستردها الى فى الحال .

الفصل التاسع والعشرون

المعجزة

أسرع الكولونيل هولز الى مستشفى الحميات وهو يكاد يطير فرحا دون أن يلوى على شىء .. وماكاد يصل اليه لاهث الانفاس حتى اعترضه الحارس المتجهم الوجه قائلا : لايمكنك الدخول ياسيدى .. ماذا تريد ؟.

فأجاب الكولونيل بلهجة زادت الحارس اعتقادا فى جنونه :

ـ السعادة ياصديقى .

وطلب الكولونيل أن يفتح له الباب بلهجة الامر فخفف الحارس من غلوائه وقال له : هل تعرف ياسيدى انك متى دخلت ، فقد لاتخرج قبل ثمانية وعشرين يوما على الاقل .

فأجاب هولز : نعم أعرف .. وقد جئت مستعدا لدفع هذا الثمن .. فافتح اذن بالله ياصديقى .

فهز الحارس كتفيه وقال وهو يفتح الباب : انى أنذرتك .

دخل هولز .. وأسرع فى الممشى المظلل بالاشجار الى مبانى المستشفى الداخلية .. حيث رأته امرأة متقدمة فى السن قوية البنية حال دخوله . ووقفت لحظة تحدق الى ناحيته فى دهشة وجزع ، ثم أسرعت نحوه وهى تناديه طالبة اليه أن يقف ..لكنه لم يعبأ بندائها .. ولم يكف عن السير حتى وقف أمامها مباشرة فهتفت المرأة :

ـ كيف دخلت أيها الرجل الاحمق ؟
فسألها : ألا تعرفينني يامدام بارلو ؟
تفرست فيه المرأة فى دهشة متزايدة .. ثم عرفته أخيرا .
وهتفت :
ـ يا الهى !. أنت الكولونيل هولز !.
ثم استطردت فى حزن شديد دون أن تنتظر كلامه :

ـ لكن كان مقررا أن تغادر مخيم النقاهة اليوم .. فما الذى جاء بك الى هنا لكى تهدم كل شىء ؟.
ـ لا .. لاأهدم يامدام بارلو .. وانما ابنى بمشيئة الله .. لكن لك ذاكرة فريدة ، اذ تتذكرين أن موعد مغادرتى لمخيم النقاهة هو اليوم .
فهزت رأسها وابتسمت ابتسامة تشف عن الكآبة ..وقالت:

ـ لست أنا الذى تذكرت هذا ياسيدى .. وانما هى الانسة ملفستر .
ـ هى هنا اذن .؟ ها .! هى بخير !.
ـ بكل خير .. لكنها شديدة الحزن والكآبة .. هى جالسة هناك تحت أشجار الارز ، حيث ترددت على هذا المكان طوال الشهر الاخير .
فأسرع الى أشجار الارز حيث لمح بينها أطراف رداء يعبث به الهواء .
فى هذا المكان تم وداعهما الاخير ..ودنا منها دون ان يسمع لوقع خطواته صوت فوق الحشائش ، حيث جلست فوق المقعد الذى شهد لقاءهما لآخر مرة ، مولية ظهرها الى ناحيته .

وقف فى مكانه محتبس الانفاس ، حائرا لايدرى كيف يتقدم .. وكأنما أحست بوجوده .. فقد أدارت رأسها ببط ، وتتطلعت خلفها وجعلت تحدق وقتا طويلا وهى شاحبة اللون بتأثير هذه المفاجأة ثم استوت على قدميها . وواجهته قائلة : راندال !. أواه ياراندال .. لم جئت الى هنا ؟. كان يجب أن تخرج اليوم .
ـ انى خرجت .. وقد عدت يانانسى .
ـ عدت ! عدت !.
فقال هولز : ان معجزة قد حدثت يانانسى .
واخرج من صدره مرسوم التعيين قائلا :
ـ منذ شهر واحد كنت متسولا . وأنا اليوم الكولونيل هولز اسما ومسمى .. انى عدت يانانسى ، اذ أصبح فى وسعى أن أقدم لك شيئا فى مقابل ماسوف تضحين به لاجلى .

تهالكت رويدا فى المقعد الحجرى .. وأسندت مرفقيها الى ركبتيها .. واعتمدت رأسها بين كفيها .. وقالت بصوت مرتفع وهى تضغط على صدغها . هل هذا حقيقى .. هل هذا صحيح؟.

ثم اعتدلت فى جلستها . وتطلعت اليه . فقال لها وهو يلقى الوثيقة فى حجرها : هى ليست شيئا مذكورا ، وان كانت اليوم تبدو فى نظرى كل شىء .. ومادمت بجانبى ، فسأعرف كيف أضاعفها . ومهما يكن ، فانى أقدمها لك .

نظرت الى الوثيقة .. ثم تطلعت اليه ثانية .. وتسللت الى شفتيها ابتسامة يسيرة .. فقد تذكرت فى هذه اللحظة ذلك الوعد الضخم الذى وعدها به منذ زمن بعيد . وقالت :

ـ هل هذه هى الدنيا التى وعدتنى بها ياراندال ؟

وثب فؤاده فرحا حينما سمع هذه الجملة القديمة ذات المعنى الساحر ، فقد ازالت من نفسه كل شك فى حقيقة شعورها نحوه وأجاب :

ـ انى جئت بما استطعت استخلاصه منها .

فقالت فى لهجة رقيقة ، لاأثر فيها للتهكم القديم !

ـ اذن فأنا قانعة بهذا النصيب .

ثم نهضت ووقفت بجانبه ، وقدمت له الوثيقة دون أن تفضها .. فقال معترضا : لكنك لم تنظرى فيها .

ـ وما الداعى ؟.. قلت لى انها مملكتك .. وسأقاسمك اياها مهما كانت .

ـ هى كائنة فى الهند .. فى بومباى .

فقالت بعد تأمل : انى كنت أتلهف دائما للاسفار .

ورأى واجبا عليه أن يفسر لها ظروف هذا المنصب . فلما فرغ من سرد قصته انحدرت الدموع من عينيها . فهتف جزعا :

ـ ماذا جرى ؟. هل تشعرين بندم ؟.

ـ ندم ؟ ماهذ الكلام يا راندال ؟. انى ابكى شكرا . فقد أمضيت شهرا حافلا بالالم والعذاب .. والآن .

فطوق كتفيها بساعده ، وأسند رأسها فوق صدره .. وغمغم :

ـ ماأنبل قلبك !.

تزوج الكولونيل هولز ونانسى سلفستر فى اليوم التالى . وقضيا شهر العسل فى مخيم النقاهة اتباعا لمقتضيات القانون . ولما أخلى سبيلهما أخيرا ذهبا يستمتعان بالمجد الذى أسبغه الحظ على راندال هولز ، بعد أن ذاق مرارة النحس اعواما طويلة .

(تمت)

هيئة قنــاة السويس

حركة الناقلات خــلال شهر سبتمبر سنة ١٩٦٢

عبرت القناة خلال الشهر الحالى ٨٧٣ ناقلة مقــابل ٧٤٦ ناقلة خلال نفس الشهر من العام الماضى بزيادة قدرها ١٢٧ ناقلة أى بنسبة ١٧٪ ، أما الحمولة الصــافية فقد سجلت زيادة قدرها ٢ر٠٩٧ر٠٠٠ طن أى بنسبة ٩ر١٨٪ (١٣ر١٩٥ر٠٠٠ طن مقابل ١١ر٠٩٨ر٠٠٠ طن) وهذا دليل على التطور الــكبير فى أحجام الناقلات التى تعبر القناة فى الوقت الحاضر .

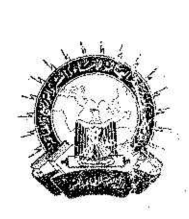
وبالنسبة لمتوسط الحمولة الصافية للناقلة فقد بلغ ١٥١١٥ طنا فى سبتمبر الحالى مقابل ١٤٨٧٧ طنا فى سبتمبر من العام المــاضى .

وبلغ متوسط كميــات المواد البترولية على كل ناقلة محملة ٢٧٠٥٢ طنا مقابل ٢٦٩٠٤ أطنان فى سبتمبر ١٩٦١

وتمثل الحمولة الصافية للناقلات نسبة قدرها ٧٥٪ من مجموع الحمولة الصافية للسفن التى عبرت القناة خلال هذا الشهر بينما كانت هذه النسبة ٧٤٪ فى سبتمبر الماضى

وبالنسبة لاتجاه العبور لقد عبرت القناة من الشمال الى الجنوب ٤٣٨ ناقلة فى سبتمبر ١٩٦٢ مقابل ٣٧٥ ناقلة فى نفس الشهر من العام الماضى . بزيادة قدرها ٦٣ ناقلة منها ٤٦ ناقلة فارغة (٣٩٩ مقابل ٣٥٣) و ١٧ ناقلة محملة (٣٩ مقابل ٢٢) .

وزادت الناقلات العابرة شمالا بمقدار ٦٤ ناقلة (٤٣٥ مقابل ٣٧١) وبينما زادت الناقلات المحملة بمقدار ٦٧ ناقلة (٤٢٠ مقابل ٣٥٣) ، نقصت الناقلات الفارغة بمقدار ثلاث ناقلات (١٥ مقابل ١٨) .



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع شبرا - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤



مركز الإشعاع الثقافي

في العالم العربي

من القاهرة

مكتبات الدار

- نيويورك
- لندن
- الجزائر
- بيروت
- طرابلس
- بغداد
- الخرطوم
- الإسكندرية
- القاهرة

يصدر عنها

روايات عالمية | الكتاب الماسي

مذاهب وشخصيات | من الشرق والغرب | كتب سيا...

كتب قومية | في المسرح العالمي | اخترنا لك

اخترنا للجندي | اخترنا للطالب | اخترنا للعامل والف...

دراسات اشتراكية | رسائل جامعية | الجوائز العالمية

مجلة الإذاعة والتلفزيون

مجلة بناء الوطن

ARAB OBSERVER

L'OBSERVATEUR ARABE

The Scribe ARAB REVIEW

Lo Scriba LA RASSEGNA ARABA

Le Scribe LA REVUE ARABE

El Escriba REVISTA ARABE

Der Schreiber ARABISCHE RUNDSCHAU